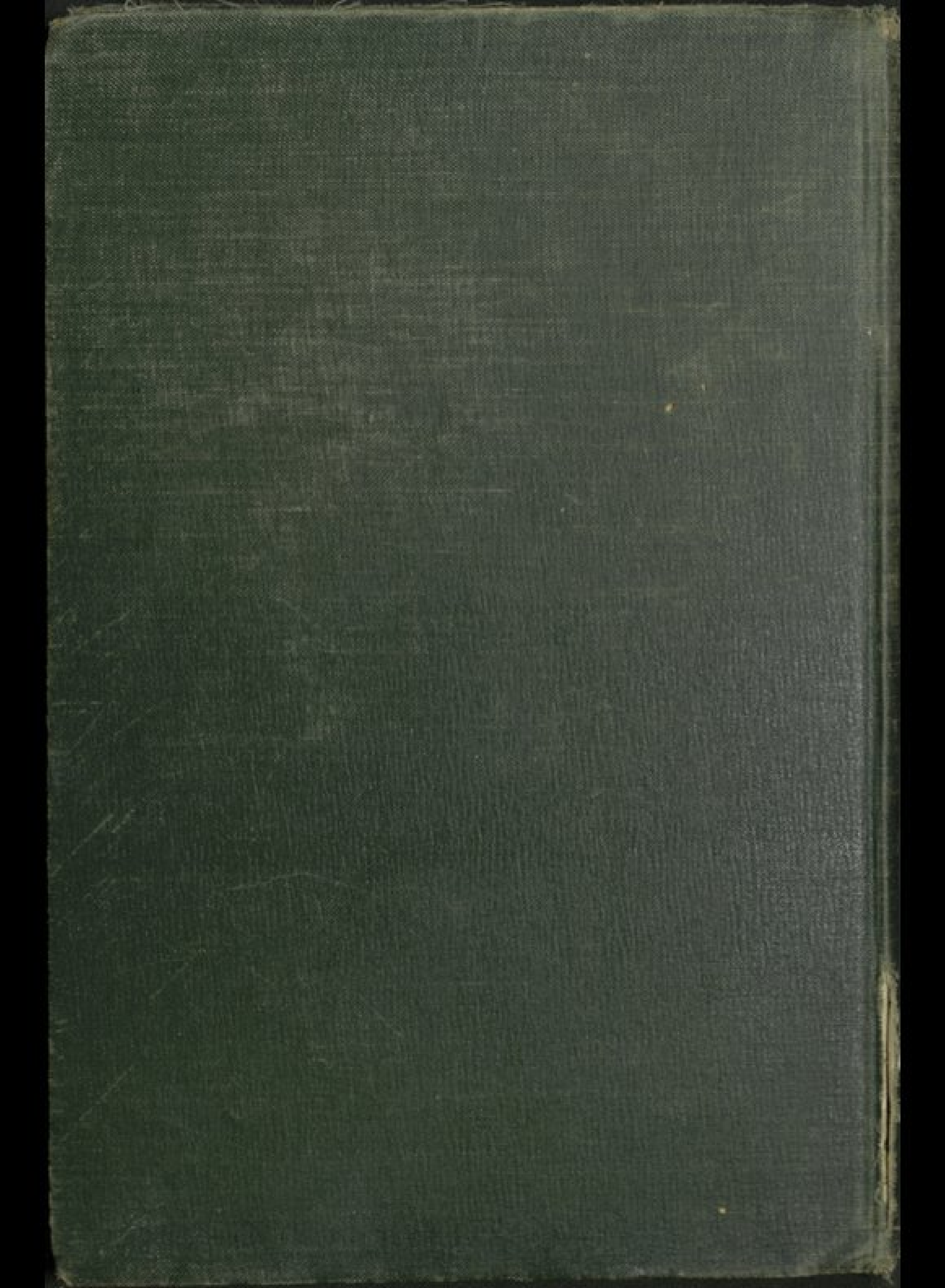
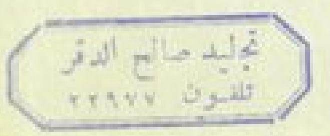
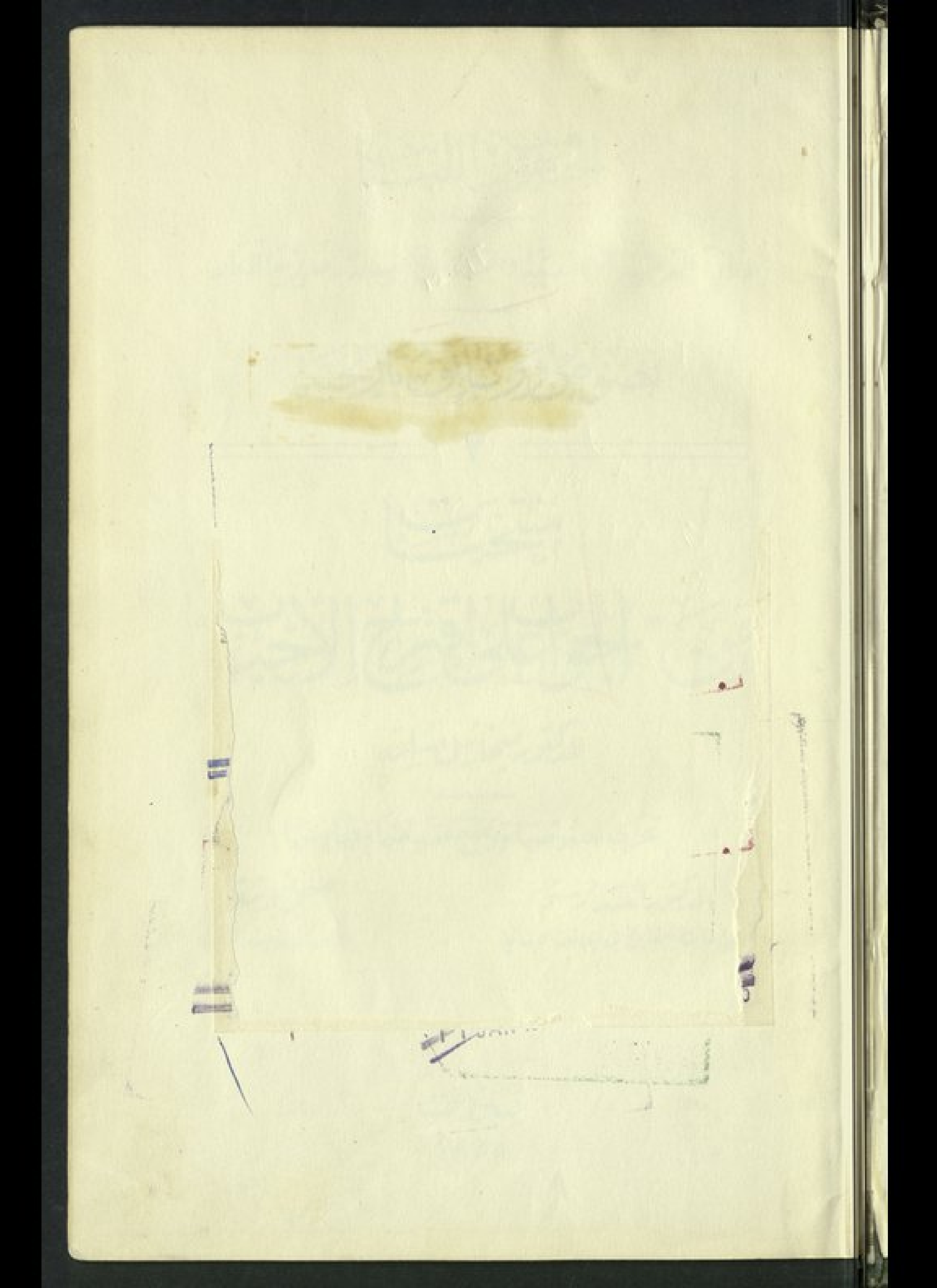
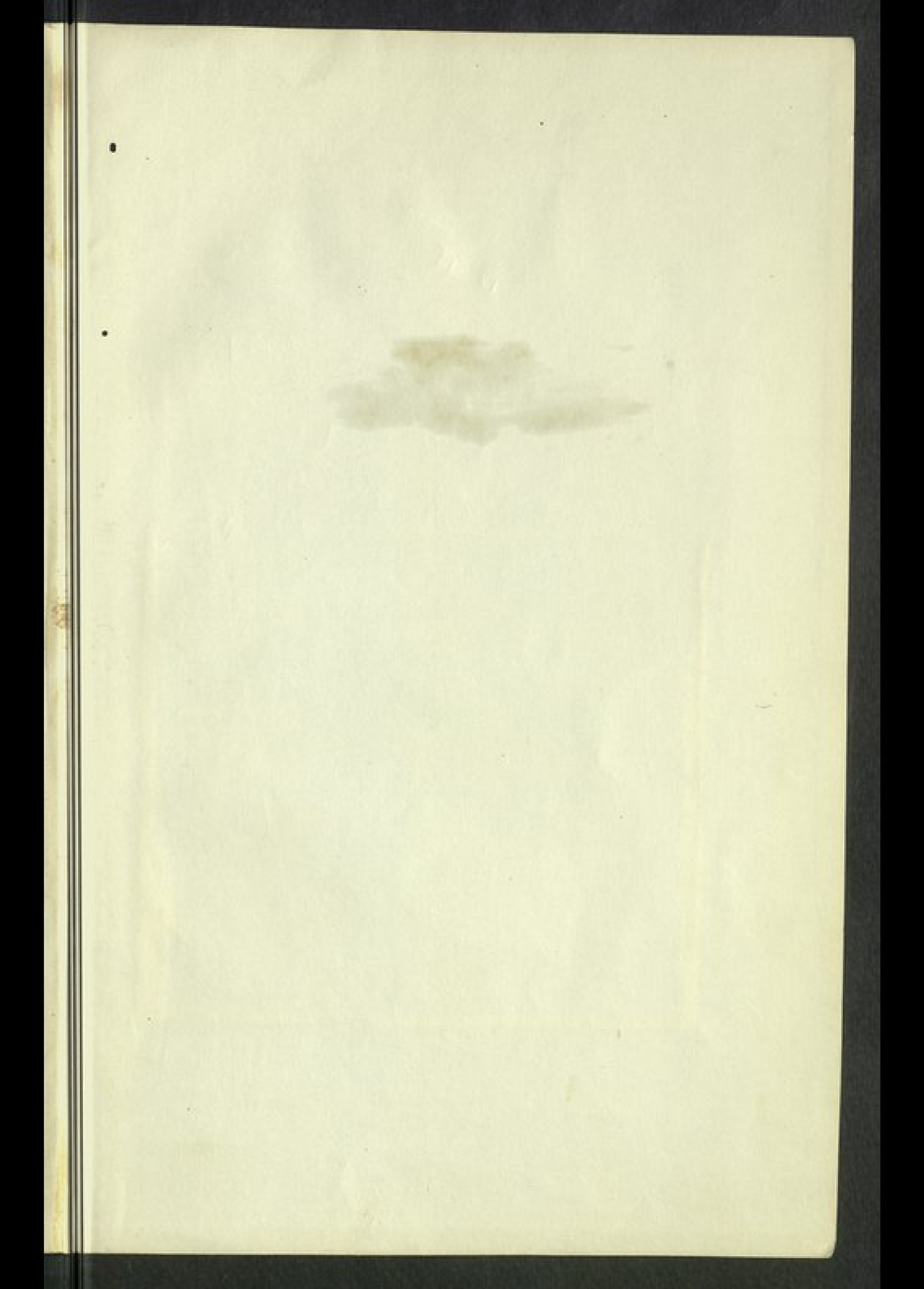



UNIVERSITY
LIBRARY


تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧





الجمهورية اللبنانية

وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة - مديرية الآثار

نصوص ووثائق تاريخية

٢

منتخبات من «الجواب على اقتراح الأحباب»

للدكتور ميخائيل مشاقه

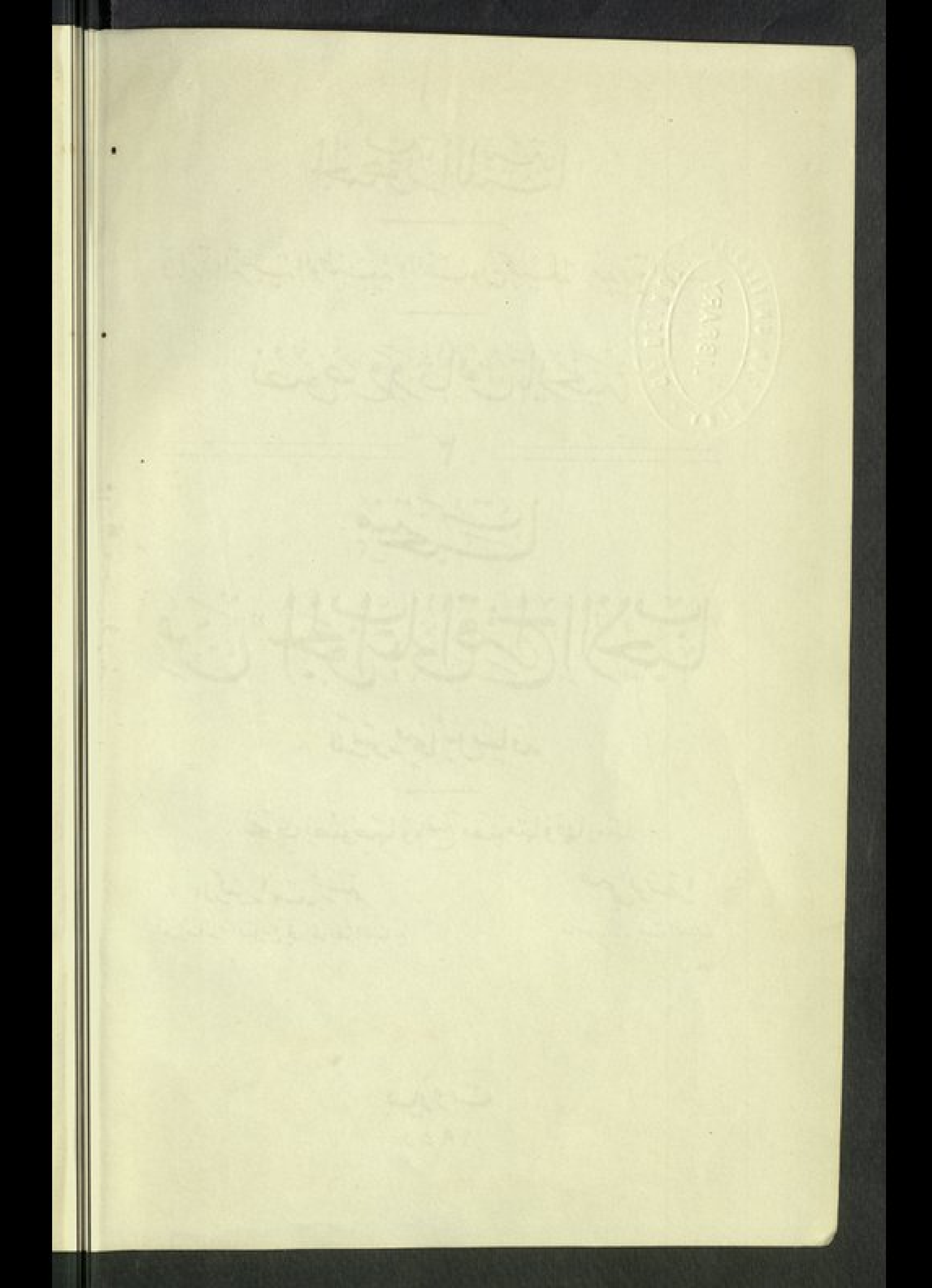
تحرّى نصوصها ووضع مقدمتها وفهارسها

الدكتور أسد رستم
أحد أساتذة التاريخ في الجامعة اللبنانية

صبحي أبو شقرا
مأمور آثار بيت الدين

بيروت

١٩٥٥



هذه هي الحلقة الثانية من منشورات مديرية الآثار في باب «النصوص والوثائق التاريخية» التي خصصناها بمستندات التاريخ اللبناني المعاصر .

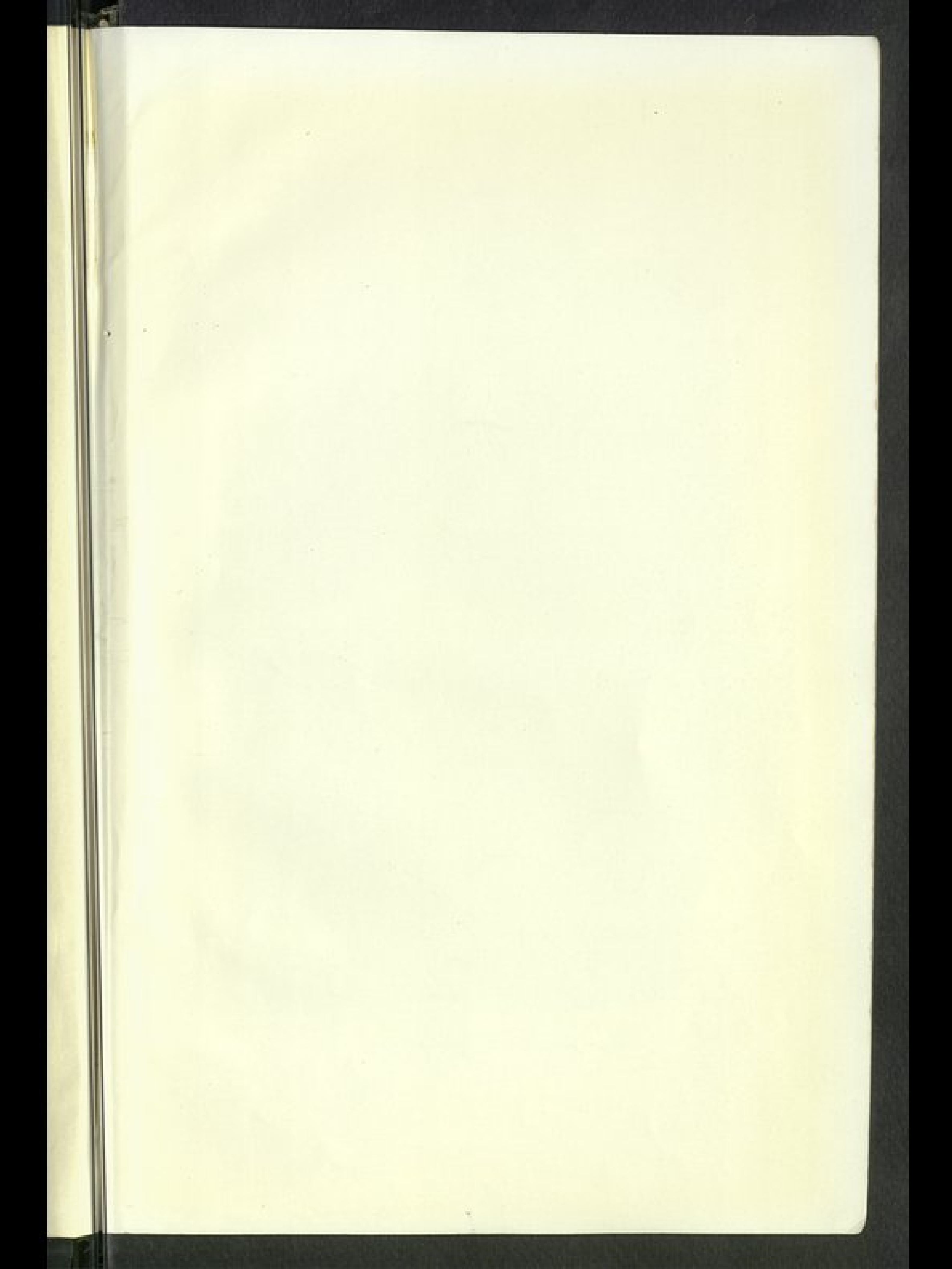
وقد ظهرت الحلقة الاولى سنة ١٩٤٩ ، مخرجة لاول مرة بالطبع ديوان المعلم نقولا الترك، شاعر الامير بشير ، فالقت ضوءاً شعرياً واقعياً على حياة لبنان العامة والخاصة في الربع الاول من القرن التاسع عشر من خلال حياة اميره وشاعره .

وها ان الحلقة الثانية تتناول قسماً من الحقبة نفسها وتمتد بالمعلومات الى ما بعد منتصف القرن . وذلك من خلال حياة المؤلف وحياة اسرته الخاصة فيكون «جواب مشاقه على اقتراح احبابه» ، خير متمم لديوان الترك . وهذا ما توخيناه من خدمة التاريخ اللبناني في هذه السلسلة من المنشورات .

موريس حافظ شهاب　　　　فؤاد افرام البستاني



الدكتور ميخائيل مشاقة في اواخر حياته



المقدمة

آل مشاقه : والجواب على اقتراح الاحباب سفر جليل مفيد أجاب به الدكتور ميخائيل مشاقه عما وجهه اليه ابناؤه واحفاده من أسئلة تتعلق بتاريخ اسرتهم واخبار والدهم وجدهم .

وآل مشاقه اسرة يونانية الاصل طرابلسية المنشأ انتقلت من جزيرة كورفو الى طرابلس لبنان في منتصف القرن الثامن عشر للاتجار بمشاقة الحرير . والمُشاقة في عرف اللبنانيين ما يبقى من الحرير والكتان والقنب بعد المشق بالمشقة . وجد هذه الاسرة الذي استوطن طرابلس هو يوسف بتراكي. وجدتهم الاولى في لبنان انتسبت الى اسرة لبنانية يونانية ايضاً عرفت ببيت القلفاط واستوطنت قرية انفه أمي رسائل العمارنة التي لا تبعد كثيراً عن مدينة طرابلس .

وبعد وفاة الجدين في طرابلس انتقل ابنهما جرجس الى صيدا لتصدير التبغ الى مصر والاتجار به . واراد التزوج فاختار فتاة من بيت منسى كانت تمت فيما يظهر الى والدته بصلة . فأصر اهلها على الكثلكة. ولم يكن جرجس عالماً بتاريخ الكنيسة فلم يرَ فرقاً بين الروم الارثوذكس وبين الروم الكاثوليك فانحاز الى هؤلاء وتزوج كما شاء . ثم قضى الاتجار بالتبغ الى انتقال جرجس وزوجته الى صور ليقتربا من منطقة التبغ واسيادها آل علي الصغير . ولم يدرِ جرجس آنئذٍ انـه بعمله هذا سيقترب ايضاً من طاغية عصره احمد باشا الجزار والي الايالة .

وتوفي جرجس في صور عن ولدين ابراهيم وبشاره . وكان ابراهيم على شطر وافر من الذكاء والمقدرة فأحبه السكان والحكام المحليون آل علي الصغير . وعلم الجزار بذلك فاقطعه بلاد بشاره والشقيف ليجبي الضرائب في هاتين المقاطعتين ويقدمها في حينها . ثم اراد ان يبتز المال منه ابتزازاً فتوفي ابراهيم «مغموماً» . ولدى

وفاته استقدم الجزار ابنــه جرجس وحجز عليه وطلب منه مالاً كثيراً . وما فتىء الجزار يطلب المال حتى نفدت ثروة جرجس . فأطلق الجزار سراحه . فغــادر جرجس مدينة صور والتجأ الى اقرباء زوجته في دمياط الى آل عنحوري وأطلعهم على ما حلّ به . فخشي العنحوريون غضب الولاة وطمعهم واشاروا على جرجس بالعودة الى بر الشام والالتجاء الى دير القمر الى بلد الشهابي الكبير ملاذ الحرية الوحيد آنئذٍ في جميع انحاء السلطنة العثمانية .

فقصد جرجس دير القمر واقام فيها باسم مستعار وتعلم الصياغة واشتغل بها . ثم علم الامير بقدومه فعطف عليه وجعله احد كبار كتابه لا بل كاتبه الخصوصي . فاستقدم جرجس عائلته من صور واسكنها دير القمر . وغضب الجزار على الشهابي الكبير واضطره الى النزوح عن لبنان . فنقل جرجس عائلته من دير القمر الى رشميا وسار بمعية الامير . ثم عاد الامير الى الحكم بعطف الصدر الاعظم فعاد جرجس الى دير القمر كاتباً واميناً على الصندوق .

مخائيل مشاقه :

ولدى عودة جرجس الى لبنان كانت زوجته قد ولدت له ابناً في العشرين من اذار سنة ١٨٠٠ في رشميا . فدعاه ميخائيل . فنشأ ميخائيل في دير القمر وترعرع فيها . وتعلم القراءة والكتابة ومبادئ علم الحساب على والده . وكان نبيهاً ذكياً يجالس كبار القوم ويستفيد من احاديثهم . فسمع من يهود دير القمر انهم يعرفون اوان الخسوف والكسوف قبل حدوثهما . فاتصل بأحدهم اسحق الاذرعي وطلب اليه ان يعلمه الحساب العالي لقاء مبلغ وافر من المال . ولم يدرِ ميخائيل آنئذ ان الحاخامين كانوا ينقلون اخبار الخسوف والكسوف عن كتب الالمناك التي كانت تأتيهم من اوربة وان اسحق وعد بما يجهل فلم يأخذ عن هذا الحاخام سوى درسٍ في المماطلة والتسويف. ثم طلب اليه والده ان يتصل بالقس كيرلّس فرح احد رهبان الروم الكاثوليك في دير القمر لقضاء حاجة معينة. فدخل ميخائيل على هذا القس فوجده يطالع كتاباً مخطوطاً فيه جداول وارقام واشارات الى الشمس والقمر . ففرح وقال للقس : ما هذا الكتاب ؟ فأجابه بوجه عابس : هذا شيء عميق لا تقدر على فهمه . هو الكيكليس نعرف بواسطته وقوع الاعياد وحساب الاشهر والسنين الرومية والهلالية . فرجاه ميخائيل ان يسمح باستنساخه

فتعل . وعندما تم له ذلك اكب على درسه فاكتشف امرين اولهما ان القس كان ضعيف القراءة يلفظ الكلمات احياناً بخلاف منطوقها والثاني ان الكتاب كان خالياً من البحث في الخسوف والكسوف .

وظل ميخائيل يهتم في الخسوفات والكسوفات « لانه كان يصدق مزعومات الدجالين بانها تعلن بحوادث عظيمة كالحروب والاوبئة وموت بعض الكبراء » . وفي السنة ١٨١٤ جاء خاله بطرس عنحوري من دمياط الى دير القمر لمعالجة عيني احدى بناته فحلّ ضيفاً على شقيقته وصهره جرجس مشاقه . وعندما اخرج كتبه من صندوقه نظر ميخائيل اليها فوجد على ظهر احدها العبارة علم الهيئة في الفلك لديلاند الفرنساوي وعلى الثاني تقويم الكواكب لديلاند ايضاً وعلى الثالث حاشية على كتاب بنيامين الانكليزي في علم الطبيعة وعلى الرابع علم الطبيعيات وعلى الخامس المأخذ الحديث في تقويم الكسوفات لبطرس عنحوري . وقلّب ميخائيل هذه الكتب فوجدها مخطوطة بالعربية وقد ترجم اكثرها باسيل فخر قنصل فرنسة في دمياط ففرح ميخائيل وسأل خاله كيف تعلم هذه العلوم فأجابه انه تلقى علم الفلك عن استاذه الشيخ محمد الصباغ الميقاتي الشهير وانه لدى وصول بونابارته الى مصر تعلم اللغة الافرنسية وتلقى عن علماء الحملة الفلك والطبيعة والجغرافية . ثم قال : «فاذا كنت ترغب ان تتعلم فانا اعلمك لاني فاضي من الاشغال وقصدي ابقى عندكم مدة الشتاء والربيع لمشاهدة حوادث الجو التي لا تحصل في اقليم مصر . والآن فصل الصيف فتكون المدة طويلة » . وهنا يقول ميخائيل في هذا الجواب على اقتراح الاحباب : « ففي ثاني يوم ابتدأت بدرس المأخذ الحديث . وفي مدة شهرين خلصت منه مع عدم تعطيلي عن الشغل في صناعتي . فاخذت في كل يوم من ايام الشغل درسين صباحاً ومساء وايام البطالة بتمامها . ولم يحضر وقت سفر خالي حتى تمكنت من صناعة التقويم وفهمت ما تيسر لي من علم الهيئة والطبيعة وغيرهما . »

وفي السنة ١٨١٧ ارسل جرجس مشاقه ابنه ميخائيل الى دمياط ليلتحق بأخيه اندراوس ويشتغل معه في مخزن عمه . فقام ميخائيل الى دمياط وعمل في مخزن عمه وتعاطى التجارة لحسابه بمبلغ صغير من المال . وبعد سنة بدأ يطالع سياحة المعلم فولني الفرنساوي وكان قد نقلها الى العربية باسيل فخر المشار اليه آنفاً . « فتبلبلت

افكاره في امور الديانة ورأى الكثيرين من اهالي دمياط مسلمين ونصارى مبلبلي الافكار اكثر منه » . وفي اثناء اقامته في دمياط ذهب ميخائيل وجماعة من اصدقائه الى عرس . وبينما كانت الموسيقى تصدح بالحانها سأله احدهم ما هو هذا اللحن . وقبل ان يعترف ميخائيل بجهله تدخل عكاوي في ما لا يعنيه وقال: « هذا جبلي لساه بعبله لا يفهم شيء انا اخبرك ان اللحن هو كذا وكذا » . فتأثر ميخائيل من غلاظة هذا العكاوي وصمم آنذاك على درس الموسيقى. فدرسها على ابرع الموسيقيين في دمياط واتقنها . ثم ألف فيما بعد رسالة في اصولها اصبحت من افضل ما صنف من نوعها بالعربية[1]. واقام ميخائيل في دمياط ثلاث سنوات متتالية . ثم عاد الى دير القمر لما عاناه في دمياط من الخوف من داء الطاعون والضجر من الانعزال في البيت طوال فصل الشتاء من كل سنة .

ولدى عودته الى دير القمر في السنة ١٨٢٠ تعاطى المؤلف نسج الاقمشة الحريرية . وفي السنة ١٨٢١ رغب في الاطلاع على الجبر والمقابلة فوجد كلاماً وجيزاً في هذا الموضوع في آخر كراس مخطوط لبهاء الدين العاملي عنوانه خلاصة الحساب . وتوطدت صداقته في هذه الفترة مع الشيخ قاسم جنبلاط واخيه الشيخ سليم جنبلاط ابني الشيخ بشير جنبلاط . وزاد احتكاكه في هذه الاونة نفسها بالامير عباس شهاب الذي تولى الحكم في لبنان في اثناء نزوح بشير الثاني الى حوران .

وفي السنة ١٨٢٧ انتدبه الشهابي الكبير للقيام بوظيفة مدبر عند امراء حاصبيا. وكانت قد جرت العادة ان يكون هذا المدبر من اخصاء الشيخ بشير جنبلاط . فألح امراء حاصبيا ولا سيما الامير سعد الدين ان يقوم باعباء هذه الوظيفة ميخائيل مشاقة لما كان قد اشتهر به من المقدرة والاستقامة وحسن العلاقة مع اولاد الشيخ بشير جنبلاط . فاقرهم الشهابي الكبير على ذلك واوفد ميخائيل مدبراً يمثله في حاصبيا . فاكرم الشهابيون مثواه ووهبوه جزءاً من مالكانتهم في الحولة . ثم اعطوه قرية في منطقة القنيطرة. فترك ميخائيل نسج الحرير وبدأ يعمل في السياسة والزراعة.

---

١) صحح عبارتها الشيخ نصيف اليازجي سنة ١٨٤٤ ثم نشرها الآباء اليسوعيون في المشرق سنة ١٨٩٩.

فأصيب في السنة ١٨٢٨ بداء الملاريا فعاد الى دير القمر للتخلص من هذه الحمى الدورية. وكان من حميد مزاياه انه لم يكن يرى شيئاً او يسمع به الا احب استطلاع كنهه . وكانت له ثقة تامة بقواه العقلية فكان يعتقد انه يقدر ان يتعلم كل ما يريد. فحالما نقه من مرضه عكف على مطالعة الكتب الطبية . وما ان فعل حتى شعر بعجزه عن تفهم بعض اصطلاحاتها فاستعان على ذلك ببعض الاطباء. ثم استدعى الشهابي الكبير طبيباً ايطالياً الدكتور جوزف كارلياني لمعالجة بعض الامراء . فجاء برفقة هذا الطبيب طبيب اخر هو صهره زوج ابنته . فحث ميخائيل الامراء على استبقاء الصهر في دير القمر . فاجابوا سؤله واعطوا الطبيب الشاب بيتاً لسكناه . فاستقدم عائلته واقام في الدير مدة درس في اثنائها ميخائيل عليه اموراً واموراً. وبعد سفر هذا الطبيب الى دمشق اخذ ميخائيل يمارس الطب مجاناً . ثم عاد الى حاصبيا للقيام باعباء الوظيفة لدى امرائها .

واشتد النزاع بين محمد علي باشا وبين عبدالله باشا وزحفت جيوش العزيز على عكة في خريف السنة ١٨٣١ فهرع ميخائيل الى بتدين يفارض سيد لبنان في موقف امراء حاصبيا من هذا النزاع . ثم نزل الى عكة ودرس الموقف فيها عن كثب وعاد الى حاصبيا مقتنعاً بوجوب التعاون مع الجيش المصري . ولما تم فتح عكة وقام الجيش المصري الى دمشق انضم الامير سعد الدين ومدبر اموره الى معية الشهابي الكبير وسارا معه الى حمص وعاوناه في ادارتها شهراً ونصف الشهر. وفي السنة ١٨٣٣ رأى الامير سعد الدين ان مصلحته تقضي بوجود وكيل له في دمشق يتابع دعاويه امام حكومتها الجديدة فعين ميخائيل ممثلاً له فيها . فاشترى ميخائيل منزلاً له في دمشق واقام فيها . واهتمت الحكومة المصرية في تعمير البلاد واحياء القرى والاراضي . فتعهد ميخائيل بتعمير قرية ايب في اللجاه والحربية والمنصورة في الحولة والتزم بعض الاموال الاميرية . فلما نشبت الفتن في البلاد سطا الثوار على قراه فخسر اموالاً كثيرة فلجأ الى التطبيب يستعين به على قضاء حاجاته . وكثرت اقامته في دمشق فتعرف الى الدكتور كلوت بك رئيس اطباء مصر ورافقه في بعض زياراته الطبية . فأحبه كلوت بك واهداه جميع الكتب الطبية التي كانت قد ظهرت في مصر بالعربية مع ادوات للجراحة . ثم جعله رئيس اطباء دمشق . فكثر احتكاك ميخائيل باعيانها وبقناصل الدول فيها .

〈ولم يجد ميخائيل في التطبيب بعد خروج المصريين دخلاً كافياً لمعيشته فاضطر ان يتعاطى التجارة مرة ثانية . فهو يقول في رسالة له مؤرخة في تشرين الثاني سنة ١٨٤٤ وموجهة الى عالي سميث المرسل الاميركي ما نصه : «لا يخفى جنابكم ان وسيلة معيشة داعيكم كانت من ثلاث جهات الاولى ٧٠٠٠ غرش تورد لي سنوياً من جناب الامير سعد الدين المحترم الثانية اكم فدان بقر في ارض الحوله معاف على طرف الامراء المومى اليهم ثالثاً صناعة الطب . فالان بحسب الحال الحاصل في حاصبيا قد انقطع املي من جناب الامرآء بالكلية . وصناعة الطب لا تكفي للمعيشة بهذه المدينة اقتضى ان اتركها واعمل مصلحة غيرها . والذي وجدته اوفق من الجميع هو معاطات البيع والشرا ثم قبول الامانات حيث لا يوجد عندي راسمال يكفي للمعيشة من ارباحه وحدها . فلذلك قد اشتركت مع احد اخواني وهو الخواجه الياس ابو قاسم كونه مضبوط للغاية ومتخرج في هذه المصلحة . وقد حررنا للاخوان في بيروت وغيرها بهذا الخصوص عن يد اخينا ابراهيم ومومِلين حسن النجاح بتوفيق الباري تعالى ودعا الاخوان مع مساعدة قنصلنا المفخم بهذا الطرف . وحيث موجود عندكم جملة تجار معتبرين من جماعتكم ولهم اشغال كليـــة بمحروسة الشام ولم يكن لداعيكم معرفة معهم فاشتهي جداً بأن يكون شغلهم عند داعيكم وبحوله تعالى اقدر على خدمتهم كمرغوبهم باكثر مما يخدمهم غيري . ووسايط المساعدة لداعيكم عن مصلحتي بهذا الطرف هي اقوى من وسايط غيري انكان من طرف الكنسلارية ام من طرف الحكم ام من طرف اعيان البلدة حيث لي كمال المحسوبية على كل من ذكرته〉 واما في طرفكم لم يكن لي واسطة عند حضرة التجار الاوروبيين غير سيادتكم فلا اشك بان غيرتكم من نحوي هي باكثر من املي فيكم . ومع هذا فمتى حصلت التجربة من المومى اليهم فيظهر صدق الخدمة لديهم في مصالحهم . فلذلك ارجوكم مساعدتي في هذه القضية على الوجه الذي تروه موافق وتفيدوني عما تستحسن لنسلك بموجبه . »[1]

ويتضح من بعض ما جاء في هذه الرسالة ان صداقة ميخائيل مع المرسلين الاميركيين كانت قد توطدت وان احتكاكه بهم كان قد كثر وانه كان قد بدأ يشعر بوجوب

---

١) مخطوطات الدكتور اسد رستم – بيروت : تشرين الثاني سنة ١٨٤٤ .

المحافظة على مصالحهم. فهو يقول في آخر هذه الرسالة نفسها ما يأتي: «ثم من خصوص حاصبيا بسبب تشديد البطرك[1] على عزل الامير خليل ومساعدته من طرف الوزرا عندكم قد صدر الامر بعزله وتنصيب لطيف آغا احد رجال مشير الشام. فعندما بلغ ذلك لسعادة قنصلنا المفخم فأظهر مزيد الغيظ ولم يرتضي بذلك وحصل القرار على ان يتوجه لحاصبيا جناب عمر افندي الغزي مفتي الشافعي من رجال ديوان الشورى وقبوجلر كاهيه سى من رجال الوزير ويحضر معتمد من طرف سعادة خليل باشا وصحبتهم ماية وخمسين خيال من العسكر لاجل منع وقوع الفتنة. وبحضورهم يتحرر جرنال الدعوى وبيان الاسباب التي يطلبوا فيها عزل الامير خليل وبيان الذي يريدوه من الذي لا يريدوه. فاذا وجد ان له جنايات تستوجب العزل وان الذين يريدون عزله هم الاكثرية فحينئذ يعزل والا فلا.» والاشارة هنا الى الاضطراب الذي وقع في حاصبيا من جراء التبشير بالمذهب الانجيلي بين افراد الطائفة الارثوذكسية. ومما يجدر ذكره هنا صداقة ميخائيل مع المعلم بطرس البستاني الذي كان قد اعتنق المذهب الانجيلي وبدأ بالعمل لاجله. فقد تكررت زيارات بطرس الى حاصبيا في تلك الآونة وله فيها رسالات طويلة لا تزال محفوظة لدى المرسلين الاميركيين في بيروت.

بيد ان ميخائيل لم يقدم على اعتناق المذهب الانجيلي وترك الكثلكة قبل الثامنة والاربعين من عمره. فقد جاء في مخطوطته التي نحن في صددها ما نصه: «ومن حين رجوعي [من مصر كما سيتضح] توالت علي الافكار الدينية فتارة افتكر بانني لا اعرف ما يعرفه فولتير وروسو وامثالهما فكيف هؤلاء الفلاسفة يسمحوا بهلاك انفسهم الابدي ويرفضوا جميع الاديان فلو كانوا يجدوا دليلاً على صحة احدها لتمسكوا به. وتارة اراجع نفسي بان الحكيم نيوتون هو اعلم واعقل من المذكورين وقد عرف بقوة عقله قوة الجذب الضابطة للكون بمجرد مشاهدته لسقوط ثمرة من شجرة وعرف ان الارض مبسطة ستة وعشرين ميلاً من جهتي قطبيها بدون وصوله اليها القضايا التي لم تدركها ارفع العقول ومع وفرة علمه وذكاوة عقله الفايقة فكان اشد الناس تمسكاً بالديانة ومقاومة لمنكريها. وبهذه الاثناء عثرت على كتاب طبع مالطة مترجم

---

١) بطريرك الروم الارثوذكس.

للعربية تأليف المعلم كيث الانكليزي عنوانه البينة الجلية على صحة الديانة النصرانية فعمدت لمطالعته وشعرت بفضل هذا العلامة ونظرته يتكلم بغير الكلام الذي يقرره علماء كنيستي . فحينئذٍ اخذت في قراءة هذا الكتاب بكل اصغاء واعتبار . ولم انته من مطالعته والتروي من براهينه حتى رسخ في ذهني صدق الديانة المسيحية . فكان تركي لكنيستي سنة ١٨٤٨ وذلك بعد تكراري مطالعة الكتب المقدسة مراراً وثلاثة كتب للتقليديين رداً على معتقدات البروتستانتيين وكتب عدة للبروتستانتيين رداً على المذكورين . وحينئذ اشهرت نفسي بالمذهب الانجيلي . »

وكان قد سافر الى مصر سنة ١٨٤٥ وبقي فيها ثمانية اشهر كثر اجتماعه فيها بالدكتور كلوت بك « ناظر عموم الصحة » ومؤسس كلية القصر العيني فطلب اليه ان يسمح له بمشاهدة اعمال التشريح والجراحة فكان له ذلك وواظب عليه . ثم استحضر الدكتور كلوت بك لمنزله ثلاثة من الاساتذة تلاميذ باريز احمد افندي وحسين افندي الرشيدي وابراهيم افندي الغبراوي وطلب اليهم ان يمتحنوا ميخائيل فتردد اولاً لانه تعلم الطب على نفسه ثم قبل . وهو يقول بهذه المناسبة : « فخضعت لامره وجرى فحصي ولله الحمد لم يوردوا سؤالاً لا اعرفه ولذلك استحسنوا اجوبتي وسلموني شهادة تحت امضاء وختم البك المشار اليه » . وبعد ان زار الآثار القديمة ودخل حرم الجيزة وشاهد الرصد الفلكي في بولاق وعمود السواري ومسلات فرعون عاد الى وطنه دمشق « مغموراً بالطاف المصريين » . وسنة ١٨٥٩ عُين نائب قنصل للولايات المتحدة في دمشق فقام باعباء وظيفته خير قيام ثم استقال وانعكف على التأليف حتى توفاه الله في دمشق سنة ١٨٨٨ .

واشهر مؤلفاته رسالة الدليل الى طاعة الانجيل سنة ١٨٤٨ واجوبة الانجيليين ضد اباطيل التقليديين سنة ١٨٥٢ وجواب لصديق من طايفـــة الروم بحمص لاقناعه بصحة المذهب الانجيلي سنة ١٨٥٢ وكشف النقاب عن وجه المسيح الكذاب سنة ١٨٦٠ والبراهين الانجيلية سنة ١٨٦٣ وتبرئة المتهوم مما قذفه به البطريرك مكسيموس مظلوم سنة ١٨٥٤ ورسالة البرهان على ضعف الانسان ورسالة في ترجمة البطريرك مكسيموس ورسالة الرد على ابن الحموية والرسالة الشهابية في قواعد الحان الموسيقى العربية والتحفة المشاقية في علم الحساب وكتاب المعين على

حساب الايام والاشهر والسنين وكسوفات الشمس والقمر لطول دمشق وعرضها.

المؤلف «الجواب على اقتراح الاحباب»: ومؤلف ميخائيل مشاقه الذي نحن بصدده الآن هو آخر مؤلفاته فيما يظهر . فهو يقول في اوله انه كان قد بلغ سن العجز وانقطع عن كل عمل فاحب ان يلبي طلب بعض اخوانه فيضع تاريخاً يدون فيه اخبار عائلته وما عرفه عن حوادث لبنان وبقية بر الشام ولذا العنوان «الجواب على اقتراح الاحباب» . ويستدل مما ورد في ذيل هذا الكتاب انه تم في الثاني والعشرين من تشرين الثاني عام ١٨٧٣ في مدينة دمشق . ويتناول ميخائيل في تاريخه هذا اخبار بيت مشاقه وترجمة احمد باشا الجزار واخبار عكة وجوارها وبلاد بشاره في عهده ثم علاقة الجزار بالامير يوسف الشهابي وعزله ووصول الامير بشير الكبير الى الحكم وحروبه مع اولاد الامير يوسف وحصار بونابارته لعكة وحركة الدروز الاولى وابطالها بسياسة الشيخ نجم العقيلي والدور الذي لعبه المعلم حايم فارحي في عكة واتفاق جنبلاط وعماد وعصيان شمالي لبنان والحرب بين درويش باشا وعبدالله باشا واشتراك اللبنانيين في ذلك وزحفهم على دمشق وقدوم مصطفى باشا لمعونة درويش باشا ونزوح الامير بشير الى مصر ووصول الامير عباس الشهابي الى الحكم في لبنان وعودة الامير بشير وتجريم الشيخ بشير جنبلاط وحضور يونس كين الاميركي والتصاق اسعد الشدياق به وقيام جنوبي لبنان على الامير بشير وشنق علي العماد واطفاء بصر بعض الامراء والخلاف بين امراء حاصبيا وقيام الدمشقيين على واليهم سليم باشا وقدوم ابراهيم باشا المصري وقيام النكديين للالتحاق بالجيش السلطاني واستيلاء المصريين على عكة ودمشق وحرب حمص واحتلال حلب واورفه وادنه وقونيه وأسر الصدر الاعظم ووقوع الصلح بين السلطان وبين المصريين وتعيين شريف بك حاكماً على بر الشام وهدم بيوت النكديين وظهور العصيان على المصريين في جبال النصيرية وفلسطين وجبل الدروز ووادي التيم والعودة الى القتال بين السلطان ووالي مصر وضرب بيروت ونزول الامير بشير الى صيدا ونفيه الى مالطه وخروج ابراهيم باشا من سورية واخبار الامير بشير واولاده في الآستانة واحتجاج النصارى في لبنان على الاموال الاميرية وموقف الحكومة العثمانية منهم وغضبها عليهم وايقادها نار الفتنة بين الدروز والنصارى واخبار الفتنة في دمشق وغيرها . وهو فريد في بابه بما انطوى عليه من اخبار

اجتماعية اقتصادية التي قلما تعرض لذكرها مؤرخ . ولما كان ميخائيل نفسه شديد الولع بالعلم مجدًا في تحصيله وكان الجواب على اقتراح الاحباب تاريخاً لبيت مشاقه اصبحت اخبار ميخائيل نموذجاً تاريخياً للعلم والتعليم في لبنان في النصف الاول من القرن التاسع عشر .

ورواية ميخائيل لها اهميتها لانه لم يكن له مصلحة فيما يروي ولم يزين ويحسن ليسوق القارئ الى استنتاج معين ولم يخضع لظروف قاهرة تكرهه على النطق بالبطل. ولم يشايع فئة معينة من الناس ليناصرها على الاخرى . وهذا واضح جلي في معالجته لاخبار الدروز والنصارى في لبنان . فانه على الرغم من تدينه وتمسكه بالنصرانية يُبعد عن الدروز كثيراً من التهم التي كانت تُلصق بهم ويُكبر في بعض زعمائهم مزاياهم الطيبة فيرى في الشيخ نجم العقيلي مثلاً مثالاً للتقوى وجودة العقل واصالة الرأي ويقول « ومن ارشاد هذا الرجل الحكيم تلاشى تدبير اصحاب الحركات وبطل عملهم واضحى الجميع كعيلة واحدة فلو وجد مثله اثنان في عصرنا من النصارى والدروز لحفظوا بلادهم من المصايب التي لحقت بهم في حوادث سنة ١٨٤١ و ١٨٦٠ » . ولم يحاول ميخائيل مشاقه ان يتودد الى جمهور الناس او ان يتملقهم او يداريهم فهو لا يحصر انتقاده للعقائد في مذهب واحد دون سواه تراه بعد ان يكيل الكيلة الواحدة الى الكاثوليك ينتقل الى الارثوذكسيين فاليهود والمسلمين . وقد تمتع ميخائيل باكثر شروط المشاهدة العلمية فانه يوضح طريقته في المشاهدة ويفرق بين ما شاهده بنفسه وبين ما اخذه من غيره ثم يثبت مقدرته على مشاهدة ما يروي مشاهدةً مباشرة. هذا ولا يخفى ان امر العدالة والضبط عند الراوي الواحد ليس جامعاً مانعاً فلا يمكننا والحالة هذه ان نأخذ بجميع اقوال ميخائيل بل يجب النظر في كل خبر من اخباره على حدة .

وقد عرفنا لكتاب الجواب على اقتراح الاحباب نسخاً عديدة أهمها نسخة بطريركية الروم الارثوذكس في دمشق . فهي في عرف حضرة صاحب الغبطة البطريرك الكسندروس الثالث نسخة المؤلف نفسه . وهي في عرفنا ايضاً نسخة مؤلفها لانها تتفق في خطوط بعض صفحاتها وما تبقى من خطوط المؤلف لدينا . وقد جاءت هذه النسخة في مئة واثنتين وسبعين صفحة من القطع المتوسط وعلى ورق من نوع « اثر جديد » الذي شاع استعماله في لبنان وسورية في النصف الثاني

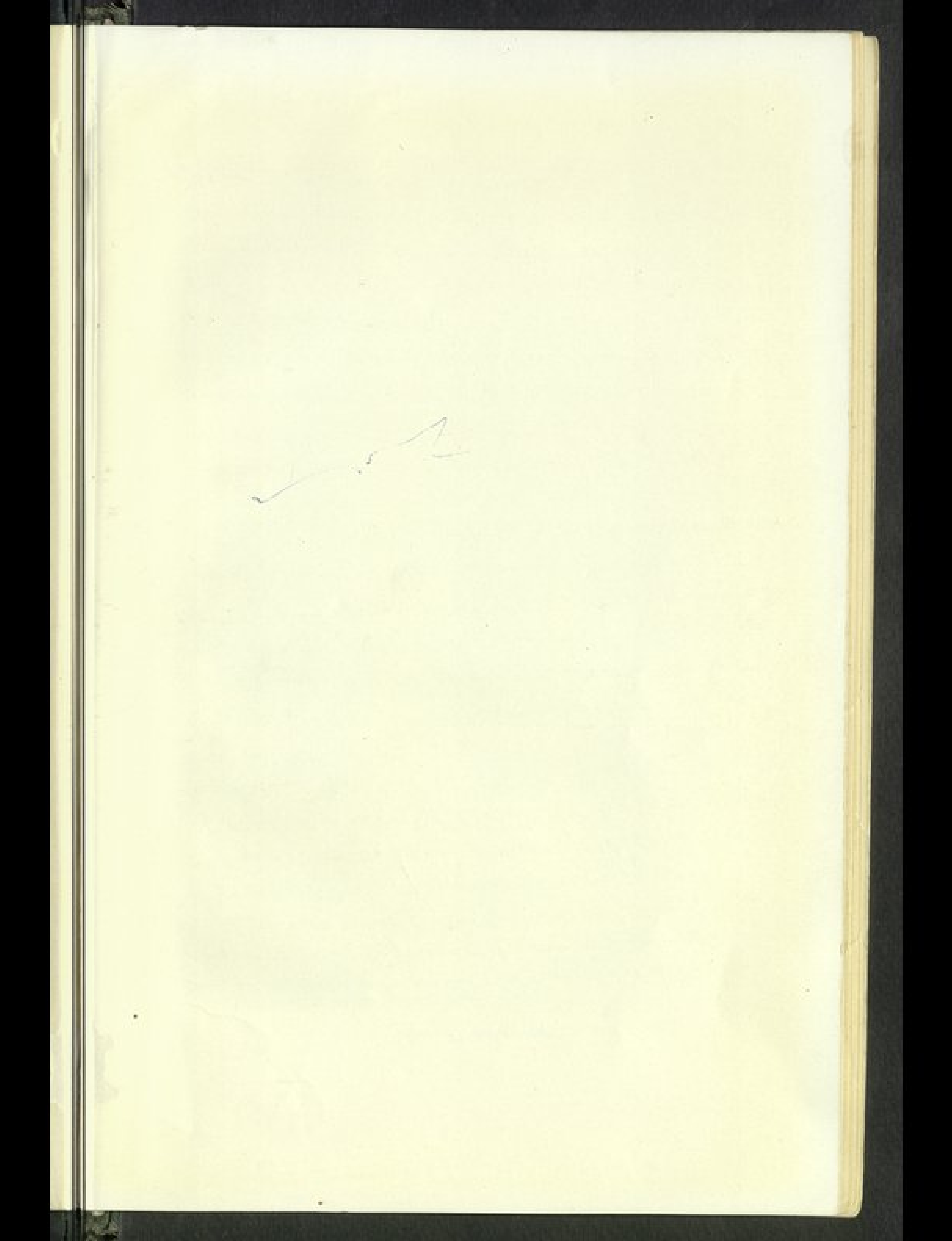
من القرن الماضي . ولدى ورثاء جرجس بك صفا نسخة اخرى بقطع هذه النسخة الاولى وعلى ورق من نوع ورقها . ولعل هذه ايضاً من خط المؤلف . اما نسخة جامعة بيروت الاميركية ونسخة الدكتور ابراهيم مشاقة فانهما تعودان الى اواخر القرن الماضي بدليل الورق والحبر . واما خطها فانه في الارجح خط احد افراد اسرة صروف الدمشقية الذين عرفوا باستنساخ المخطوطات في دمشق في ذلك العهد. وليس بين هذه النسخ جميعها من اختلاف كبير في النص . وجل ما هنالك سهو وقع في اثناء استنساخ النسختين الاخيرتين نجم عن عجلة في العمل. اما كتاب «مشهد العيان في حوادث سوريا ولبنان» الذي ظهر في القاهرة سنة ١٩٠٨ لمنشئيه ملحم خليل عبده واندراوس حنا شخاشيري فانه بعيد عن ميخائيل مشاقه بمفرداته واسلوبه وترتيبه واضافاته . وحبذا لو ان السيدين المذكورين لم يثبتا في ديباجة هذا الكتاب العبارة : لجامع حوادثه الدكتور ميخائيل مشاقه .

عن راس بيروت

في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٥٥

اسد رستم صبحي ابو شقرا

صفحة من مخطوطة المؤلف



بسم الله الواحد الازلي

الكاين بلا بداية الحي الباقي الدايم بلا نهاية

له الحمد والمجد والقوة والسلطان الى ابد الابدين

اما بعد فيقول كاتبها الفقير مخايل بن جرجس مشاقه المتوطن في دمشق منذ اربعين سنة وقد بلغ سن العجز منقطعاً في بيته عن كل عمل ان بعض اخواني الاعزاء قد طلب مني تقريراً تاريخياً يتضمن ما اعرفه عن اصل عايلتنا وسبب وضع لقبها بمشاقه وعما حدث لها عموماً ولي خصوصاً من البداية لحد تاريخه وعما اعرفه من حوادث لبنان وبقية بر الشام سواء كان نقلاً عن اسلافي او عما جرى بأيامي وعرفته بالنقل او بالمشاهدة فأجبت للمطلوب حسب الامكان وبالله المستعان.

ترجمة كاتبه مخايل مشاقه: هو مخايل بن جرجس بن ابراهيم بن جرجس بن يوسف بتراكي الذي تلقب بمشاقه. ان يوسف المذكور هو من مدينة كورفو التي كانت تحت حكم مشيخة البندقية. وكان له مركب لخاصته يسافر به بنفسه ويتجر به للاقليم المصري ولسواحل سوريا. وكان له ميل خصوصي لاسكلة طرابلس الشام وتزوج بفتاة من قرية انفه من عيلة يقال لها بيت القلفاط. وكان يشتري مشاقه[1] قشر القنب والكتان للتجارة بها الى معامل المراكب في بلاده وبسبب هذه التجارة لقبوه بالخواجه مشاقه.

---

(١) «المشاقة» ما سقط من الشعر او الكتان والحرير عند المشط او ما طار او ما خلص. وقيل المشاقة ما يبقى من الكتان بعد المشق وهو ان يجذب في ممشقة وهي شيء كالمشط حتى يخلص خالصه ويبقى فتاته وقشوره». عن محيط المحيط لمعاصر مخايل مشاقه وصديقه بطرس البستاني.

ثم ولد له من زوجته المذكورة ولداً واحداً دعا اسمه جرجس . ثم ادركه العجز وتوفيت زوجته وبعد مدة قصيرة توفي هو ايضاً . وحينئذ ولده جرجس كره الاقامة في طرابلس وانتقل الى مدينة صيدا [سنة ١٧٥٢] بعد ان باع مركب ابيه وجمع ما تخلف عنه . ويظهر ان الذي اجتمع معه من المال كان وافراً فتعاطى في صيدا تجارة التبغ (المعروف بالتتن) الى بر مصر . وبسبب هذه التجارة صارت المعاملة بينه وبين مشايخ المتاولة الحاكمين على مدينة صور وبلاد بشاره (١) الكثيرة التبغ . وبهذه الواسطة صارت المحبة بينه وبين المشايخ المذكورين . وفي ذلك الحين لم يكن لوزراء الدولة من قوة الحكومة سوى مجرد الاسم واما الفعل كان لرؤساء العشائر . لان مشايخ المتاولة بيت علي الصغير كانت بلاد بشاره من حدود نهر الليطاني وجسر القاسمية الى الناقورة مع مدينة صور في يدهم . ومن الناقورة الى الكرمل وبلاد صفد مع مدينة عكة بيد مشايخ الزيادنة . ثم من نهر الليطاني لجهة صيدا اقليم الشومر ثم بلاد الشقيف بيد المشايخ الصعبية من المتاولة . فوالي صيدا يبقى في يده الى نهر سانيق من جهة صور [مسافة] ميلا واحداً وهكذا ميلا واحداً عن شمالي البحر [الى] اقليم التفاح تابع لبنان ولجهة بيروت مسافة ميلين الى نهر الاولي ومن هناك الشاطىء مع مدينة بيروت ومدينة جبيل وغيرهما الى قرب مدينـــة طرابلس يحكمه حاكم لبنان .

ثم اراد جرجس مشاقه الزواج فاختار بنتاً من بيت منسى كون اصلهم من انفه قرية والدته وربما بينهم قرابة وعندما طلبها اجابوا بأنهم صاروا كاثوليك ولذلك لا يزوجوا الروم فطلب منهم معرفة ما هم الكاثوليك فأخذوه لدير في لبنان يبعد عن صيدا نحو ثمانية اميال قد احدثوه باسم المخلص منذ ثلاثين سنة اي سنة ١٧٢٥ التي هي اوايل انحياز البطرك سيروفيم الصيفي الدمشقي لمتابعة البابا مع خمسة مطارنة من بطركية انطاكية . وتسمى حينئذ كيرلس الخامس . وعند وصول جرجس المذكور الى الدير قابلوه بالترحاب وبالغوا في اكرامه فأقام عندهم [بعض ايام] وحضر صلواتهم فوجدها طبق الصلوات التي يسمعها في كنيسته . وهكذا انهم يستعملون اللغة اليونانية . واثواب الرهبان وقلانسهم هي نظير [٢] ملابس رهبان الروم . فقال اذاً الكاثوليك هم الروم . لماذا تغيروا اسمكم فهذا هو ذات مذهبي .

---

(١) ما يقع بين صفد وصور من جهة وبين مرجعيون وعكة من جهة اخرى.

فحينئذ اشهر نفسه بمذهب الروم الكاثوليك وتزوج اخت الحاج موسى منسى وحيث نظر دير المخلص يحتاج الى المساعدة حتى ان الكنيسة باقية من غير واجهة لهيكلها والمايدة[١] الوسطى بدون قبة وغير ذلك مما يلزمه تكملة . فأحضر قبة واعمدة رخام من اوروبا للمايدة على مصروفه . وهكذا عمل واجهة وابواب الهياكل الثلاث واوقف على الدير املاك كثيره قد اشتراها من ماله منها قرية الوردية في جبل الريحان واربعة بيوت في مدينة صيدا وغير ذلك . وكانت مساعداته للرهبنة متصلة التي كافته عنها بترتيب قداس يومي ابدي عن نفسه وبعمل قداس عيد مار جرجس احتفالي باسمه الذي كتبوه منقوشاً بحجر المرمر على جانبي باب الهيكل الكبير هكذا فعلى الجانب الايمن (ادخل الى بيتك واسجد في هيكل قدسك بخوفك) وعلى الجانب الشمالي (لقد احب جمال مجدك جرجس مشاقه عبدك) سنة ١٧٥٧ ودام ميل بيت مشاقه لهذه الرهبنة ليوم تاريخه .

ثم ان المشايخ الحاكمين صور استمالوا جرجس المذكور ان ينتقل لعندهم وانها اوفق لاشغاله مع اهالي بلاد بشاره لقربها وكثرة الحاصلات من التوتون والحبوب والاخشاب . ولم يكن وقتئذ يوجد احد من المسيحيين ساكناً في مدينة صور . فحضر اليها وحضر معه اقرباؤه بيت منسى وغيرهم . وعندما اجتمع فيها جملة بيوت تكاثر ورود المسيحيين اليها من الخارج وجميعهم من طايفة الروم الكاثوليك .

ولما تكاثر بها المسيحيون صار الشروع بعمار كنيسة على اسم القديس توما الرسول. وحيث البلدة لم يكن فيها جامع للمسلمين حيث اسلامها من فرقة الشيعة الذين لا تصح الصلاة الاجتماعية عندهم الا في شروط لا توجد في جميع المحلات والاوقاف خلافاً لمذهب السنيين الذي هو مذهب الدولة مع اكثر رعاياها المسلمين. فاستحسن جرجس مشاقه المذكور ان يبني من ماله جامعاً للمسلمين. وحصل الشروع بعمارته مع عمارة الكنيسة . وعندما بلغ ذلك وزير صيدا استدعى جرجس مشاقه المذكور لعنده وسأله عن ذلك . فأخبره اني رأيت المسلمين الذين يحضروا الى صور من اصحاب الاشغال او عابري الطريق او من الدراويش السياح الذين لا يوجد لهم مكان يأويهم ولا محل اجتماع للصلاة وان عدم وجود جامع في المدينة هو من الامور الجالبة المذمة لاهاليها عند الناس والباري تعالى

(١) الهيكل الذي يجعل عليه الكاهن ما يقدسه بعد نقله من المذبح .

لا يسمح بقصور كهذا. وحال كوني توطنت البلدة المذكورة فلا بد من جهدي في كل عمل يعود لعمارها وراحة من يأتي اليها. وهذا يعد من محاسن الاعمال في ايام دولتكم . فالوزير انحظ من هذا الجواب وألبس جرجس مشاقه فروا من جلد السمور. وقال له بارك الله في عملك . لكن يلزم ان تترك بناء المأذنة لي لكي ابنيها من مالي وتكون لي شركة في هذا العمل الخيري . وهكذا تم عمار الجامع والكنيسة .

ثم شرع جرجس مشاقه في توسيع عمار بيته في صور مع عمار بيت آخر في قرية قانا (التي بعد ذلك توفي ودفن فيها). وهكذا جدد في صور جملة دكاكين ومخازن . وصار له اعتبار كلي عند اهالي بلاد بشاره وعند مشايخهم وعلمائهم . وصار له من الاولاد الذكور اثنان ابراهيم وبشاره الذي هو جد عايلة مشاقه القاطنة الآن في مدينة الاسكندرية وهي بشاره والياس اولاد يوسف ابن بشاره واولادهم . واما ابراهيم فهو جد عايلتنا . وهو من الاشخاص النجباء قد فاق على ابيه في حسن الادارة والتدبير. وكان معدوداً بين الرجال المدركين الاغنياء . فهذا تزوج بنتاً من عكة من بيت عوض وولدت له جملة ذكور واناث فالذين عاشوا من الذكور ثلاثة اكبرهم جرجس ولد سنة ١٧٦٥ ثم انطون سنة ١٧٧٩ وايوب ١٧٨٢ (٣) .

وفي مدة ابراهيم تولى على صيدا احمد باشا الجزار الظالم الشهير. وهو اول الوزراء في سوريا الذي ابتدى في ملاشاة قوة روسا العشاير الذي انتهى وجودها بالكلية سنة ١٨٦٠ بعد قتل الامير سعد الدين الشهابي امير حاصبيا وكان هو الاخير. فاحمد باشا الجزار اصله من البشناق حضر الى مصر وخدم عند امراء الغز[١] . وكان من الذكاء والحيلة على جانب عظيم كما هو ايضاً قاسي القلب عديم الشفقة والرحمة. وعند موته اكثر الشعراء في نظم تواريخ الهجاء لقبيح فعاله . فما قيل في تاريخ سنة موته سنة ١٢١٩ :

فاز الانام وأرخوه بمقصد هلك الشقي والى جهنم قد رحل

وقال شاعر آخر في تاريخه بعد الهجو :

انشدت مسروراً لتاريخ اتى هو احمد الجزار باشا قد هلك

(١) الغز جنس من الترك واحدهم غزي.

فهذا فيه غلط حساب ٣٩ ربما تحريف من الناسخ. فهذا الرجل بمدة اقامته في مصر عمل في بيته وليمة دعى اليها بعض اصحابه من المماليك الغز واسكرهم وعندما رقدوا وهم سكارى فقام وذبح الجميع. المقول انهم كانوا ثمانية عشر. وهرب الى سوريا. ثم حضر لدير القمر في لبنان. وحيث لم يكن وقتيذ منزل للغربا في البلدة المذكورة سوا حوانيت القهوة فنزل في قهوة الميدان التي يطل عليها بعض طيقان مقعد الامير يوسف الشهابي الذي كان حاكم لبنان حينيذ. وكان اكثر الاوقات ينظر الجزار جالساً في براني القهوة. وقد سأل عنه فأخبروه انه غريب من الاتراك يتكلم بالعربي لغة مصر الى انه ذات يوم بارد نظر الامير لهذا الرجل ليس عليه من الكسوة ما يقيه البرد. فسأل احد الخدام عن ذلك اجابه ان هذا الغريب قد باع جميع حوايجه ونهار امس باع الجبة التي عليه ليشتري لنفسه طعاماً. فالامير قال يجب ان يعطى له خبزاً وطبيخاً من مطبخنا ما دام مقيماً. وكان بجانب الامير كاخيته الشيخ غندور الخوري جد غندور بك الموجود الآن في قرية عين تراز والمدرسة الموجودة بها لبطريرك الروم الكاثوليك هي نفس مسكن الشيخ غندور قد اشتراها البطريرك اغابيوس مطر سنة ١٨١٠. فالشيخ غندور قال للامير ان هذا الغريب لو كان تيسر له خدمة في السواحل يعيش منها ما كان حضر للجبل. فاذا حسن لديك تقبله عندك. وربما يلزم لخدمات خصوصية. فاستصوب الامير ذلك واستدعاه فحضر وسأله عن سبب حضوره فاخبره ان كان مستخدم عند احد السناجق بمصر. وجنس المماليك المستخدمين لا يرضوا ان يخدم سيدهم من هو ليس منهم ليلا يتقدم عليهم لانه حر من البشناق وكان ينتقل من خدمة الواحد لخدمة الآخر ويصادف المقاومة من الجميع. اضطر لترك مصر والحضور لبلاد الشام. ولم يتيسر له الخدمة لا عند الزيادنة ولا المتاولة ولا عند والي صيدا. فأجابه الامير اني اقبلك عندي. واذا رأيت منك الصداقة والاستعداد فترتفع الى الدرجة التي تستحقها. وآمر له الامير بكسوة لايقة وسلاح ومركوب وتعيين مأكولاته وعليق دابته ومكاناً لسكناه.

< فامراء لبنان كانوا يقيموا مدة الصيف في دير القمر ومدة الشتاء في مدينة بيروت. فاحمد آغا الجزار ظهر منه حذاقة وشجاعة ونشاط في خدمة الامير يوسف أوجبت له التقدم حتى فوض له الاحكام في مدينة بيروت حتى ان اهالي بيروت كانوا يثنوا عليه ويمدحوا من حسن تصرفاته. وبذلك زادت ثقة الامير فيه الى ان احمد آغا قرر للامير يوسف ان اسوار بيروت صاير اكثرها خراب. وليس

لنا أمنية من غدر الدولة خصوصاً فصل الشتاء المعروف وجودك بها مع عدم الاستعداد للمدافعة فاذا (غشينا) مركب في ظلمة ليالي الشتاء ولم يكن فيه غير مايتي (٤) نفر فيتمكن من كلما يريد فعله فينا ولذلك يلزمنا الاحتراز من غدر الدولة . وهذا قد يتم معنا بسهولة ولا يحتاج اكثر من ترميم الاسوار وضبط الابواب الذي تتم اكثر العمل بوضع سخرة على الاهالي من بيروت والقرايا القريبة لان ذلك يعود لدفع الضرر عن جميع البلاد . فالامير تشكر من حسن ملاحظة احمد آغا ولم يخطر في باله ما هو مكنون في خبايا مكر احمد المذكور وأرخص بترميم الاسوار. فاحمد آغا المذكور باشر العمل حالا بكل سرعة ونشاط واجتهد في تقليل المصاريف بتكثير السخرة ومناظرته على الاعمال بنفسه وانهى العمل بمدة وجيزة فانشرح الامير من ذلك وانعم على احمد آغا بزيادة مرتبه وفي ألقاب الشرف في مكاتباته له كما ان الشيخ غندور الخوري كان يمن باصابة رأيه باستخدام هذا الرجل النبيه النشيط ولم يدركا ان وراء ذلك الطامة الكبرى والبلاء الاعظم عليها وعلى عموم رعايا ايالة صيدا لا بل على ايالة الشام ايضاً .

واما احمد آغا المذكور فبعد ما اكمل تحصين بيروت شرع سراً بعمل الوسيلة للاستيلاء على ايالة صيدا. ففي ذاك الوقت لم يكن بوسطة مرتبة لنقل المحررات بين البلدان . فكانت الدولة وولاتها في الايالات يرتبون عندهم رجال مخصوص لحمل الكتابات من السلطنة الى الولاة ومنهم اليها (يسمونهم تاتار او ططر) وفي الامور المهمة ترسل الدولة اشخاصاً تعتمد عليهم من اصحاب الوظايف كالقبوجي باشى والشلحشور والبستانجي باشى[1] الذي يصحب معه ربما اربعين نفراً من التاتار . فسفر التاتار وهؤلاء يكون بتسخير دواب الاهالي بدون اجرة . وكلما وصلوا الى بلدة يسخروا الدواب اللازمة لهم منها ويطلقوا التي كانت معهم لانها أعيت من سياقتهم العنيفة . ويقال ان التاتار النشيط كان يتوجه من دمشق الى القسطنطينية في اسبوع واحد . ويرجع بمثله حال كون المسافة بينها على مشي دواب المسافرين اربعين يوماً . فمن هنا يعلم مقدار الضرر على اصحاب الدواب باهلاكها . فأما احمد آغا الجزار حال كونه حاكم بيروت والتاتار القادمون لصيدا يمرون عليه فكان يتلطف بمسايرتهم وقضاء ما يلزمهم ويكرمهم خصوصاً اذا كانوا من مأموري الدولة اصحاب الوظايف . ويظهر للامير انه يفعل ذلك حتى يمدحوا

(١) القبوجي باشا رئيس الحجاب والشلاحشور لقب شرفي كان يطلق في اوائل عهد السلطنة على الكتيبة الاولى من الحرس السلطاني والبوستانجي باشي رئيس حرس البوستانجي .

الامير عند الوالي وعند الدولة . ولكن مقصده الباطن مدبج شخصه «فلما تمهد له حسن الاسم عند الدولة تكلم سراً مع احد القبوجية العقلا المارين عليه انه لماذا الدولة مرتضية بان وزيرها والي الايالة الواسعة الانحاء يبقى محصوراً داخل مدينة صيدا ولا يحكم من الارض سوى ثلاثة اميال طولا من مصب نهر الاولي الى ساقية سانيق وعرضاً من شاطىء البحر الى حدود قرية الهلالية التابعة لبنان مسافة ميل واحد . واما جميع الايالة فيتمتع روسا العشاير واتباعهم في خيراتها . اجابه ان قهر العشاير يلزمه حروب ومصارف كثيرة والنتيجة من ذلك لا توازي التعب والاكلاف . فأجابه الجزار اذا (٥) كانت تنعم الدولة على عبدها هذا بمنصب ايالة صيدا فأقوم بهذا العمل ولا اكلفها لشيء واول عملي يكون باستخلاص مدينة بيروت من حكومة لبنان . وقد سبقت واصلحت اسوارها وحصنتها جيداً لهذه الغاية . فطلب القبوجي عرضحالا للدولة بالتماس منصب صيدا وبتعهداته وانه بوصوله يسعى بانفاذ مطلوبه . فحرر له اللازم وبعد توجهه للاستانة تم له مطلوبه وارسلوا له فرمان الولاية فصار سيده الامير يوسف تحت امره . فانتقل الى صيدا . فوجه حكومة لبنان على الامير يوسف كقديمها الا ان بيروت انفصلت عن حكومة لبنان»

وعقيب ذلك اتى على عكة حسن باشا الجزايري وزير البحر اذ كان فيها الشيخ ضاهر العمر الزيداني حاكم بلاد صفد وسواحل عكة وحيفا . وكان الشيخ المرقوم عمّر سور عكة الداخلي وحصنه بالابراج والمدافع وعمر في السرايا برج الخزينة واصلح قلعتها القديمة ورتب لها طوبجية من الاتراك . وطلب حسن باشا اموالا من الشيخ باسم الدولة وارتضى بمبلغ خمسين الف غرش التي تبلغ في اسعار ذاك الوقت نحو خمسة وعشرين الف ريال فرانسه . فالاكثرون من معتمدين الشيخ اشاروا بالدفع . واما الطبيب التاجر الوافر الغنا الذي كان يقدم للشيخ كلما يلزم لمصارفه ويستوفي بدلها الزيت والقطن والحبوب وغير مسموح لغيره ان يتاجر بها وكان الشيخ يعتمد رأيه لحسن عقله ومزيد ادراكه وعلمه وهو المعلم ابراهيم ابن عبود الصباغ الروم الكاثوليكي جد ابي لخواجـــه حبيب الصباغ الموجود الآن من معتبري تجار دمشق . فابراهيم المذكور قد خالف رأي الجماعة اعتماداً على ضعف الدولة وحصانة عكة ولم يحسب امكان خيانة الاتراك المستخدمين على المدافع . فأشار على الشيخ بقوله ان يتمنع عن الدفع لان الدولة العثمانية دايماً تطلب التقدم والزيادة فاذا اعطيتهم الآن ففي كل مرة يرجعون اليك ويطلبوا الزيادة وهذا الباب اذا انفتح فلا يعود امكان لغلقه فالاصوب عدم

فتحه وتقطع امل مطامعهم فلا يعودوا لمراجعتك . فاستحسن الشيخ هذا الرأي وجاوب بالمنع فحينئذ آمر حسن باشا باطلاق المدافع على عكة والشيخ آمر بضرب المراكب من عكة . فضربوا ولم يصوبوا عليها لحرمة مقاومة عسكر السلطان ديانة خصوصاً بأن الطوبجية اتراك. وقيل انهم سمروا آلات المدافع وهجمت العساكر البحرية على عكة . فعندما نظر ذلك الشيخ ضاهر بوقوع الخيانة من عسكره ففر هارباً فلحقه عسكر السلطان خارج البلدة وقتل ودفن هناك وقبره معروفاً حتى الآن . ثم صار القبض على اولاده وعلى المعلم ابراهيم الصباغ وضبط كلما وجدوه من مال الشيخ واولاده ثم من اموال ابراهيم الصباغ التي قيل بأنه وصل منها الى خزينة السلطان ثلاثة وثمانون الف كيس بأسعار معاملة ذاك الوقت التي تساوي (٦) قيمة خمس مليونات ليرة او خمسة وعشرين مليون فرنك وهذا خلا ما اختلسه حسن باشا لنفسه وما انتهبه المأمورون من طرفه بضبط هذه الاشياء وقيل انه وجد عند الصباغ دواة كتابة من حجر الزمرد وغطاها حجر الماس يقولوا انها دواة يوسف بن يعقوب ابي الاسباط والقول في سبب وصولها اليه ان محمد بن ابي الذهب احد سناجق مصر عندما حضر لبر الشام بقصد التملك ورجع من دمشق خايباً فبوصوله لعند الكرمل ادركه الموت فجأة والنصارى يقولون انه عزم على هدم دير ايلياس النبي هناك فلذلك خنقه هذا النبي وكان ذلك سنة ١١٨٨ هجرية وقيل في تاريخه مات ابو الذهب لان هذه العبارة تبلغ في حساب الجمل ١١٨٨ . فالشيخ ضاهر كان حينئذ في بيته الذي بناه في اسكلة حيفا بالقرب من الكرمل فحالما بلغه موت ابي الذهب اتى برجاله الى معسكر المذكور واستولى على خزينته ومن جملة ما وجد فيها هذه الدواة فأوهبها الى ابراهيم الصباغ قايلا له هذه نصيبك كونك من ارباب القلم . ثم بعد ضبط موجودات الشيخ ضاهر واولاده والصباغ اخذوا اولاد الشيخ واولادهم والصباغ الى القسطنطينية فوضعوا الصباغ مقيداً في الترسخانة مدة . فصودف ان الملكة اعتراها مرض اعجز الاطبا حتى قطعوا الامل من حياتها فواحد من المقربين للملك اعرض لديه بأن الاطباء فرغ املهم من شفاء الملكة وموجود عندنا طبيب محبوس بالترسخانة احضروه مع اولاد الشيخ ضاهر العمر يقال عنه انه ماهر جداً فان حسن لديكم يستحضر لرؤية الملكة . فاستحضروه وعالجها فشفيت بواسطته فانعم السلطان باعتاقه وتلبيسه طوقاً من ذهب وبذلك حصل له شهرة كلية عند كبراء الدولة والعوام بصناعة الطب فاستحوذ عليه الطمع بأن يقدر على جمع مال يرضي به الدولة على ارجاع اولاد الشيخ ضاهر لبلادهم .

في احد الايام صادفه حسن باشا المذكور في احد المحلات فعاتبه على عدم زيارته في المركب فاعتذر له فأمره ان يأتي لعنده ثاني يوم يتناول معه الطعام وبوصوله لعنده امر بشنقه فشنقوه بالمركب . والذي لحظ من السبب بأن الباشا المومى اليه اخفى عن الدولة اشياء جسيمة مما اخذه من المذكور فعندما نظره معتوقا ومتداخلا في رجال الدولة اختشى منه ان يقرر عما اخذه الباشا المرقوم ويظهر اختلاسه ويكون ذلك كافياً لقطع رأسه حسب رسوم الدولة في ذلك الزمان فأراد ان يستر خيانته بقتل البري المظلوم بسلب امواله وخراب دياره . والمظنون ان غنى الصباغ الذي لم يعهد مثله في سوريا بتلك الايام لم يكن جميعه من التجارة بل من عثوره على دفاين من ازمنة الصليبيين لان عكة صادفها تقلبات كثيرة (٧) .

ولنرجع الى احمد باشا الجزار فاغتنم فرصة فتوح عكة ليأمن غايلة ما كان يحتسبه من الدولة بأنها ستعزله من منصب ولاية صيدا كما تعزل باقي الولاة بمدة قصيرة اما لاحتسابها من تمكن الولاة من طول مدة ولايتهم ان يعصوا عليها كما عرفت ذلك بالتجربة واما لدفع مال لخزينتها مع الرشوة لرجالها ممن يطلب ذلك المنصب. فالجزار انتقل من مدينة صيدا وجعل مركز اقامته في عكة مظهراً ان غايته تمهيد البلاد التي كان يحكمها الشيخ ضاهر العمر لان له فيها احزاب لا يفترون عن عمل الفتن والقلاقل. واما غايته الباطنة الامنية على دوام ولايته بتحصنه في قلعة عكة . ولذلك كان جل جهده في زيادة تحصينها واحتشاد الذخائر والمهمات الحربية ضمنها . واكثر عنده من العسكر الغريب من البشناق جنسه ومن الارناوط وقساة الاكراد الذين جعل عنده متقدماً احد مشايخهم الذين يعتقدون ولايته (قداسته) اسمه الشيخ طاها ولكن المسلمون يقولون انه يزيدي يعبد الشيطان. ولذلك عقب موت الجزار ثاروا عليه وقتلوه ومثلوا به وقال الشاعر في تاريخ ذاك العام :

ما حلت يا حول حتى نلت فيك منى	قلبي واشفيت قلباً كان محزونا
واهلك الله فيك الظالمين ولم	يعد الى الجور والعدوان تمكينا
فتكت في ذلك الجزار ثم وقد	الحقت فيه رجيماً كان ملعونا
ذاك اليزيدي طاها من هوى سقر	ارخ واضحى به اسماعيل مسجونا

كلمات التاريخ تجمع (١٢٠٣)(١٠٢٣) وصحة التاريخ ١٢١٩ ربما وقع تحريف من الناسخ واخرجوا اسماعيل باشا من السجن وسلموه الاحكام لبينما يصدر امر الدولة لمن توليه .

ولنرجع لذكر بعض اعمال احمد باشا الجزار . فبعد ان تمكن من عكة و بلاد صفد القى الفتنة بين مشايخ بلاد بشاره والشقيف وبين امير لبنان الامير يوسف الشهابي ولكن ظهر الضعف بالاكثر على المشايخ المذكورين وحينئذ جهز الجزار العساكر لمحاربتهم . وحصل جملة وقايع . اخيراً اصيب كبيرهم الشيخ ناصيف النصار برصاص اعدمه الحياة حالا . فتبددت رجاله وهرب بقية المشايخ مع خواص اتباعهم ودخلت العساكر في البلاد واهلكوا كثيراً من الرجال مستعملين النهب وتفضيح النساء والعذارى كمألوف عوايد عسكر الاتراك والاكراد. وبعد ايصال تلك البلاد لحالة الضعف بفقد شجعانها بعضهم بالقتل وبعضهم بالفرار حينئذ خضعت للجزار خضوع المغلوب .

ان حالة داخلية تلك البلاد ومرتباتها الميرية ومقدار تحمل كل قرية من المطاليب جميعه كان مجهول عند ولاة الايالة اذ كان يعطى لهم من المشايخ بدلا عنها مالا طفيفاً وهم يأخذون من الاهالي بحسب تحملهم (٨) . فلذلك استحسن الجزار اعطاء بلاد بشاره الى ابراهيم مشاقه على وجه الالتزام بمال سنوي معلوم المقدار لكونه خبيراً بداخلية البلاد وبأشخاصها وله الادارة الكافية وقادر على دفع ما يتعهد به . فاستحضره واعطاه شرطنامة الالتزام مع شخص مسلم برسم حاكم في ظاهر الامر حيث اكثر اهالي البلاد من المسلمين الشيعة . ولكن تصرفاته تكون حسب ارشاد ابراهيم مشاقه الذي جعل مركز اقامته في قلعه مارون[١] . فأحسن التصرف مع الاهالي ومع ولي امره جزار باشا ولذلك كان في بداية كل سنة يجدد له الالتزام لحين وفاته . فمن اعماله انه كان يوجد من طايفة الروم الكاثوليك جملة عيال متفرقة في قرايا بلاد بشاره بين المسلمين حيث لا يوجد عندهم قسيس ولا لهم كنايس للقيام بفروضهم الدينية فجمعهم الى قرية شمسية[٢] اسمها نفاخية[٣] وعمرها لهم مع كنيسة وخوري يتمم لهم واجباتهم الدينية كما اجتمع المارونيون في قرية رميش[٤] وعين ابل .

واما النازحون من بلاد بشاره فكانوا يختفون في احراشها الوسيعة ويسلبون راحة ابناء السبيل بالنهب والقتل ويتعدون على قرايا البلاد وعلى مجاوريها بطلب اموال

---

(١) الى الجنوب الشرقي من بنت جبيل وعلى مقربة منها .
(٢) اي الى قرية يملكها بكاملها بلا شريك على الاطلاق .
(٣) بفتح النون وتشديد الفاء .
(٤) بفتح الميم وتسكين الياء .

وذخاير فالتزم الجزار ان يرتب رجال للتفتيش عليهم وكثير ما استفردوا بعض هؤلاء المفتشين وظفروا فيهم واعدموهم الحياة كما ان المفتشين اذا ظفروا فيهم فيقتلوا منهم من لا يستطيعوا مسكه ليأتوا به حياً الى الجزار ويأخذوا عليه الجايزة ودام القلق لبعد وفاة الجزار.

فما حدث لابراهيم مشاقه انه في احدى خطراته لعند الجزار كان المفتشون احضروا للجزار نحو اربعين رجلا من النازحين الذين يسلبون راحة البلاد . فأمر الجزار باماتتهم على الخازوق خارج باب عكة . فكانوا يرمونهم على الخازوق هذا على مقعدته وهذا على جنبه وهذا على كتفه فصودف مرور ابراهيم مشاقه عليهم وهم يتممون هذا العمل البربري وكان باقي لاتمام عملهم اربعة شبان فتكلم مع المأمورين ان يتوقفوا عن قتل الاربعة شبان لبينما يدخل لعند الوزير فيرسل اليهم خبر اما في اطلاقهم واما في اعدامهم وبما ان المأمورين هم من جماعة الشيخ طاها ويعرفوا تردد ابراهيم على شيخهم وان بينهما مودة فامتثلوا كلامه . ومن التوفيق صودف وجود الجزار جالساً في باب السرايا القريب من باب البلد فتقدم لمواجهة الجزار فاستقبله بالترحاب وبالحال التمس العفو عن الاربعة انفار المرقومين وانه يدفع عنهم فدية للخزينة فقبل التماسه وصدر الامر بتسليمهم له فأرسلوهم اليه فأخبرهم عن مرحمة الوزير بالعفو عنهم بحيث يتوبوا عن تصرفهم السابق ويقيموا في بيوتهم مطمأنين فكان جوابهم اننا كنا من المقتولين نظير ما قتلوا رفاقنا بأشنع الميتات. ونجاتنا كانت بواسطتك . فاذاً انت الذي اشتريتنا وصرنا عبيد لك مدة حياتنا فلا نفارقك ونخدمك بأرواحنا ولو طردتنا فنقيم على ابوابك واحسبنا من جملة (٩) اتباعك . فأعطاهم كسوة كونهم تعروا للقتل وعند نهاية شغله في عكة اخذهم صحبته لصور وبلاد بشاره .

فهذا العمل جعل الاسم الحسن لابراهيم مشاقه ليس عند المسيحيين فقط بل بنوع اخص عند المسلمين وبالاكثر عند الشيعة في بلاد بشاره كون الذين تخلصوا من القتل هم منهم . وكان هؤلاء الاربعة اكثر نشاطاً في مصالح ابراهيم المذكور من بقية اتباعه اذ كانوا يزيدوا عن الاربعين فارساً من الشيعة والنصارى اذ الطريقة العشايرية لا تجعل الفرق بين الاتباع باعتبار مذهبهم بل باعتبار صدق ودادهم .

فصودف ان البعض المتعصبين لمقاومة الحكومة افتكروا بأن يغدروا بابراهيم مشاقه ثم بالحاكم المسلم الرسمي الذي بمعيته ليكون ذلك واسطة لارجاع الحكومة

في بلادهم ليد المشايخ . فحضر منهم جماعة وطلبوا مواجهة ابراهيم فخرج لمقابلتهم وفي اثناء مكالمته معهم هجم عليه احدهم وبيده خنجراً ليضربه به . فدخل بينهما احد الاربعة الاشخاص الذين سعى في خلاصهم من القتل واسمه رحال وتلقى ضربة الخنجر في صدره فوقع قتيلا وقبل مفارقته الحياة قال الآن امكنني اكافي منقذي من الخازوق . فاجتمع خدام ابراهيم حوله وكان هو من الشجعان فشتتوا الغادرين بعد ان قتلوا بعضهم . ولكن ابراهيم احتسب من اجتماع الكثيرين عليه وليس عنده من القوة ما يكفي لمقاومة الكثيرين ولذلك حالا ترك مكانه وتوجه لعند الجزار واخبره بما حصل وانه عقيب خروجه من محله لحقه الخبر عن حضور جماهير كثيرة من رجال القرايا والنازحين يطلبونه ونهبوا كلما وجدوه في منزله من نقود وامتعة ولم يتركوا من الموجود شيئاً وانه حضر لاغراض ما وقع ويلتمس الاعفاء من هذه الخدمة وان يقيم في بيته مشمولا بأنظار دولته .

فاشتاط غيظ الجزار من هذا العمل ولم يقبل استعفاه . وامره ان يرجع لمكانه ويصحبه بالعساكر لتدمير المتجاسرين وبالحال اصدر اوامره لضباط العساكر من بشناق وارناؤط واكراد بأن يتوجهوا صحبة ابراهيم مشاقه الى بلاد بشاره بعدد عينه لهم من العسكر ويلقوا القبض على جميع المتداخلين بهذا التعدي . وان حصل ممانعة فيقهرونهم بقوة الاسلحة . ففي يومين تجهز العسكر وتوجه اليهم وصحبته ابراهيم مشاقه . وفي دخوله البلاد قابله العصاة بالرصاص فهجمت عليهم العساكر . وبعد محاربة شديدة حق الانكسار على العصاة واعمل السيف فيهم حتى قتل منهم ما ينيف عن ثلثماية رجل واستأسروا منهم جملة رجال ارسلوهم لعكة وبوصولهم صار رفعهم على الخازوق . ثم اخذ من البلاد اموالا جزية بمقابلة مصارف العسكر . وغب ذلك همدت الحركات داخل البلاد فقط وبقي تعدي المشايخ واتباعهم الذين يختفون في الاحراش ويسلبون امنية الطريق ويكلفون اهالي البلاد (١٠) وما يجاورها لتقديم ذخاير واموال والتفتيش عليهم من طرف الحكومة متصل . والذي يقع منهم باليد حالا يصير رفعه على الخازوق.

وعندما ارتاح فكر الجزار من جهة بلاد صفد وبلاد المتاولة اعني بلاد بشاره وبلاد الشقيف وصارت قلاعها بيده وهكذا اساكل البحر من حيفا الى بيروت ليس فيها ادنى سلطة للعشاير وجه اهتمامه لقهر جبل لبنان الحاكم عليه الامير يوسف الشهابي ولي نعمة الجزار المتقدم بيانه فابتدى يتطلب منه تطلبات المتعنت الذي لا يقنع بشيء حتى طلب منه رفع يده عن اقليم الخرنوب واقليم

التفاح وجبل الريحان واقليم جزين . فأجاب لطلبه . وحصل تقلبات كثيرة ومطاليب لم يعد في امكان الامير القيام بها . فأجمع رأيه ان يترك الحكومة ولكن اختشى من تحكيم احد اقرباه مكانه فينتقم منه ومن اولاده واخصايه لان الامير يوسف كان وحشي الطباع وقتل اخاه الشاب الامير افندي وطفى عينا اخيه الامير سيد احمد والد الامير سلمان والامير فارس المتوفي قريباً بقرية الحدث من ساحل بيروت . وقتل خالاه الامير اسماعيل والامير بشير فاذا كان تصرفه مع اخوانه واخواله وهم اقرب الناس اليه هكذا فكيف يكون مع البعيدين عنه . ولهذا جميع آل شهاب تركوا وطنهم دير القمر وسكنوا بالخارج بعضهم في ساحل بيروت وبعضهم في دردوريت ثم مجدل معوش وشملان وعبيه وذلك احتساباً من غدره . وكان من المختصين به شاباً من اقربايه وهو الامير بشير بن الامير قاسم بن الامير عمر بن الامير حيدر الجد الجامع لعيلة الامراء الشهابيين في لبنان وهو من امراء حاصبيا ابن الامير موسى المنقوش تاريخ جسر نهر حاصبيا باسمه . وفيه يلتقي نسب امراء شهاب اللبنانيين مع نسب الامير سعد الدين امير حاصبيا المقتول في حادثة سنة ١٨٦٠ . ولكن امراء لبنان اجتذبهم المارونيون لمذهبهم تدريجاً . واما ساير عيلتهم في حاصبيا وراشيا باقون لتاريخه متمسكون بدين ابايهم المسلمين بالمذهب الحنفي . واصلهم من العرب من بني مخزوم حضروا مع عشيرتهم صحبة خالد بن الوليد لفتوح الشام وقتل في حصار دمشق على باب شرقي الامير حارث جد الامراء الشهابيين.

وعندما الامير يوسف استحضر خاله الامير بشير من حاصبيا وقتله غدراً ارسل من قبله الشاب الامير بشير المذكور ليضبط موجودات الامير بشير المقتول. فحضر لحاصبيا وتمم المأمورية ونظر الى ارملة المقتول التي كان له منها بنتين خدوج ونسيم وهي السيدة شمس المريد اخت الامير قعدان القاطن في قرية عبيه من غرب لبنان الفوقاني . وفي ذاك الوقت كانت هذه العيلة يتزوجون من بعضهم واختلاف الدين لا يمنعهم حتى انهم كانوا يزوجون ويتزوجون من امراء المتن حال كونهم بذاك الوقت من الدروز ثم تنصروا تدريجاً . وكان آخر من مات منهم درزياً منذ سنين قريبة الامير احمد والد الامير بشير برمانا الذي صار حاكماً على شمالي لبنان . فالامير بشير الشهابي عند نظره لجمال الارملة المذكورة صمم على طلبها زوجة له . وقد تم ذلك وتزوج بها وولدت له فيما بعد اولاده الذكور الثلاث الامير قاسم والامير خليل والامير امين (١١) .

اخيراً استصوب الامير يوسف ان يجعل الامير بشير هذا يتوجه لعند الجزار

ويتعهد له بدفع مبلغ الخزينة بناء يعطيه حكومة لبنان لكونه يوتمن جانبه فاحضره واخبره عما يتحسن عنده فأجابه انني فقير لست املك مال ولا رجال ومع هذه الحالة ربما يأمر الجزار بعمل لا تريده . فالآن انني محسوب عند الجميع كولدك ولكن متى خدمت الجزار فأصير كولده واضطر للسلوك حسب امره ولا اخدم الا بالصداقة . فربما يرسل معي عسكراً ويأمرني بضربك فكيف افعل حينئذ . اجابه اذا امرت بضربي فلا احاربك واقوم من وجهك . ولا اطلب منك اكثر من خبر لحوقك بي قبل بيوم واحد فاذهب من امامك واعطيك عشرة فرسان من خاص رجالي يكونوا تحت امرك وعشرة اكياس (تساوي بذاك الوقت نحو خمساية ليرة) لاجل مصروفك . وبالحال امر عشر فرسان يكونوا في خدمته منهم ابراهيم الطرابلسي جد اولاد الطرابلسي بدير القمر المشهور بالفروسية ويوسف عزيز وثمانية من خاص فرسانه . فتوجه الامير بشير بهم الى عكة وفي مروره على صور استقبله ابراهيم مشاقه وانزله في بيته واجرى كل ما يمكنه من الاكرام . وارسل بخدمته لعكة احد اتباعه المدركين . وحرر معه توصية بمصلحة الامير لاصدقايه الشيخ طاها رئيس الاكراد وابناء السكروج الروم الارثوذكسيين ذوي النفوذ عند الجزار ووظيفتهم ادارة الخزينة والمحاسبات . والتمس من الامير بان يكون بيت مشاقه لخاصته ومنزلا له في ذهابه لعكة وايابه منها فوعده بذلك . وهذا اول تعلق عايلة مشاقه بالامراء الشهابيين . وكان ذلك سنة ١٢٠٣ هجرية . وهكذا اخذ الامير الاوامر بحكومة لبنان واصحبه الجزار بعساكر لكي يضرب الامير يوسف ويلحقه حتى يخرجه من حدود البلاد . فالامير بشير رجع الى صور وارسل البشاير الى الجبل بتفويض احكامه اليه . وارسل خبراً للامير يوسف بقدومه لدير القمر بعد يومين فثاني يوم وصل لصيدا . وفي ثالث يوم قام لدير القمر. فلاقاه وجوه البلاد القريبة وقدموا له الطاعة واخبروه عن قيام الامير يوسف من امامه اخذاً طريق المتن. فارتاح يوماً ارسل فيه خبراً للامير يوسف انه مأمور في لحوقه حتى يخرج من حدود لبنان وان في الغد ينهض من دير القمر في اثره . فثاني يوم انتقل الامير لمحل قريب لكي يكون وقتاً للامير يوسف يبعد فيه من وجه العسكر . وثالث يوم نهض بالعسكر وهو مطمأن البال بأن الامير يوسف صار بعيداً وتخلص من مداهمة العسكر له . فبوصوله الى مضيق بين الجبال نزل عليه الرصاص مثل المطر واذا بالامير يوسف برجاله رابطون عليه الطريق . فعندما نظر هذا الغدر الفاحش اشتد غيظه من هذه المعاملة بالغدر وكان من اشجع فرسان عصره واعرفهم بتدبير الحروب حيث في

جميع حروبه التي باشرها بمدة حياته (١٢) لم تصادفه الخيبة . فحينئذ امر العسكر بضربهم والهجوم عليهم وكان هو بنفسه في المقدمة . فاشتد الحرب بينهم . وعندما كثرت القتلى والمجاريح في عسكر الامير يوسف فولى منهزماً والامير بشير يتبعه بالعساكر الى ان خرج من حدود لبنان . فرجع الامير بالعساكر منصوراً الى دير القمر واعرض للجزار فيما حصل . وحالا آمر بجمع اموال الجبل الاميرية وتوريدها لخزينة الجزار . فسر من نشاط الامير وصدق خدامته .

ثم ان الامير يوسف لم يقطع امله من الجزار . فتوجه لعنده مع كاخيته[1] الشيخ غندور الخوري الذي كان ايضاً استحصل لنفسه وظيفة قنصل لفرنسا على مدينة بيروت وبوصولها لعنده استقبلها وعين لها منزلا . ثم وضعها بسجن المجرمين الذي هو قبو كبير مظلم مبنية سرايا الحكم عليه . وكبلها بالقيود الحديدية . واذ كان الجزار بنفسه محارباً لبلاد نابلس ومحاصراً لقلعة سانور وكان ابراهيم عزام الروم الكاثوليكي مسجوناً بجانب الامير لا لذنب لكن ليبنيا يدفع مبلغ الجريمة التي رتبها عليه الجزار بأكثر من مقدرته كان ولده خليل مستخدماً في استلام الذخاير الحربية من عكة والتوجه معها ليسلمها في معسكر سانور .

فصودف ان الجزار امر في تلغيم القلعة فلم يتقنوا عمل اللغم وعندما اشعلوه ارتد على المعسكر واتلف منه الكثير . وحصل بشللة من ذلك لذات الجزار . فخليل عزام عندما رجع من سانور كتب ذلك لوالده في الحبس بأحرف اصطلاحية بينهم وبسبب منع دخول الكتابات الى المحبوسين ادخلها ضمن رغيف الخبز مع الطعام فالسجان عثر عليها فأرسلوها الى الجزار فسلمها الى الكتاب ليستخرجوا له مضمونها فكان بشاره لوالدة فيما حصل لمعسكر الجزار من ارتداد اللغم عليهم وبشللة احوال الجزار وان يبشر الامير يوسف بذلك وانه يؤمل ان هذه الحادثة هي آخر ايام الجزار ويكون الامير يوسف الحاكم في عكه بعده . فلما وقف الجزار على مضمون الكتاب صدر امره بشنق الامير يوسف والشيخ غندور وابراهيم عزام وولده خليل فشنقوا الاربعة . فالمحبوسين ليس لهم ذنب في ذلك وانما هذه مكافاة لفضل الامير وكاخيته سابقاً على الجزار .

ان الجزار كان في اول امره يتعاطى شرب المسكرات . وكانت تصرفاته اقل شراً مما صارت اليه عقيب توبته عنها . ولكنه في قبيح اعماله حفظ التسوية بين الرعية مع افتراق مذاهبها فيحبس علماء المسلمين وقسوس النصارى وحاخامين

---

[1] (١) من الفارسية ومعناه رب البيت وبالتالي مدبر الامور.

اليهود وعقال الدروز سوية . وهكذا في اجراء انواع العذابات الجهنمية عليهم لا يفرق بينهم ولا ذنب لهم الا التوقف عن دفعهم ما يطلبه منهم من الاموال بوجه الجريمة وربما كانوا لا يملكون ما يطلبه منهم . واذا رغبنا في شرح قبائح تصرفات الجزار يلزمنا كتابة مجلد كبير (١٣) .

وقد وقع حادثة وكادت تلتحق بابراهيم مشاقه وهو انه بمدة تصرفه في بلاد بشاره حصلت الرغبة للمسيحيين في الزراعة لان المذكور كان يعمل الترغيبات الزايدة لاجل تعمير البلاد التي كثر فيها الخراب بسبب العساكر الغير مرتبة تحت قوانين وحصول الحروب الكثيرة بينها وبين المشايخ والاهالي ونقص كثير من رجالها بالقتل والفرار. فكان من جملة المسيحيين الصوريون الذين رغبوا الزراعة رجل اسمه موسى رزق . فهذا صادف دفينة قديمة من الذهب. والذي تقدر انها كانت عظيمة المقدار. فهذا الرجل لكي يتمكن من اخفايها عن أعين الحكم اخذ منها مقداراً جسيماً وبذره في اراضي مختلفة سراً . فصار الفلاحون يجدوا من الذهب فشاع الخبر . فتوارد الناس لالتقاطه . وكان موسى المذكور من جملتهم يلتقط معهم . فبلغ ذلك مسامع الجزار . فأرسل امراً بالفحص عن اسماء جميع الاشخاص الذين حضروا للالتقاط وعن امكنتهم وعن اول يوم حضورهم وعن مقدار ما التقطه كل منهم مع الوعيد لكل من ينكر شيئاً . فكان جميع القادمين للالتقاط لم يزالوا في تلك الاراضي يفتشون على الذهب . فالمأمور امكنه بكل سهولة ان يكتب اسمائهم ومحلاتهم ويوم قدومهم وما جمعه كل منهم . فأخذ منهم كل ما وجد معهم . ثم فحص هل حضر غيرهم . فقرروا ان موسى رزق حضر متأخراً يومين عمن حضر قبله . وفتش معهم يوم واحد . وصادفه التوفيق بوجوده جملة من الذهب . وتوجه ليحفظه في بيته ويرجع . ومضى ايام ولم نره في هذه الاراضي. فاستحضره وقبض منه ما اعترف به . وكتب اسمه وقصته . وارسل ذلك الى الجزار . وكان على جانب عظيم من الحذاقة . فلم يوقع الشبهة سوى على موسى رزق بأنه لو كان من المحتاجين للذهب فلم يقتنع من التفتيش عليه بيوم واحد . فصدر امره بأحضاره لعكا . وحصل استنطاقه بالترغيب ثم بالترهيب فبقي مصراً على الانكار. والحسد اوجد كثيرين من المتقولين بان هذا الرجل ينتمي الى ابراهيم مشاقه ولا بد انهما تقاسما المال. وهذا الرجل ليس هو كفاية للتصريف في قضية كهذه بدون ارشاد ذاك . فوضعوا هذا الكلام في مسامع الجزار . فكان كلامه انني اعرف جيداً درجة عقل وتدبير ابراهيم . فلا يتصرف كهذا . ومع ذلك لا وجه الآن لسؤاله . فأذا ظهرت الشبهة عليه فنجري اللازم . ثم اصدر

امره بتسليم موسى رزق لطغمة الاكراد الموظفين للتعذيب كذبانية الجحيم . فأخذوا يعذبونه اولا بضرب السياط . ثم في تعليقه من يديه ورجليه ووجهه لجهة الارض . ويضعون على ظهره اثقالا . ثم باحماء طاسة من حديد محمى على رأسه . ثم ادخال المسامير تحت اظافره وانواع اخرى غيرها . وعندما يفرغوا من تعذيبه في كل يوم يحبسونه في بير عميقة قليلة الماء مغطاه . وبعد ايام تحمل فيها اشد العذابات واقواها استقر بانه وجد الدفينة وهي كلية . فبدر منها جانباً واحضر لبيته جانباً وابقى البقية مطمورة . فسألوه عن المكان اجابهم انه ضاعت عليه معرفته . فأخبروا الجزار بذلك . فاستحضر الذهب الذي قال عنه انه احضره لبيته وامر ان يتركوه اياماً بدون عذاب (١٤) وبعده استحضروا زوجته لتنصحه بان يقرر عن كل شيء ويخلص نفسه من العذاب واذا كان له شركة بذلك مع احد فليقرر الحقيقة وجعلوها تتكلم معه من فوق غطاء البير وهم يسمعون كلامها . فقالت له انني استأذنت الجزار بمواجهتك سراً لاجل نهاية هذه الواقعة وخلاصك مما انت فيه فسمح لي ووعدني بكل خير اذا قلت الحق فاشفق على نفسك وعلى عيالك واسعى في خلاصك فما عليك اذا اقريت عن ابراهيم مشاقه الذي جميع الناس تقول بانه شريكك ويا ترى ما هو باقي من الدفينة في محلها وما هي منفعتك منها حيث لا بد من موتك تحت العذاب اذا لم تعترف بالصحيح. اجابها ان هذه الدفينة لا يعلم بها غير الله وغيري وليس فيها شريك لا ابراهيم مشاقه ولا غيره ولا اعرف مقدارها . بالتحقيق بل يمكنني القول بانها تبلغ قناطير من الذهب موضوعة في قبو وسيع كبيدر الحنطة ولا يمكن ادل عليها لانها اعانة كبيرة واذا استولى عليها الجزار فيقتدر على السلطنة ولا تجوز اعانة الظالم ولذلك خير لي ان اموت تحت العذاب وهذا هو عزمي ونهاية كلامي . فأخبروا الجزار بكلامه فاشتد حنقه عليه وامر بترجيع العذاب القاسي عليه ويحترسوا من موته تحت العذاب املا انه مع المطاولة يحصل على تقرير الصحيح. فداروا عليه العذابات المريعة واذ كانوا في احد الايام عذبوه بالدخان اذ ربطوه الى حايط واكثروا التدخين تحت وجهه فاختنق ومات. والجزار ارسل معتمدين حفروا كثيراً في الاراضي التي كان يتردد اليها موسى رزق المذكور. فلم يحصلوا على ثمرة . وهذا قد تزوج بزوجته ميخاييل حلاج واولد منها ابراهيم المتوفي بالاقليم المصري. وفهمت هذه الواقعة منها سنة ١٨١٤ بمدينة صور.

ولا بد من ذكر شيء من اعمال الجزار الخارجة عن اطوار الوحوش فضلا عن اطوار البشر لانها انما تفترس لتأكل او لتحمي نفسها او لتكميلها ما يرشدها

اليه الانسان المخلوق على صورة الله وقد عصاه وارتضى لنفسه ان يصير اشر من الوحوش الضارية لا بل هي تتعلم منه التوحش ضد افراد نوعها لاننا نرى ان الاسد والنمر والفيل البريين ولا نوع منها يتعدى على نوعه الا اذا تربى عند الانسان . فاننا نرى الكلب الذي هو اونس الوحوش للانسان فبمعاشرته له يتعلم منه على اضرار افراد نوعه . فالانسان لا يكتفي بالتحريش بين البشر ليهلكوا بعضهم . ولا بل الحيوانات الانيسة كالغنم والدجاج يحرش الانسان بين كبش وآخر وبين الديكة حتى يهشم بعضها بعضاً .

فمن اعمال الجزار انه في ذات يوم امر بجمع ارباب الحرف والصنايع . فجمع في دار سرايته كل من وجدوه من تاجر وسوقي وصنايعي . فوقف الجزار في باب السرايا وامر بتقديمهم اليه واحداً فواحداً فيأمره ان يكشف جبهته فيتأملها فيصرف البعض الى حال سبيلهم والبعض يقبض عليهم . فقبض على نحو ٢٣٠ شخصاً مختلفي المذاهب والمراتب والصنايع . وكان من جملتهم جد الخواجه روفاييل (١٥) قنواتي وميخاييل الباشا من اقرباء الخواجات باشا وكلاهما الآن من سكان بيروت . وفي اواخر النهار أمر بأخراجهم الى خارج المدينة وذبحهم من نقرة القفا على شاطىء البحر ويبقوا مطروحين على وجوههم لثاني يوم لتأكل الوحوش كفايتها . ثم يدفنوا الباقين . فساقتهم الزبانية الى المشهد وذبحتهم حسب الامر وتركتهم عند الغروب . فصودف ان فلاحاً مسلماً من اهل التقوى كان يتمم شغلا له في عكا . وعندما اراد الخروج منها كان بابها مقفولا حتى الزبانية تنتهي من عملها ولم تفتح الى المغرب حتى يدخل الجزارون . فخرج المذكور راكباً على حماره وطريقه على المذبوحين . فنظر الى واحد منهم يتحرك . فتقدم لنحوه فبطلت حركته . فناداه انني نظرتك بالحياة فلا تخشاني لاني تقدمت لاسعافك ابتغاء الثواب من الله . حينئذ اجابه بصوت مذبوح حزين نعم انني باق في الحيوة . فنزل الفلاح عن حماره ونظر ان الذبح لم يبلغ قطع الرقبة والاعضاء الرئيسية فيها فربط جرحه حسب امكانه واركبه على حماره واسنده بيديه ومشى بجانبه حتى اوصله الى ضيعته واخفاه في بيته وخاط له جرحه على قدر معرفته وثاني يوم نزل الى عكة استحضر له مرهم وصار يدبره حسب امكانه الى ان شفي . حينئذ اخبره انه يختشي من اقامته في بلاد الجزار لان ذلك ربما كان سبباً لهلاكهما سوية ولا يؤتمن دوام كتمان القضية . فقدم له التشكرات الواجبة كونه لا يملك غيرها والتمس منه ان يرسله الى الشام حيث يمكنه بها عمل طريقة لمعاشه . فالفلاح احتسب من ارساله صحبة احد ليلا يفتضح الامر . فاركبه دابته وخرج

به ليلا ولم يزل سايراً مجداً في سيره حتى خرج من بلاد الجزار . حينئذ اخذ الراحة وسافر لدمشق على مهل . فوصلا اليها والفلاح استأجر محلا لمعتوقه انزله به ودفع له ما يصرفه على نفسه لبينما يحصل على وسيلة يعتاش بها وودعه وسافر لقريته . وهذا المذبوح هو ميخاييل الباشا .

فهذه القضية ذكرتني ما ورد في الانجيل الشريف عن السامري الذي ضمد جراحات الواقع بين اللصوص . ولكن ما عمله هذا المسلم مع المسيحي هو اعظم لانه خاطر بنفسه لكي ينقذ الغريب عنه الذي لم يكن يعرفه قبلا. فهكذا يوجد من الصلاح والمروة بين المسلمين يسدون المعروف مع الغرباء عنهم . وكفى دليلا ما شوهد بالعيان من اعمال حضرة الامير عبد القادر الجزايري والمرحوم صالح آغا المهايني والكثير غيرهم من اتقياء المسلمين من طبقات مختلفة في حادثة سنة ١٨٦٠ قد صانوا ستة عشر الف نسمة مسيحية عن الذبح بسيف الاشقياء الثايرين الذين حكومة دمشق لم تصنهم لغاية بقيت مكتومة لم تعترف بها واما القراين تثبتها وممنوع التفوه بها .

ومن اعمال الجزار في هذه القضية قد قرر له احد العوانيه[1] ان ميخاييل الباشا الذي كان من جملة الذين صدر امركم بذبحهم لم يمت ولم يعلم كيف كانت نجاته وتحققت وجوده الآن في مدينة صور يشتغل معماراً وان رقبته محنية الى الامام (١٦) فان حسن يصدر امركم باحضاره والفحص عن كيفية خلاصه وعن اسم الشخص الذي خلصه وعن الذي باشر ذبحه ولم يتمم خدامته بالصداقة والنظر لكم فيما يجب من القصاص لهؤلاء الخاينين مع الذين خلصوه . بخيانتهم مما حكم به افندينا . فاجابه الجزار يظهر من ذلك ان هذا الرجل كان غير مستحق القتل والباري تعالى عمل الواسطة لخلاصه وارسلك لتكون بديلا عنه . وحالا امر بذبح هذا العواني . فذبحوه من نقرة القفاء . فسر الناس لذلك .

ولنذكر قصة ثانية من قبايح اعمال الجزار . ان المعلم خليل عطية الروم الملكي من اهالي دير القمر المهندس الذي احضر الماء من نهر الباروك لدار الشيخ بشير جنبلاط في قرية المختاره ثم الماء من نهر الصفا لسرايا الامير بشير الكبير في بيت الدين وذلك سنة ١٢٣٠ فهذا خليل كان له اربعة اخوة . فمنهم اثنان توجها بتجارة لبلاد مصر سنة ١٧٩٨ في سنة ١٧٩٩ فتحها الفرنساويون والانكليز ربطوا عليهم البحر وبذلك توقفت التجارة . فالذين هناك من بر الشام

---

(١) جمع عواني كما يتضح مما يلي من النص . ويقول المؤلف في مكان آخر « كان العواني فلان يعيش من العوان على عباد الله وكان ذوي الاموال يخشون شره » .

اكثرهم اجتهدوا في الرجوع الى بلادهم. وكان من جملتهم اولاد عطية الاثنين وكاهناً مارونياً من بيت القياله بالجبل قادماً من مدرسة روميـــة . فسافروا في مركب صغير قاصدين مينا صيدا . فالريح منعهم من الوصول اليها . فدخلوا مينا عكا . فالجزار امر بضبط كلما يوجد بالمركب وان جميع الركاب يوضعوا بالقيود الحديدية داخل الحبس . وهكذا صار حسب امره . وكانوا نيف عن اربعين شخصاً . فبلغ الخبر الى دير القمر . فبيت عطيه ارسلوا لعند ولديهم اخاهما الثالث بمبلغ من الدراهم لكي يخدمها ويقدم لها لوازمها ما داما بالحبس . فحضر لعندهما وكانا محبوسين في القبو الكبير تحت دار الحريم الكاين بابه اسفل الدرج الذي يصعدون عليه اليها . والى الخزينة وبرجها . ففي ذات يوم كان قادم بالطعام لاخويه المحبوسين فصودف نزول الجزار على الدرج وشاهده . فسأل عنه واخبروه انه قادم بطعام لاخويه المحبوسين فأمر بحبسه لجانبهما فحبسوه معهما . ففي ذات يوم تشكى وكيل الحبس بانه لم يبق عنده سلاسل حديدية ليقيد بها الذين يصدر الامر بقيدهم . فأمر الجزار ان يختق المربوطين الذين حضروا من مصر ويلقيهم في البحر . واذا كان ذلك قليل فيأخذ غلاقة مابة شخص من بقية المحابيس . ففي الليل حضروا الاكراد ومعهم الحمالين وزنابيل الخوص[1] فلم يستعملوا الخنق بل كانوا يعرون ذاك المسكين ويجلسونه ضمن الزنبيل ويكسرون سلسلة ظهره بمطرقة حديدية ثم يخيطون عليه الزنبيل ويرسلونه الى البحر . وهكذا تمت العملية . وكان اولاد عطيه الشبان الثلاث مع الكاهن الماروني المتقدم ذكرهم من جملة المنكودي الحظ الواقعة عليهم هذه المصيبة الشنيعة (١٧) .

ان اولاد السكروج المتقدم ذكرهم كانوا من المتقدمين عند الجزار وبيدهم اعمال الخزينة وهم من اصدقاء ابراهيم مشاقه ويوثقون به ويعتمدون رأيه فتغير عليهم الجزار واعتقلهم وطلب منهم تقديم اموالا لخزينته . فأشار عليهم ابراهيم بدفعها فتعهدوا بدفعها تدريجاً . فرضي الجزار عنهم وارجعهم لوظايفهم . وعندما تمموا دفع ما كان مطلوب منهم فاعتقلهم ثانية فاخبروا ابراهيم مشاقه بذلك وانهم صمموا على عدم التعهد بدفع شيء وان الذي عندهم قد دفعوه وذلك حتى لا يعود الجزار يطلب ثالثاً ورابعاً فأرسل اليهم الجواب خطاً بان يتعهدوا بدفع ما يطلبه منهم ولا يغرروا بأنفسهم . فاذا لم يبق عندهم مالا فعنده ما يدفعه عنهم. فوصلهم جوابه فما استحسنوه وبقيوا على عزمهم واجابوا بعدم التعهد بدفع شيء فأمر الجزار باعدامهم فقتلوهم وجمعوا اوراقهم وقدموها الى الجزار وكان بينها جواب

(١) الخوص بضم الخاء وتسكين الواو ورق النخل .

ابراهيم مشاقه للمذكورين الذي حالما بلغه مخالفتهم لرأيه وقتلهم وقع بمرض الحمى فحملوه من بلاد بشاره الى بيته في مدينة صور. واما الجزار عندما وقف على جواب ابراهيم مشاقه لهم بان عنده ما يدفعه عنهم قال لم يضيع علينا شيء وحالا ارسل في طلبه لعكا فوجدوه مريضاً جداً في بيته . فأعرضوا للجزار بذلك . فأمرهم بالانتظار فان شفي فيحضروه وان مات يحضروا اكبر اولاده . فبعد ايام توفي وكان عمره اثنين واربعين سنة واكبر اولاده جرجس كان عمره نحو العشرين سنة. فحالا اخذوه لعكا ولم يصبروا حتى يدفن اباه . وهناك اخذه الشيخ طاها لعنده ولم يضعه بالسجن نظراً لسابق مودته لابيه . وصار تفهيمه ان الذي كان مطلوباً من المقتولين خمساية الف غرش التي تساوي في عملة الآن خمسين الف ليرة ووالدك في كتابته لهم يتعهد لهم بالدفع عنهم فيريد افندينا انك تدفع هذا المبلغ وتطلع مكان ابيك ويكون نظره عليك كما كان على والدك . فأجابه ان والدي كان بالحياة وكذلك المقتولين كانوا احياء ويعرفوا كيف يتصرفوا وانا لم اكن اعرف شيئاً من اشغال والدي اكثر من ورقة يأمرني بكتابتها . فلا اعرف ان عنده مبالغ نقدية لكي اتعهد بدفع مبلغ عظيم كهذا . نعم انه يوجد لوالدي املاك وحوانيت فلاحة ومواشي كثيرة من غنم وبقر وجمال وخيول وغير ذلك فأقدم الجميع لخزينة افندينا وليس عندي مقدرة على اكثر من ذلك لكي اقدمه والامر اليه . حينئذ اخذوه لمواجهة الجزار واعرضوا لديه عما جاوبهم به وعندما نظر اليه الجزار انه صغير السن ونحيف الجسم وجاوب بالاتضاع أمر ان يؤخذ منه ثلثان المبلغ فقط مقسطاً على ثمانية عشر شهراً ويتوجه عليه التزام بلاد بشاره كأبيه وأمر بتلبيسه فرواً علامة لانشراح خاطره عليه . فحرر جرجس على نفسه سنداً لخزينة بمال الالتزام وبالتقاسيط المذكورة ان يدفعها لمرتبات (١٨) العساكر . ورجع لبيته ولم يجد من تركة ابيه الا القليل من النقود . فابتدأ يبيع من المواشي والمنقولات فباع الجمل بثلاثين غرش والنعجة مع خروفها بخمسة غروش وصار يدفع التقاسيط بأوقاتها ولكنه لم يبيع شيئاً من الاملاك الثابتة كالبيوت والمخازن والدكاكين والاراضي والبساتين . وكان ذلك سبباً لوقوعه ثانية وسلب نعمته بالكلية كما يأتي بيانه .

ان ابراهيم مشاقه في السنة التي مات فيها افتكر ان يزوج ابنه جرجس . فكان له في صور شركة تجارة مع رجل دمشقي اسمه جرجس سرور. وهذا هو والد مخاييل سرور الذي كان فيس قنصل فرانسا بدمياط . فجرجس المذكور حسن لابراهيم مشاقه في خطبة اخت زوجته ابنة حنا عنحوري جد حنا عنحوري من

معتبري تجار دمشق على انه يحضرها لزيارة اختها في صور وحينئذ ينظر في صلاحية اخذها او تركها فاتفقا على ذلك واحضرها لصور وكانت بديعة الجمال والعقل. فصودف ان ابراهيم كان بالخارج ولم يرجع لصور الا بمرضه الذي توفي به . فلما انقضت ايام الحداد عليه تزوج جرجس مشاقه بالابنة المذكورة . ثم عندما تمم جرجس المذكور دفع التقاسيط مع اموال الالتزام كان يؤمل زيادة انشراح خاطر الجزار عليه فخاب امله . فحضر اليه ضابط من المغاربه وألقى القبض عليه واخذه لعكا . فأخذه الشيخ طاها ووضعه في محل في دايرة وظيفته ولم يسمح بوضعه في السجن . وقرر للجزار ان هذا مربى الرفاهية وصغير السن وقد دفع كلما ترتب عليه ولم يكن له ذنب يستوجب القصاص . فاذا كان المقصود هو اخذ المال منه فاذا وضعناه في سجن المجرمين فنهلكه ويضيع مقصودنا فالاصوب هو معاملته بالرفق فارتضى الجزار بذلك . وكان السبب لحصول هذا الغدر ان احد العوانيه من مسيحيي صور كان يعيش من العوان على عباد الله وكان ذوي الاموال يخشون شره (لا نريد اشهار اسمه رعاية لخاطر ذريته) فكانوا يجتهدون على استحصال رضاه بدفعهم له ما يرضيه من اموالهم . اما جرجس مشاقه فلكونه واقع بجانب الجزار وترتب عليه دفع اموال جسيمة وتقسطت عليه ومباشر بيع موجوداته لدفعها فلم يخطر في فكره ان هذا الانسان الردي مع كونه من ابناء كنيسته وبلدته يسعى في مضاعفة مصيبته مجاناً بدون سبب يلجئه لهذا الفعل القبيح . وصورة الواقعة ان الجزار كان في احد جلساته يمدح صداقة بيت مشاقه ومع كون جرجس مشاقه صغير السن ولم يعارك الايام فقد احسن التصرف وتعهد بكلما طلبناه منه واقام بدفعه تماماً بأوقاته وباع موجوداته لكي يصدق في تعهده . فكان هذا العواني حاضراً فاستأذن للكلام وقال انني ابن بلدته وخبير بأمواله والذي دفعه للخزينة من فضلات ما عنده لان والده وضع يده على نحو ثلثماية قرية مدة ثمانية سنوات وهو الآن له سنة ونصف مستولي (١٩) عليها . والذي يدفعه عنها للخزينة ليس اكثر مما يأكله شيخ واحد من مشايخها . هذا فضلا عن مال ابيه وجده الاغنياء . ولنترك دعوى الدفينة الذي وجدها موسى رزق وانه كان شريكه بها . فما هو الذي باعه من موجوداته . نعم انه باع اكم جمل واكم نعجة ليظهر امام الناس بان لا مال عنده . ولكن اين الدور والمخازن والدكاكين والبساتين والاراضي التي يملكها في صور وصيدا وبلاد بشاره . ان صيغة والدته بالكفاية فضلا عن تجارته بالدخاخين لبر مصر . فأثر هذا الكلام في مسامع الجزار وكان عديم الشبع من سلب اموال الرعايا . واعظم مذنب لديه من يتوقف عن

تقديم ما يطلبه منه . فاذا عامله بالرحمة ولم يمته فيقطع انفه ثم اذنه اليمين ثم يقلع عينه اليمنى ولو كان من خواص خدامه . فالمعلم حنا العوره جد حنا افندي الموجود الآن كان كاتب تحريرات الوزارة فتعرفه مقطوع الانف. وهكذا المعلم حايم فارحي الاسرايبلي الرجل الشهير بالمعارف وحسن ادارة الاعمال وارضاء مخدومه مع استجلاب محبة عموم الرعايا لنحوه كان مقطوع الانف والاذن ومقلوع العين اليمنى . فبالحال الجزار استكتب من هذا العواني املاك بيت مشاقه في جميع الجهات واسماء الشركاء بالتجارة وجعل جميع ذلك من حقوق خزينته واستحضر جرجس مشاقه كما تقدم وصار وضعه عند الشيخ طاها تحت الحفظ . وطلبوا منه اموالا خارجاً عن المضبوطات للخزينة . فأجاب انني اقدم كلما املكه بحيث انني ابقى حاصلا على انشراح خاطر افندينا . وحينئذ قدم لهم دفتراً بكلما له ديون بذمة الناس وقال اني لا املك شيئاً غير هذا . فالعواني لم يكتف بذلك واشار بارساله لصور لكي تراه والدته وزوجته مع اقربايه ويجري عليه الاصول اللازمة بالتعذيب فلا بد ان والدته عندها اشياء كثيرة وربما هو نفسه لم يطلع عليها ولا يعرفها . فمتى نظرت تعذيب ابنها تدفع ما عندها لكي تخفف عنه العذاب . . . .

. . . .

. . فكان الجزار مع جوره اعدل وارحم من هــذا المسيحي . نعم انه اصدر امره بارسال جرجس مشاقه الى صور ولكن اوصى بأن لا يمسوه بعذاب مايتة فقط يتهددون والدته واقرباه بتعذيبه ليدراوا عند العذاب بدفع المال . فأحضروه لصور محبوساً وابتدوا يشيعوا الاخبار على والدته واهله انه سوف ترد اليهم الاوامر بتعذيبه . ثم يقولوا بأن ورد الامر بأن تجلده خمساية جلدة فترسل اليهم والدته انني اشتريها من الخزينة بكذا فيقبلوا منها الدراهم . وبعد ايام يضعون الحبل في عنقه ويمرون به على بيتهم فتسمع زوجته بذلك فتدفع مصاغها فيرجعوا به وانهم يلتمسون له العفو من الجزار فيقبضون المصاغ. ثم بعد مدة يحملونه خشبة ويمرون به على بيتهم قايلين انه (٢٠) صدر الامر برفعه على الخازوق فتدفع والدته مصاغها فيرجعوا به . وما زالوا ينوعون تهديداتهم في كل مدة حتى انهم اخذوا مصاغ العيلة من امه وزوجته واخواته وارملة عمه المتوفي وبناته حتى باعوا كلما عنده من اواني ومفروشات حتى ان اقرباه صاروا يدفعوا عنه وهو يقول لهم لم يبق عندي ما اوفيكم حتى انه صار عليه ديون لاقاربه واصدقايه ما تساوي قيمته نحو عشرة آلاف ريال . فعندما تحقق حال افلاسه

بالكلية صدر الامر باطلاقه . . . .
. . . .

فجرجس المذكور لم يبق عنده مالا ليتجر به . ووالده كونه غنياً لم يعلمه صناعة ليعتاش منها . ولا يستخدمه احد كاتباً احتساباً من غوايل الجزار. فأعطى لوالدته ما حصل له من رئيس العام فقط اخذ لنفسه خمسين غرشاً لمصروفه بالطريق وسافر لبر مصر املا بان يحصل على شغل بواسطة اخوة زوجته هناك ميخاييل وروفاييل وبطرس عنحوري من تجار العمدة . فعندما وصل لعندهم وفهموا مقصده اجابوه لا نقدر نبقيك هنا ولا نعمل لك شغلا فالعوانية (٢١) عند الجزار هم كثيرون فلا بد يقولوا له انك حضرت لمصر لكي تستولي على اموالكم الكاينة بيد اخوة زوجتك فيطلبنا واياك لعنده . وسناجق الغز في هذه البلاد حالا يجيبوا لمطلوبه وتخرب بيوتنا فنعطيك الآن ما يسد ضروريات معاشك وتتوجه تختفي في جبل لبنان لبينما يفرجها الله . فأعطوه الف غرش عبرة عن اربعماية ريال . وبعد تمضية فصل الشتاء بمصر ودمياط وارساله نصف الذي صار معه لوالدته سافر الى بيروت وطلع الى دير القمر وجعل اسمه جرجوره بدون لقب . ولم يخبر اهله عن مكان وجوده . ولم يعرفه احد سوى اثنان صوريان هناك احدهما ابراهيم داود منسي من انسبايه مستخدم عند الامير بشير وثانيهما يقال له جرجس بطرس يشتغل صايغاً . وهو عم ابراهيم الطرابلسي الشجاع جد العايلة الموجودة الآن بدير القمر المتقدم ذكره . وهو صوري الاصل ربي يتيماً ووالدته تزوجت برجل ماروني في طرابلس فتبعها . فجرجوره مشاقه المذكور افتكر ان الباقي عنده مما اعطاه اياه الخواجات عنحوري سيفرغ بالمصروف ويحتاج فيما بعد الى التوسل . فعمد لتعليم الصواغة عند جرجس بطرس الصوري المذكور. فتعلمها بشهر واحد لان طبيعته كانت مايلة لاعمال اليد . فاشتغل صايغاً . وبرع بهذه الصناعة ويوجد للآن من عمل يديه ما لا يصل لعمله صواغ بر الشام .

واما والدة جرجس المرقوم اختشت من الاحتياج عند فروغ الدراهم التي ابقاها لها ولدها . فعملت للعيلة شغلا يعتاشون منه وهو عمل الخبز للبيع . فاشترت حماراً قوياً بعشرين غرشاً جعلته لحمل الحنطة وطحنها في راس العين . واقامت عليه يوسف ابن سلفها بشاره المتوفي قبل زوجها . وولدها انطون يحمل العجين الى الفرن لاجل خبيزه . وولدها ايوب مع يوحنا الابن الثاني لسلفها بشاره يحملون اطباق الخبز على رؤوسهم يدوروا بها الاسواق ليبيعوه . واما هي وبناتها وسلفتها وبنتها يجهزون العجين ويغربلون الحنطة ويصولونها وبذلك اكتفوا

عن التسول . وكان لها ولدين اصغر من ايوب نقولا وقسطنطين فحصل مرض الجدري اماتها واعمى اختها مريم التي بقيت بالحياة عمياء الى سنة ١٨٤٨ وتوفيت بالريح الاصفر بدمشق . وكانت على جانب عظيم من الذكاء المفرط وعمل اليد بأنواع الطبابيخ المتقنة وباقي الاعمال اللازمة للبيوت حتى انها تضم الخيط بالابرة وتخيط قمصانها ولوازمها وتحيك طباق القش وتحكم نقشها بالوان مختلفة وتغزل الخيوط الكتان بغاية التسوية والمناسبة الى غير ذلك من الاعمال المتقنة كأنها بصيرة . فمضى مدة على هذا الحال تقاسي هذه العيلة شدة الفقر بعد ذاك الغنا الوافر . وكان جرجس فارق زوجته بعد ان ولدت له ابنه الاول في ٢٩ تشرين الثاني شرقي سنة ١٧٩٤ ودعى اسمه ابراهيم على اسم جده (٢٢) . وبهذه السنة صمم الجزار على قضاء فريضة الحج وصدق عليه قول الشاعر :

حج اللئيم وضيعت امواله　　وازداد خبثاً بالانام بما فعل
ويظن ان الحج يغفر ذنبه　　فالكلب انجس ما يكون اذا اغتسل

فالتمس من الدولة الاذن فوجهت له منصب ايالة الشام وامرية الحج اضافة على ولاية صيدا فتوجه بطريق الحج وقضى فرضه الديني وبرجوعه امر العساكر بمحاربة لبنان وجعل قايدها سليم باشا احد مماليكه . وكان الضابط على عسكر الاكراد المنلا اسماعيل الشهير الذي تنقاد لطاعته جميع كبراء الاكراد في سورية. كذلك كان بمعية سليم باشا صديقه ابراهيم قالوش من روم كاثوليك صفد الذي هو تربية المشايخ الزيادنة وكان شجاعاً كريماً وعند اللزوم يركب باربعماية فارس من اصحابه . وصارت له الصداقة المتينة من جميع مماليك الجزار . فعند وصوله لحارة صيدا بالعسكر اتاه الخبر بأن الجزار حين قدومه من الحج تقرر له عن خيانة جميع مماليكه واتصالهم بحريمه مدة غيابه فأبعدكم عنه ليسعى في هلاككم وبعد خروجكم من عكه قد قتل جميع من هو داخل بيته عدا عن مملوكة صغيرة عمرها ثمانية سنوات . وكان قتله لهن بشواء وجوههن فقفل باب الدار من داخل ومعه الطواشيه فأشعل فحماً كثيراً في فسحة الدار وكان يمسك الامراة من شعرها ويضع وجهها على الجمر دايساً على رقبتها حتى تموت . وبهذه العملية الشنيعة اهلك سبعة وثلاثين امرأة .

فعندما عرف سليم باشا بذلك صمم على قتل الجزار وتخليص البلاد من شره . فاتفق على هذا مع المنلا اسماعيل وبقية القواد مع صديقه ابراهيم قالوش ورجعوا في طريقهم على مدينة صور ليأخذوا منها لزوم العسكر من مأكولات مع عليق لدوابهم . فمحافظو صور قفلوا باب المدينة ولم يسمحوا لهم بالدخول خوفاً من

غضب الجزار مع انهم قلايل لا يقدرون على المدافعة . فتقدم اليهم ابراهيم القالوش وخاطب كبيرهم بالمعروف وكان بينهما معرفة قايلا ان العسكر لا بد له من الخبز لمأكوله ومن الشعير لعلف دوابه . فاذا شئتم نحن نتوجه بالعسكر نبات في راس العين فقط اعطونا لزوم العسكر من مخازن الحكومة كما اعطيتونا حين قدومنا عليكم من عكه ولا تجعلوا سبباً لهياج العسكر وهجومه على المدينة ووقوع حوادث تضر بالاهالي . فجاوبه انكم قبلا اخذتم بأمر الجزار والآن لا نقدر نعطيكم بدون اذنه ونكون تحت المسؤولية . فعلينا ان نمانعكم بقدرتنا ولو هلكنا. وعندما بلغ الجواب لسليم باشا أمر بهجوم العسكر على البلد فدخلها عنوة ونهب بيوتها وكنايسها وملابس رجالها حتى النساء لم يتركوا لهن سوى السترة الضرورية . وخرجوا لراس العين وعملوا هناك سوقاً لبيع المنهوبات فمن كانت عنده نقود ولم تقع بيد الناهبين استفك منهوباته بالدراهم . ومن (٢٣) لم يبق له شيء استدان من الذي بقي له او من الخارج واستفك من امتعته ما لا يستغني عنه . واما عيال مشاقه فكانوا اشد ضيقة مما عداهم وصاروا بحالة محزنة جداً ولا يوجد لهم معين حيث الجميع تحت المصيبة . فبالجهد وجدوا من يقرضهم القليل استفكوا به من امتعتهم ما هو اشد لزوماً . واما كلما يخص المأكولات لم ينهبه العسكر بل ابقاه لهم لان مخازن الحكومة فيها اكثر مما يحتاجونه . ولم يقتل بهذه الحادثة سوى شيعيان ونصراني لمقاومتهم ناهبيهم .

ثم قامت العساكر ونزلت خارج عكة . فالجزار لم يبق عنده عسكراً لضربهم سوى الطوبجية على الاسوار وبعض انفار الضابطة . فجمعهم واضاف لهم ما وجده من الفعلة في عكه والسوقة والسواس واغراب المصريين باعة الاسماك المجففة والفول المدمس والمش القديم وحملهم الاسلحة واكثرهم لا يعرف كيفية استعمالها . وكان الشيخ طاها ارسل رسولا الى المنلا اسماعيل يستميله . فرجع منه الجواب بأن لا يضرب معه ولا يضربه . وكان هو عمدة العسكر مع سليم باشا . فالجزار حينئذ خرج اليهم بنفسه صحبة العسكر الذي لفقه . وابتدا القتال مع المماليك وجماعة القالوش . واما المنلا اسماعيل فانحاز عنهم برجاله . وبقية ضباط العسكر اقتدوا به ولم يبق ثابتاً مع سليم باشا غير المماليك والقالوش الذي عند مشاهدتهم ما حصل من المنلا اسماعيل وبقية الضباط احتسبوا من انطباق الجميع عليهم مع الجزار فسلموا انفسهم الى الفرار وتشتتوا في الاقطار. فابراهيم قالوش توجه لعند اولاد موسى الحنا في بلاد الحصن مؤملا الحصول على الامنية كونهم نصارى وحكام البلاد وكان صحبته اولاده يعقوب وناصر والياس واسعد . فاقتصى الجزار خبرهم

حتى عرف مكان وجودهم وانهم ضمن ايالة الشام التي تولى عليها غيره . فالتمس من الدولة التولية عليها فولوه . وبالحال طلب من اولاد موسى الحنا تسليم ابراهيم القالوش فسلموه واحضروه لمدينة حماه . وفيها اخبروه ان الجزار طالب قطع رأسه واشاروا عليه ان يحقن دمه بدخوله في دين الاسلام فما ارتضى وقطعوا رأسه . واما اولاده فهربوا والتجاوا الى بكاوات بلاد عكار . فقبلوهم واجروا معهم كل معروف. وكان لابيهم اخ في بلاد صفد اسمه ابو خرما مسكه الجزار وشنقه في عكه . وعندما صارت ولاية صيدا الى سليمان باشا مملوك الجزار حضر لعنده اولاد القالوش ورتب لهم معاشاً وسكنوا مدينة صور .

وفي آذار سنة ١٧٩٦ استدعى جرجس مشاقه عيلته لدير القمر فحضرت لعنده وفي ٢٩ تشرين الثاني شرقي سنة ١٧٩٦ ولد له ولداً ثانياً بينهما سنتين من دون زيادة ولا نقصان وسماه اندراوس لان مولده ليلة عيده . واما اخيه انطون فلم يريد الحضور لدير القمر فتوجه لمصر واستقام في بيت تاجر معتبر يكون ابن عم ابيه للخواجه يوحنا فريج القاطن الآن في مدينة بيروت . فهذا الرجل اعتنى بتربية انطون المذكور بتعليم حسن الخط والحساب ولغتي التركي والايطالياني واخذه معه لاوروبا وغب رجوعه توفي . فحضر انطون لدمياط واقام مدة في محل الخواجه نقولا كحيل . ثم اشترك مع الخواجه بطرس عنحوري اخي زوجة اخيه . وبعد (٢٤) ان تزوج واتاه ثلاثة اولاد توفي وعمره اثنين واربعين سنة وذلك سنة ١٨٢١ .

فصودف نزول الامير بشير لعكا ماراً على صور فوجد حاكمها مقيماً في دار مشاقه كونها صارت في تملك الحكومة . فتذكر ابراهيم مشاقه وسال عن ابنه الكبير اخبروه بكلما جرى عليه وانه مع العيلة في دير القمر يشتغل صايغاً فتاسف عليهم . وعند رجوعه لدير القمر طلب جرجس مشاقه لمواجهته فكان عنده خوفاً عظيماً حيث كان الامير في عكا . وافتكر بان الجزار قد طلبه من الامير الذي ما كان يسال عنه قبلا مع انه في اكثر الايام يمر تحت طيقان مجلسه . ثم راجع فكره بانه لربما الامير نظر شيء من اعمالك في الصواغة ويريد عمل شيء منها . فتوجه مع الرسول محتاراً وبوصوله لعند الامير قبل يده فاستقبله بالبشاشة فسكن روعه ثم أمر له بالقهوة فاطمان فكره . ثم صرف الخدام الوقوف امامه وطلب منه شرح كلما وقع عليه فقص على الامير بكلما حصل له وانه ما تخلص حتى ذهب كلما يملكونه وصار عليه مبالغ كذا من الديون دفعها عنهم اصدقاؤهم لاجل خلاصه وانه توجه لمصر فخافوا ان يقبلوه ولذلك التجى لتحت انظار سعادته

وتعلم صناعة الصواغة يشتغل بها ليحصل على المعاش الضروري لعيلته . فالامير ظهر منه مزيد الكدر وطلب ان يريه خطه فأراه اياه فقال له كن مرتاح الفكر وانشاء الله ستحصل على الراحة . فمن الآن كن في خدمتي كاتب يدي بينما انظر لك وظيفة تنفعك اكثر ومن الآن رتبت لك ثلاثة آلاف غرش بالسنة مع خمساية غرش في كل عيد كبير ومرفع وخمساية غرش ثمن كساوي مع ثلاث غراير حنطه بالسنة تصل لبيتك . واما الديون المتأخرة عليك لصانعي المعروف معك فهذه لازم وفاها لاربابها وانت لا تقدر على دفعها فاسعى بتقسيطها وانا ادفعها عنك . وآمر بأعطايه كسوة لايقة مع زخيرة لبيته . حينئذ قبل يده وخرج مسروراً وثاني يوم لازم خدمته .

ان راحة جرجس المذكور لم تطل بسبب اعمال الجزار في خراب الجبل وتبديل حكامه ووضع المغارم عليه . فصودف انفراد الامير بقليل من خواصه في ساحل بيروت بين عساكر الجزار فألقوا القبض عليه وعلى اخيه الامير حسن وعلى الشيخ بشير جنبلاط واخذوهم لعكا . فوضعوهم بالقيود الحديدية داخل السجن . وبعد مضي نيف عن عشرين شهر رضي الجزار على الامير واطلقه من السجن معمن معه . وفوض اليه حكومة لبنان على شرط القيام بكلما صار مترتب على الجبل من الدفايع التي تقدمت منه وممن تفوضت اليه حكومته قبلا وان يوضع ولده الامير قاسم رهناً عنده . فأحضر ولده الامير قاسم وطلع لدير القمر والشيخ بشير لمحله مفوضاً اليه احكام بلاده الشوفين مع الحاق اقليم جزين والريحان واقليمي الخرنوب والتفاح . والشيخ المذكور كان على غاية ما يكون من الاستقامة وصار عمدة الامير عليه وكلاهما يعتمدا في الادارة على رأي الشيخ نجم العقيلي القاطن قرية السمقانية الكاينة بين دير القمر والمختارة . (٢٥) وهو من عمدة عقال الدروز وشهير في لبنان بالتقوى وجودة العقل واصابة الرأي . حتى انه في ايامه جرى تحريكاً للدروز ليعملوا حركة على الامير والنصارى كما تكررت في هذه السنين القريبة فعملوا حجة الاتفاق بين كبرايهم من مشايخ وعقال واتوا بها للشيخ نجم لكي يضع بها امضاءه وختمه . فأبقى الحجة عنده ليتبصر بها جيداً ثم توجه لعند الامير سراً وسأله عما عنده من اخبار الحركات في البلاد . اجابه انني ما علمت بشيء . فقال له انه موجود حركة كبيرة ولكن يلزم استحصال الامنية لجميع الداخلين بها من القصاص الذي يستوجبونه عدلا لان هذا اوفق للصالح . وحينئذ اطلع سعادتك على الواقع . اجابه الامير ليس عندي شك في استقامتك وصوابية رأيك . فليكن ما طلبته وتطلبه . فحينئذ اطلعه على الحجة

وامضاواتها وكرر الرجا بكتمان القضية حيث لو عرفوا اصحابها بان الامير عرفهم فيضطروا لعمل الفتنة حيث لم يبق لهم امنية على انفسهم . ومن ثم قال للمعتمدات انني تأملت في مضمون الحجة وجدتها الواسطة القوية لخراب طايفة الدروز دون النصارى لانهم في نفس هذا الجبل هم اكثر منا اضعافاً فضلاعن كثرتهم بالمملكة العثمانية فهم نصفها ولهم بالخارج جملة ملوك اقوياء . فلو اقتدرنا على المحال واهلكنا جميع نصارى لبنان فهل يمكن نفس الدولة العلية السكوت عنا اذا فرضنا ان ملوك النصارى تهمل التعدي عن ابناء دينهم . فبمن ندافع عن انفسنا . اتفتكروا بان السبعة آلاف رجل الموجودة منا في لبنان يكون منها اكثر من خمسة آلاف رجل تصلح للقتال . . . .

. . . .

فـماذا نقدر ان نعمل مع الاربعين الف نصراني الموجودة في الجبل فضلا عن غيرهم . فيلزم الاحتراز من السقوط في الفخ الذي سقط فيه امثالنا. فاذا لم تحترزوا وتكونوا مع النصارى كعيلة واحدة فمن الآن اخبركم بأنني مع كل من يقول قولي نكون مع النصارى ضد مقاوميهم. فمن ارشاد هذا الرجل الحكيم تلاشى تدبير اصحاب الحركات وبطل عملهم . واضحى الجميع كعيلة واحدة بالممنونية لعمله الذي حفظ البلادمن الخراب. فلو وجد مثله اثنان في عصرنا من الدروز والنصاى لحفظوا بلادهم من المصايب التي التحقت بهم في حوادث سنة١٨٤١ وسنة ١٨٦٠ حيث انتهت بخسارة الدروز الدايمة بفقدهم الاستقلالية التي كانت لهم لكل امير وشيخ على بلاده.نعم ان خسارة النصارى كانت عظيمةفي مالهم ورجالهم لكنهم استعاضوا عن المال من خزينة الحكومة واما الرجال فاذا لم يموتون بالفتنة كانوا يموتون تدريجاً ويجدغيرهم . وقد ربحوا بانه كان يحكمهم امير منهم ليس له ادنى سلطةعلى الدروز بل هم تحت حكم امير درزي فصاروا مع الدروز تحت حكومة وزير مسيحي من طرف السلطنة السنية يتصادق على توليته من ملوك النصارى العظام وكثير من البلاد التي كان يحكمها بعض مشايخ الدروز قد رفعت عنها (٢٧) يدهم وتقرر دوامها تحت يد مدير مسيحي . ودير القمر قاعدة لبنان التي كانت تبعاً لمشايخ ابي نكد ومركزاً لسكناهم صارت تبعاً لمدير مسيحي مع منع الدروز من التوطن بها . وبيوتهم مع بيوت المشايخ المذكورين ومشايخ بيت القاضي وبيت ابي هرموش مع محلات عبادتهم قد دثرت ونقبت اساساتها . فهذه هي نتيجة التصرف بالحمية الجاهلية وعدم التبصر بالعواقب .

ولنرجع الى الامير بشير فحكم البلاد . وكان كاخيته في اشغال الرعايا

وتحرير الاوامر لداخل البلاد الشيخ ابو خطار سلوم الدحداح الذي هو جد المطران نعمة الله الحالي على كرسي مطرانية الموارنة بدمشق . وهذا اول مشيخة بيت الدحداح بكتابة الامير لهم : ايها الاخ العزيز. ولما كانت البلاد واهاليها ومشايخها حتى امرايها من نصارى ودروز منقسمة الى فريقين احدهما جنبلاطي رأسه بيت جنبلاط والآخر يزبكي ورأسه بيت عماد وكان الامير يوسف يميل الى اليزبكية واما الامير بشير يميل الى الجنبلاطية وعمل جهده بايجاد الالفة بين الفريقين فما امكنه يوفق بينهما. بخلوص قلبي لان كبراء الجنبلاطيين اصحاب ثروة واليزبكيين اكثرهم لا يقدروا على المعيشة اللايقة بمقامهم الا يبسط يد الامير الحاكم لمساعدتهم فلكونهم كانوا عضداً للامير يوسف وهكذا بعد مقتله كان ميلهم لاولاده القاصرين الذي صار وصياً عليهم الشيخ جرجس بن باز ابو شاكر من دير القمر وهو ابو داود بك باز مديرها الآن فكان الامير بشير لا يركن الى صداقتهم وشديد التمسك بالشيخ بشير جنبلاط لاستقامته وغناه . واما مشايخ بيت ابي نكد فهم فرقة لوحدها فتارة يميلوا مع جنبلاط فيقوى على عماد وتارة يميلوا مع عماد فيقوى على جنبلاط . ولذلك في الجبل يقولوا ان بلادنا حمل جنبلاط ويزبك واما نكد فهو فردة فاذا اضيفت لاحد فردتي الحمل ترجحها عن الاخرى. فوجود هذا الانقسام كان لا يدع الجبل يرتاح من القلاقل مدة طويلة والجزار دايماً يلقي الخلاف بين كبرايه ليتمكن من اذلال الجميع . وهذا هو دأب دولة الاتراك.

ولنرجع الى جرجس مشاقه فالامير جعله اميناً على صندوق المالية ويسمونه صرافاً . ففي سنة ١٧٩٩ اتى بونابارته بعسكر فرنساوي من مصر وحاصر عكة مدة شهرين وبمساعدة مراكب الانكليز ضدهم وانقطاع المدد عنهم اضطر للقيام عنها . فالامير بشير حال كونه استعمل غاية الحيادة عن مساعدة الفرنساويين فالجزار القى عليه التهمة بانه كان يقدم لهم ذخاير الدعوى التي ليس لها اساس فقط كان يوجد اناس من الجبل وغيره يبيعون مسكرات على المعسكر لاجل ربحهم الخاص بهم . فالجزار اظهر غيظه على الامير حتى اضطره للقيام من الجبل . فقام (٢٨) ومعه جميع خدامه من جملتهم جرجس مشاقه الذي وضع عيلته في قرية رشميا . وقام معه من يخصه كالشيخ بشير جنبلاط ومن يلوذ به من كبراء عشاير الجنبلاطية وتوجهوا الى بلاد الحصن وعكار وكانت تابعة ايالة الشام . وحينها حضر الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا المعدني بالعساكر السلطانية الى قلعة العريش ليطرد الفرنساويين من بلاد مصر فالامير بشير حرر كتاباً الى الكومندا سميث قايد العمارة الانكليزية واخبره عن عبوديته للدولة العلية

وصدق خداماته وعما عمله به الجزار بغير الحق وانه يلتمس مرحمتها بانصافه فحضر الكومندا بمركبه الى قرب طرابلس وطلب الامير لمواجهته فحضر لعنده ببعض خدامه . وغب المواجهة اصحبه معه لمقابلة الصدر الاعظم في قلعة العريش . فقابله به وحصل الامير على الاكرام ووعده بارجاعه لبلاده حاكماً كما كان . فرجع الامير لعند جماعته في عكار . وبعد ايام وردت له الاوامر من الجزار بان يرجع لبلاده حاكماً عليها وذلك سنة ١٨٠٠ فرجع واستولى على البلاد .

وفي هذه السنة في ٢٠ آذار غربي نصف نهار الخميس الموافق ٢٣ شوال سنة ١٢١٤ هجرية ولد لجرجس مشاقه ولداً بقرية رشميا قبل رجوعه من عكار ودعوا اسمه ميخاييل وهو محرر هذه النبذة . وبعد رجوع الامير بشير لدير القمر ورواقة الامور ارجع جرجس مشاقه عائلته لدير القمر . ولكن لم يبرح الجزار يلقي الخلاف بين الامير بشير واولاد الامير يوسف المتوكل عليهم الشيخ جرجس باز الشهير بالكرم ولطف الاخلاق مع الفروسية والشجاعة . وكانوا يقيسونه في الحرب بخمسماية فارس . فاستمال اليه قلوب الناس بالكرم ومكارم الاخلاق وكان يعضده بني عماد معمن ينتمي اليهم من المشايخ . وهكذا الامير بشير يعضدونه الجنبلاطية . وبذلك كانت المحاربة بين الفريقين لا تفتر . ومشايخ النكدية تارة يتفقوا مع الفريق الواحد وتارة مع الفريق الآخر . فيترجح (الذي) يتفقون معه . فعندما ظهر للامير بشير ان الغلب كاد يتحقق عليه وان عساكر الجزار مع اولاد الامير يوسف بجهة ساحل بيروت يقاتلونه بقوة لم يعد في امكانه دفعها بالقوة فاستصوب المصالحة معهم وارسل سراً الى الشيخ جرجس باز يقول له الى متى هذه المقاومة التي نهلك فيها رجالنا ونخرب بلادنا . ولنفرض انه حصل لكم تمام الانتصار ودخلتم البلاد عنوة مع العساكر الاجنبية المستبيحة الدم والمال والعرض ممن نحاربها خصوصاً اذا كان درزياً او مسيحياً افهل يعود في امكانكم صدها عن سلب اموال البلاد وتفضيح حريمها وسفك دماء رجالها وتكونوا المسببين لبلادكم بوقوع هذه المصايب عليها . وهل تعود الرعايا تريد النظر الى وجوهكم . فيلزم تنظر في العواقب وتفيدني عن رأيك وعزمك بهذه القضية المهمة . فكان جوابه الى المعتمد انني اكره كلما يسوء بلادي كما يكره ذلك سعادة الامير . والذي اضطرني لذلك واجب ذمتي نحو اولاد عمه الذي صرت وصياً عليهم . ومع هذا تقول لسعادة الامير انني بهذه الليلة عندما يسترني الظلام احضر لعنده بنفسي للمكالمة بهذه القضية . وارجو بانه يصير وجهاً مناسباً لنهايتها على وجه مرضي الى الفريقين . (٢٩) ثم عندما صار الظلام حضر لعند الامير وحده وقبل يده

عند المواجهة وشرعا بالمكالمة بافتتاح كلام الشيخ جرجس باز انكم يا آل شهاب انتم اسياد جميع سكان لبنان من رفيع ووضيع فلا نشك في غيرتكم الحسنة نحو جميعنا مسيحي كان او درزي ونحن رعيتكم . واذا استخدمتم احدنا وجب على ذمته ان يخدمكم بكل صداقة ويفديكم بكلما هو عزيز لديه ويسفك دمه فيما يرضيكم . ولا يخفى سعادتكم بأنني احد الرعايا من دير القمر والامير يوسف استخدمني فخدمته بصداقة وهو قد احسن الي بأكثر مما استحق . وهو الابن الاكبر للامير ملحم الذي هو الابن الاكبر للامير حيدر الشهابي الذي تولى على لبنان بعد ابن خالته الامير بشير الذي توفي بلا ولد . وقد استوليا على الجبل بوصية من خالهما الامير احمد المعني آخر امراء بيت معن . فكان للامير يوسف حقاً بوراثة حكم الجبل اكثر من باقي اقربايه . فالجزار قد غدر به وقتله وله ثلاثة اولاد قاصرين تسلموا لوصايتي ويجب على ذمتي الجهد في صوالحهم والقيام بطلب حقوقهم الواجبة لهم بالارث عن ابايهم . فسعادتك استوليت على حقوقهم ولم تترك شيئاً يسد احتياجاتهم . فهل اكون ملام على الصدق في خدامتهم . ونعم ان هذه المدافعة معهم تجلب ضرراً على بلادنا مما لا نرغبه . ولكن اذا نظرنا في اسبابه تراها عدم التفاتك لراحة اولاد عمك الذي لابيهم عليك حق التربية . وكونه اختصك دون اخوته وابناء عمه الاقرب اليه منك . وسعادتك يلزم تمدح غيرتي على صوالح ابناء عمك الذين يقربون اليك دوني . ومع ذلك ها انني حضرت بين يديك وحدي متكلا على شهامتك لكي اعرف ما يحسن لديك لحسم هذه الشرور حتى نسلك بموجبه . فأجابه الامير ان كلامك جيد وهو مقبول عندي . فالذي اراه موافقاً لدوام الراحة وقطع اسباب النزاع بان تعطى بلاد جبيل لاولاد الامير يوسف ويكون اخوك الشيخ عبد الاحد كاخية عندهم وتبقى لي حكومة دير القمر وما يتعلق بها . وانت تقيم بدير القمر كاخية عندي . واما ارباب المقاطعات من يزبكي وجنبلاطي ونكدي فكل منهم يبقى متصرفاً في البلاد التي تخصه حسب عادته . فارتضى بذلك الشيخ جرجس باز وطلب من الامير العهد بذلك وعدم النكث . فعاهده على الانجيل والقرآن بانه لا ينكث عهده معهم ولا يغدر بأحد منهم . حينئذ رجع الشيخ جرجس الى المعسكر واخذ اولاد الامير يوسف وكل من يخصهم وحضر بهم لعند الامير ليلا . فعسكر الجزار عندما اصبح لم يجدوا عنده احداً من الامراء والمشايخ وعرف اتفاقهم مع الامير بشير فرجع على عقبه . وحصلت الافراح عند عموم اهل الجبل بوقوع هذا الصلح وتوجه كل لمحله الذي تعين له . واستعدوا لمدافعة عسكر الجزار عنهم .

فهو لم يحرك لهم ساكن فاستكنوا (٣٠) .

ولنورد هنا حادثة من اعمال الجزار . انه بعد قتل السكروج مديري خزينته استحضر من دمشق رجلا عاقلا من معتبري يهودها يقال له المعلم حايم فارحي واليهود يسمونه الحاخام حايم لانه كان يقرأ ولفظة يقرأ في اصطلاحهم تفيد انه يعرف كتاب التلمود جيداً . وهذا الكتاب كبير جداً مقسوم الى اكثر من ثلاثين مجلداً اشتغل علماء اليهود بتأليفه مدة تزيد على اربعة اجيال نصفها كان قبل التاريخ المسيحي . وهو يحتوي على تفسير الكتب العهد القديم المقدسة وآراء علمايهم في معانيها مما اختلفوا واتفقوا فيه وبيان شرايعهم واحكامها . وهو كتاب معتبر ولئن كان يوجد فيه بعض قضايا تمجها الطبيعة الانسانية ولا تقبلها العقول السليمة التي لسنا بمعرض ايضاحها فلا يقال عنه الا كتاب يستحق الاعتبار لما حواه من المباحث الدقيقة . فالمعلم حايم كان قليل النظير في حسن اطباعه ومكارم اخلاقه وقوة ادراكه في تصرفاته بالذي يناسب او لا يناسب في امر ما. فاستخدمه الجزار مدبراً لاعمال خزينته وكان احياناً يزعل عليه بغير ذنب ويسجنه ثم يرضى عليه ويرجعه لوظيفته اذ يرى احتياجه لحسن رايه وتدبيره حتى انه في زعله عليه قطع انفه ثم اذنه اليمنى ثم قلع عينه اليمنى فهذه مع اعدام الحياة كانت اكثر قصاصاته . وكان الجزار يتاخر عن دفع الاموال المتوجبة عليه لجانب السلطنة ويعتذر عن الدفع بكونه محتاج لتعيين العساكر لاجل ادخال الجبل في الاطاعة فسئمت الدولة من تعللاته الطويلة وكتبوا له ان المدة طالت ويظهر انك غير قادر على تمهيده فلذلك صممت الدولة عل ارسال وزير مقتدر بعساكر كافية لاخضاع لبنان لسطوتها . فحرر الجواب انني بعد ايام قليلة ان شاء الله اقدم البشارة بفتحه حيث ظهر عليهم الضعف عن المقاومة وانفلال منهم كثير عن مواقع الحرب . وقد منعنا وصول الذخاير اليهم من البقاع والسواحل وهم لا يقدرون على المعيشة بدونها لان الجبل اراضيه قليلة بالنسبة لعدد سكانه . وبعد مدة وجيزة حرر للدولة بشارة كاذبة صحبة زوج من التاتار بانه فتح الجبل فوجد فيه من السكان النصارى مابة وعشرون الف رجل ومن الدروز ستون الف عدا ثلاثين الفاً من الاسلام الشيعة ومثلها من اهل السنة فاتحفوه بسيف مجوهر ومدحوه على همته . ان المعلم حايم كان محبوساً ولم يعلم بتدبير الجزار المشروح . فبعد مدة ارسلوا له من الاستانة اوراق خراج النصارى المعتادة وزادوا عليها مابة وعشرون الف ورقة برسم نصارى لبنان . فاستحضر المعلم حايم لوظيفته وطلب رأيه بتدبير هذه الواقعة . اجابه الآن يجب دفع ثمنها من

خزينتك تصديقاً (٣١) لما اعرضته للدولة عن فتح الجبل وعن كمية النصارى فيه . وعقيب ذلك تتدبر في رفع هذه الزيادة . فدفع ثمن هذه الاوراق وبعد اشهر ارسل بشاره للدولة بان نصارى لبنان دخلوا في دين الاسلام . فعند دخول السنة الثانية ارسلوا له اوراق خراجها مزادة كالماضية فارجع الزيادة بقوله ان نصارى لبنان تقدم الاعراض عن دخولهم في دين الاسلام وارتفعت عنهم الجزية شرعاً . فهكذا كانت امور الدولة بذاك الوقت مهملة من التحقيقات على صحة ما يعرضه لها ماموروها .

ولنرجع لذكر حوادث الجبل . ان مشايخ عماد وجنبلاط اتفقوا على تدمير المشايخ النكدية على انهم السبب الاكبر في ايقاع الاختلاف بين جنبلاط وعماد لانهم تارة يتحدوا مع جنبلاط وتارة يتحدوا مع عماد ويكون ذلك داعياً لوقوع الفتنة بينهما . وكان الامير قد (صغرت) نفسه من تصرفاتهم لانه مقيم بدير القمر وهي كرسي الحكومة واما رجالها وحكمها الخصوصي فهو للمشايخ النكدية . فلو اذنب انسان في باب سرايا الحكومة وهرب لقاطع مجرى مياه الشالوط الفاصل بين السرايا وبيوت المشايخ فلا يسمح لاتباع الامير بلحوقه لقاطع الماء ومسكه . فارتضى الامير فيما عزم جنبلاط وعماد على عمله . ففي ذات يوم اجتمع المشايخ المذكورون عند الامير والنكدية لم يشعروا فيما تهيأ لهم فوقع القبض على ستة اشخاص من كبرايهم الذين يخشى باسهم فاعدموهم الحياة وكان من جملتهم الشيخ قاسم واخيه الشيخ سيد احمد جدي قاسم بك وبشير بك الموجودين الان . فهذه العملية جعلت زيادة تعلق لنصارى دير القمر بالشيخ جرجس باز . فالشبان الجهلة منهم كانوا يتعدون احياناً كثيرة على كثيرين من الدروز الذين يحضرون لقضاء مصالحهم بدير القمر . ويعاملوهم بالشتايم وانواع السفاهة التي يتحاشا الدروز التلفظ بها . فكان المهانون يتشكون لكبرايهم مما يجري عليهم فيعرضوا الشكوى للامير فيحبس المتعدي لاجراء قصاصه فأهاليه تلتجي للشيخ جرجس باز فيرفع عنه القصاص واحياناً يطلق محبوسين في سجن الامير بدون استئذانه . فامتدت سطوة الشيخ جرجس باز حتى ان الامير ومشايخ الدروز جميعاً ضاق صدرهم من امتداد يده فاتفقوا سراً على اعدامه مع اخيه عبد الاحد في جبيل بيوم واحد . وكان الامير حسن اخو الامير ساكناً في قرية غزير وكثير التشكي من عبد الاحد . فأظهر الامير غيظه على مشايخ بيت عماد ووضع عليهم حواليته بطلب اموال حال كونهم لا يقدرون على دفعها وذلك عن اتفاق سري معهم ليكون ذلك سبباً ظاهراً لتوجههم الى جبيل يلتمسوا من الشيخ عبد الاحد التوسط

عند الامير وصفاوة خاطره عليهم ويغدروا (٣٢) به . فتوجه المذكورون . واما الشيخ بشير جنبلاط حضر لعند الامير ببعض خدامه كعادته واكمن كثير من رجاله في ظهور السمقانية مقابل دير القمر احتساباً من قومة رجالها ضد الامير . واوصاهم اذا سمعوا صوت البارود من السرايا حالا يهجموا على دير القمر . ففي اليوم المحسوب لدخول مشايخ بيت عماد الى جبيل بعد الظهر ارسل الامير احد اتباعه يدعى الشيخ جرجس باز لمواجهته . فالشيخ كان نايم . فأيقظوه . فعادته ان يشكل خنجراً في زناره . فتلك الساعة استثقل حمله وكان يتوجه بجملة من الاتباع ماراً في الميدان . فيتبعه من الاهالي كثير من الشبان . فذاك اليوم لم يأخذ معه غير خادم واحد بدون سلاح وخرج من باب السر في قفا بيته ودخل في انطوش رهبان الموارنة حيث يوجد لدار مجلس الامير باب سر ينفذ اليه . فدخل منه وكان الامير جالساً في حجرة فدخل عنده وجلس كعادته . وبعد جلوسه نهض الامير كأنه ليقضي حاجته وخرج من الباب واغلقه خلفه وكان داخل الحجرة مخدعاً مختفي فيه عشرة رجال من عيلة زين الدين وظيفتهم حبس المجرمين واجراء القصاصات . فحالما خرج الامير هجموا على الشيخ جرجس وخنقوه وطرحوه في دار انطوش الموارنة وهكذا توجه مأمورون احضروا يوسف آغا الترك الروم الملكي من بيته وقتلوه لانه كان من المعتمدين عند جرجس باز . واما الامير اختشاء من عدم نجاح العملية في جبيل ركب حالا بجملة من اتباعه قاصداً جبيل . وبوصوله لمكان يقال له قبر شمون لاقاه رسول بكتابة من جبيل يخبروه بقتل الشيخ عبد الاحد والقبض على اولاد الامير يوسف من بعد المجالدة وقتل بعض انفار من الطالبين والمطلوبين . ثم بوصوله الى جبيل امر بطفي اعين اولاد الامير يوسف فتولج بهذه العملية قاسم بن العرب صالح احد عبيد والد الامير . فأطفي ابصارهم بعملية كلية القساوة . فكان يحمي قضبان الحديد ويدخلها في عيونهم . واعاد لهم هذا العمل الشنيع ثلاثة مرات في يوم واحد . وكان ذلك في شهر آب سنة ١٨٠٨ .

ولنرجع الى الجزار فانه توفي سنة ١٢١٩ الموافقة سنة ١٨٠٤ مسيحية على فراشه اذ كان عمره اربعة وثمانون سنة . وكان فرحاً عظيماً عند جميع رعايا ايالة صيدا بموته وتخلصهم من ظلمه . وحضر من طرف السلطنة راغب افندي الذي بعده صار والياً على حلب وذلك لضبطه متروكات الجزار لانه كانت قوانين الدولة وقتئذ انها تأخذ كلما يتخلف عن مستخدميها من املاك واموال وامتعة . فحرر التركة مع سندات الاموال التي كان يحررها على امراء ومشايخ

البلاد خارجاً عن الاموال الاميرية وذلك حين توليتهم . ثم يعزلهم قبل استحقاق دفعها . فهذه الديون الظالمة حسبت من حقوق الدولة وعندما وجدوا وفرتها وعدم امكان تحصيلها فحملوها على رعايا بلاد اولئك الامراء والمشايخ مقسطة على عدة سنوات . فجبل لبنان كان يدفع المال مضاعفاً . فالمال الواحد (٣٣) يبلغ اربعماية كيساً . ويوجد في الجبل بعض اقلام ميرية نظير مال تعداد الماعز واملاك اميرية ومال جوالي[١] على النصارى ومال فريضة على الدروز وهذين المالين يتوزعا على رؤوس الرجال بمنزلة الجزية ويعفى منه بعض البلدان كدير القمر ومحلات غيرها فيجمع من هذه الاموال مطلوب خزينة وزير الايالة . وما زاد يكون لمعاش الامير وخدامه . فالقسط الذي توجب على لبنان من مطلوبات الجزار يبلغ ستة اموال ميرية فتسمت طرحاً فصارت الاهالي تدفع مالين الميري وستة (او سنة) اموال الطرح الذي لم يعفى منه احداً سوى دير القمر لانه كان مرتب عليهم خدامات خصوصية للحاكم لا يلتزم بها غيرها من البلدان . ولما كان القايض له من الاموال الميرية لا يقوم بمصارفه فاشترى من الدولة ارضاً من قضاء البقاع اسمها الحلة الغربية بالقرب من بلدة زحلة باسم اولاده على شروط المالكانه التي اذا مات صاحبها قبل ان يفرغها لاولاده ام لغيرهم ترجع محلولا للدولة وتبيعها ثانية بالمزاد ومهما بلغ فأولاد صاحبها مقدمون على غيرهم في مشتراها . فعمر بهذه الارض قرية سماها المعلقة . وكذلك اخذ من والي الشام ارضاً واسعة يقال لها التل الاخضر بموجب امر وزيري وحجة شرعية من محكمة دمشق بان يصلح اراضيها ويعمرها فتكون ملكاً له. واذا تعدى عليه احد الولاة فيما بعد بأخذها منه يحق له ان يأخذ منه كلما صرفه على اصلاحها وتعميرها . وهكذا صار للامير محلات في اراضي البقاع ايرادها يكفي لسد نقص ايراده من الجبل عن مصارفه . فتل الاخضر قد صرف عليه مبالغ وافرة حتى ازال منه مناقع المياه وفتح لها الخنادق لتصريفها وقطع من الاراضي ما كان بها من الاشواك والنباتات البرية وعمر بيوتها لسكنى فلاحيها فصارت من القرايا المعتبرة .

فبعد موت الجزار توجهت ولاية صيدا على احد مماليكه سليمان باشا . وهو كرجي مسيحي ارثوذكسي الاصل . فخطف اذ كان صغيراً وبيع للمسلمين ووصل الى الجزار . فهذا الانسان كان حليم الطباع بسيط القلب محباً للسلامة يكره كل شر متواضع يمقت الكبرياء ويعمل جميع اعماله بما يوافق الشريعة وامر الدولة العلية يعامل جميع الرعايا بالتسوية والانصاف من مسلم ومسيحي ويهودي

(١) الجوالة بفتح الجيم النقاية وجوالة المال نقايته وخياره . والجوالة عند العامة الجزية .

ودرزي ونصيري فلا يسمح لاحد من الرعايا والعسكر والخدام ان يتعدا على آخر بشيء . وكان له صديقاً ورفيقاً كالاخ من مماليك الجزار جركسي الاصل اسمه علي باشا برتبة ميرميران احضرها له من السلطنة وجعله كتخدايه . فاستحضرا المعلم حايم فارحي الاسرايلي المتقدم ذكره وقالا له نريد استخدامك لمعرفتنا بصداقتك في خدمتك الى الجزار . اجابهم نعم انني خدمته بكل صداقة لكن مكافأته لي كانت بتشويه خلقتي واعدام عيني اليمنى ولم يكن لي ذنباً سوى تقديم النصيحة بالتوقف عن بعض اعماله الموجبة لاتعابه وتخريب بلاده . فان كان عزمكم ان تسلكوا في طريقه فارجوكم ان تعفوني من الخدمة وتسمحوا لي بالاقامة في بيتي او بالتوجه لبيت اهلي في دمشق . فكان الجواب من سليمان باشا انني من صميم قلبي اكره كل عمل يضر الناس ويغيظ الله واطلب راحة البلاد ورضى (٣٤) الدولة العلية بدفع الاموال المرتبة لها سنوياً مع كمية الذي تقرر لها بدلا عن متروكات الجزار ولا اطلب منك لنفسي سوى الف ربع ذهب فندقلي توضع في جيبي يوم الجمعة لكي اوزعها على الفقراء حين خروجي من الصلاة . واما مصارف بيتي وكسوتي هذا مفوض لتدبيرك كما انني افوض لك جميع الاعمال بالايالة . فلا اصدر امراً بشيء الا بتدبيرك واعاهدك على ذلك والله يشهد على عهدي ايضاً باني لا اغدر بك ولا اخالف رايك بشيء فاسعى باعمالك في كلما تراه حسناً . اجاب المعلم حايم ان عمار البلاد يلزمه العمال ذوي الكفاية بادارة المصالح الموجبين بها عفيفي الانفس عما بايدي الرعايا لايميلوا عن الحق وان الرعايا تكون امينة على انفسها واموالها من حكامها الملتزمة بتامينها وصيانتها من اعمال الاشقيا وان المأمور بخدمة ما اذا خدم بالصداقة يكون له حسن المكافاة والترقي واما اذا تحقق عليه عدم الاستقامة في عمل من اعماله او تناوله رشوة على مصالح الحكم او مصالح الرعية فيقاصص ولا يستخدم فيما بعد بمصلحة من اشغال الحكومة مدة حياته . ثم المشايخ المتاولة النازحون من اوطانهم بعد استيلاء الحكومة على بلادهم وهم على الدوام يسلبون راحة الاهالي بالتعدي على القرايا وقطع الطرقات وسلب المارين بها وقتل من يمانعهم وتضطر الحكومة لتوظيف عساكر خصوصية للفحص عنهم واهلاك من يجدوه منهم وكثير ما يظفرون بالعساكر ويقتلون منهم بالجملة . ان ما يسببونه من الخساير على الحكومة والاهالي ينوف على نفع الخزينة من البلاد المأخوذة منهم . هذا وانهم مضطرون للاعمال المغايرة لكي يستحصلوا ما يعيشون منه. فلذلك كان الاوفق تأمينهم ويعطى لهم معاشاً وتكون سكناهم خارجاً عن بلادهم لاجل منع القلاقل . ثم قال هذا وان اعمال

والي صيدا صارت ثقيلة مما ترتب عليها للدولة بدلا عن متروكات الجزار التي لم يكن بها شيء من النقود بل جميعها اشياء تلزم لمهام الولاية . فالاموال الاميرية والرسومات بالكاد تكفي لمصارف الولاية . ودفع المال السنوي المرتب عليها لجانب السلطنة . فاذا يلزمنا استحصال ما نسد به ما يبقى علينا . فلو اردنا ان نوضعه على الرعايا بأي وجه اردناه فيثقل عليهم حمله . وعوضاً عن قصدنا بعمل راحتهم نجلب عليهم ارتباكات جديدة . فيلزم ان نوفر المال على الرعايا ونحمله على الاجانب . ويكون ذلك بان بيع الغلال والزيت والقطن للاجانب فقط في نفس عكا يكون مخصوصاً واما الاهالي فيأخذون لزومهم من يد الفلاح بدون معارض ويتعين مأمورين ثقاة لهذا العمل . ففي كل يوم في آخر النهار كلما يفيض من واردات هذه الثلاثة اصناف عن لزوم الاهالي يؤخذ من اربابه ويدفع لهم اثمانه حسب السعر الذي بيع به في ذلك اليوم . والذي يؤخذ يوضع بالمخازن ويباع من يد الحكومة (٣٥) لمراكب تجار الاجانب بالاسعار العالية حسب الامكان . فاجابه الوالي سليمان باشا وكتخدايه علي باشا بانه قد تفوض كلما يتعلق باعمال الولاية لرايك وتدبيرك . فاعمل ما تراه موافقاً واكتب الاوامر اللازمة والوالي يمضيها. فتقررت حكومة لبنان للامير بشير الشهابي واعطي له امتياز الالقاب في الكتابة بان الوالي يلقبه بلفظة ولدنا ويرفع اسمه فوق السطر اجلالا له ولا تكون الكتابة له كخادم بل هكذا (افتخار الامراء الكرام مراجع الكبراء الفخام ولدنا المكرم الامير بشير الشهابي زيد مجده غب التحية والتسليم بمراسم الاعزاز والتكريم والسؤال عن خاطركم بكل خير المنهى اليكم ما هو كذا وكذا) .

ثم اعطيت حكومة طرابلس لمصطفى آغا بربر واصله من القلمون التابعة لطرابلس . كان في الاول من خدام الامير حسن اخي الامير بشير . فهذا الرجل بحسن ادراكه وشجاعته توصل الى المناصب المعتبرة وحاز على الاعتبار عند الوزراء والرعايا . واعطيت حكومة بلاد يافا وغزه الى محمد آغا ابي نبوت احد مماليك الجزار وبقي حاكمها الى ان طمح بالاستقلال فيها . وعندما تحقق ما في نفسه الى سليمان باشا ركب عليه بالعساكر فهرب الى مصر . ثم توجه للاستانة وفيها حصل على التقدم لرتبة الوزارة . ثم ارسل حاكماً على بلاد بشاره ابراهيم آغا الكردي من اهل الصلاح ونوادر الاكراد . وهكذا ارسل لكل محل حاكماً يناسبه مع تفهيم الجميع مضمون القرار ان المستقيم لا يعزل من عمله الا للزوم تقليده وظيفة اعظم وان من يظهر عليه ادنى حيادة عن جادة الاستقامة فخلا عن القصاص الذي يترتب عليه فلا يمكن فيها بعد ان ينال خدمة في اعمال الحكومة مدة حياته .

ثم نصب امنا لمشترا الاغلال والاقطان والزيوت في عكا وخزنها وبيعها للاجانب بأثمان ربما تكون في بعض الاحيان بثمن مضاعف عن رأس المال. ثم حرر اوامر بتأمين لمشايخ المتاولة النازحين بان يكونوا مطمانين ويحضر منهم لعكة عمدة مفوضاً من جميعهم للمكالمة معه بعمل طريقه لراحتهم ومعيشتهم وقطع القلاقل. وعندما وصلهم الامر اجابوا بالامتثال وحالا حضر كبرايهم لعكا بأنفسهم معتذرين عما كان يتوقع منهم بانه لم يترك لهم الجزار شيئاً من املاكهم ليعتاشوا به ولا اماناً على ارواحهم. فلوقاية انفسهم من الهلاك اضطروا للاعمال المغايرة فتجاوبوا بالتأمين والتطمين واعطى لهم اقليم الشومر الواقع ما بين صور وصيدا بجميع قراياه ملكاً ابدياً لهم ولذريتهم معافاً من الاموال والتكاليف الاميرية وذلك بدلا عن املاكهم في بلاد بشاره. وبمعرفتهم صار تقسيم محلات هذا الاقليم بين افرادهم وتحررت لهم سندات وزيرية بذلك لتبقى محفوظة بيدهم. وخرجوا من عكا مسرورين مما حصل لهم. وكل منهم توطن (٣٦) في القرية التي تخصصت له. وحصلت الراحة لبلاد بشاره وتأمنت الطرقات وصار جميع الاهالي بالايالة في ارغد عيش. ولم يعد لزوم لكثرة العساكر. فاقتصر الحكم على ضابط من الارناؤوط متوطناً في صور اسمه محمد آغا النعمان عنده نحو مايتي نفر مشاة وعلى ثلاثة ضباط من الاكراد شمدين آغا ونعمه آغا واجليقين آغا على نحو خمساية فارس وعلي ابو زيد آغا وموسى الحاسي آغا ضابطين على نحو اربعماية خيال من عرب الهواره ويتبعهم بعض انفار في باب سراي عكا مشاة نظير الضبطية عليهم ضابط يسمى سكبان باشي يقيم في باب السرايا. كذلك جماعة الطوبجية على اسوار المدينة كما انه يوجد في كل مدينة من الطوبجية والضابطة كفايتها.

واما الكتاب فكانوا غير كثيرين حيث الكمارك والاقلام تعطى الى ملتزمين بمبالغ معلومة فقط في عكا كان كتاب الخزينة المعلم جرجس مسدية وابراهيم الصابونجي مع مساعدين معروفون بالاستقامة. وكتاب التحريرات العربية المعلم حنا العوره وهو من المصابين بوحشية اعمال الجزار فكان مقطوع الانف وبمعيته اولاده ميخاييل وابراهيم وجميعهم من الماهرين بالخط والانشاء. فالمعلم حاييم كان يميل لاستخدام الروم الكاثوليك وقليل الشفقة بالروم الارثوذكسيين لميلهم الجنسي نحو اسلافه بيت السكروج لانهم منهم بخلاف اهلهم الذين كانوا بدمشق متوظفين على ادارة خزينة دمشق منهم لا يوثقون بصداقة كاثوليكها لميلهم الى بيت البحري الكاثوليك الذين كانوا يزاحمونهم على الخزينة بمدة ولاية كورد يوسف باشا. وسيأتي الكلام على ما حصل بينهم.

فجميع اهالي ايالة صيدا حصلوا على الراحة التامة بالمعمورية وتأمين الطرقات مع قيام الحق وهلاك الباطل بين الاهالي بعضهم مع بعض وبينهم وبين الحكومة. هذا وانه لم يقع في الايالة امراً مكدراً. فقط مشايخ بيت عماد حيث قلة ايراداتهم كان يقع منهم بعض (تعديات) توجب التشكي من تصرفاتهم والامير بشير لا يوثق بصداقتهم لكونه اشتهر بميله الجنبلاطي ولا يكون يجتمع لتدبير المصالح الا مع الشيخ بشير جنبلاط دونهم. فزاد نفور الفريقين من بعضهما ولم يبق للامير صديقاً من اليزبكية سوى الشيخ شبلي عبد الملك المتولي على الجرد. فهذا الشيخ كان من اهل الاستقامة مكتفياً بالمعيشة من حاصلات املاكه. فالمشايخ العمادية لم يعد عندهم امنية على انفسهم من مناظرهم الشيخ بشير جنبلاط لان يد الامير الحاكم كانت تعضده ضدهم. وهم اضعفوا حزبهم بموافقتهم على قتل المشايخ النكدية الذين كانوا ينضموا اليهم عندما ينظرون زيادة امتداد يد الجنبلاطيين لا بل بمساعدتهم على قتل جرجس باز واخيه عبد الاحد واعماء اولاد الامير يوسف الذين كانوا السند القوي للفيئة اليزبكية لم يبق لهم من يعضدهم. فلهذا اضطر كبرايهم الى مهاجرة بلادهم. وتوجه الشيخ علي العماد كبيرهم مع من يخصه الى مصر يقيم بها الى ان تمكنه العودة لبلاده. (٣٧) فبعد خروج العماد راقت البلاد وهمدت الحركات الى سنة ١٢٢٥ وردت الاخبار بقدوم الجيوش الوهابية الى المزيريب في حوران من بعد استيلائهم على بلاد الحجاز. وكان والي الشام حينئذ الكنج يوسف باشا الكردي. فهذا كان من الفرسان المشهورين وضابطاً على عسكر من الاكراد عند سالفه عبد الله باشا العظم الذي تعطل طريق الحج بمدة ولايته بسبب استيلاء الوهابية على الاقطار الحجازية. فالتمس الكنج يوسف من الدولة توليته على الشام وتعهد بتمشية الحج. فانعمت عليه بالوزارة وولاية ايالة الشام مع امرية الحج. وتوجه سالفه يقيم بمدينة حماه. واما يوسف باشا لم يقدر على القيام بتعهده حيث لا يقدر على ايصال عساكر كافية لطرد الوهابي من الحجاز مع ذخايرها ومهماتها اذ يلزمها تمشي في الرمال الحارة اربعون يوماً لا يوجد في طريقهم مأكولات لهم ولا لدوابهم حتى ولا مياه تكفي لمشروبهم وزاد على ذلك لا يوجد عنده من المال ما يكفي للقيام بمصرف خمساية خيال بطريق كهذا ولا شيئاً عنده من المهات الحربية. فأين هي مقدرته الكلية الضعف حتى يمكنه بها مقاومة مقدرة الوهابيين الكثيري العدد والعدد مع بعده الشاسع عن مركز ولايته وانقطاع المدد عنه. ان تصديه لما لا يمكنه الاقتدار عليه يحسب من اكبر الحماقات. فلما لم يقدر على تمشية الحج جعل يلهي الناس

باعمال سخيفة يأمر بأجرايها في كل مدة بنوع جديد . فأمر ان كل مسلم يلزمه ان يلتحي ولا يبقى بينهم امرداً وان الحلاق الذي يحلق ذقن مسلم تقطع يده . فكنت ترى كثيراً من شبان دمشق هاربين الى السواحل ولبنان ليتخلصوا من اطلاق شعر لحاهم لانه في عوايد الشرق لا يجوز حلقه من بعد اطلاقه مدة الحياة . لان هذا من اعظم العيوب عندهم . واذا انسان تجاسر على حلاقة ذقنه من بعد اطلاقها ولو اضطراراً بسبب مرض في وجهه فيلحقه العار مدة حياته ويمتد الى ذريته . فيلقبهم الناس ببيت حلاق ذقنه . وهذه الجهالة كان نظيرها عند الاوروبيون بان الرجال يطلقون شعر روؤسهم كالنساء ويحلقون اللحا والشاربين حتى ان العادة كانت عندهم بان شعر الراس بمنزلة الاعين عند الشرقيين . فان الشرقيين من الملوك والامراء كانوا اذا اختشوا من واحد منهم ان يزاحمهم على قبض زمام الحكومة يحتالون في قتله او اطفاء ابصاره . وهكذا كان الاوروبيون يحتالون في قتل من يخشون مزاحمته لهم او يقصون شعر رأسه فلا يعود فيه لياقة ان يكون حاكماً . فواحد (٣٨) من ملوك فرنسا الغابرين توفي عن امرأته وله منها ولدين قاصرين . فاختطف اخوه الملك لنفسه وبقي مختشياً من ابناء اخيه حتى بلغا سن الرشاد ان يطلبا حقها بالحكومة . فوضع يده عليهما وخير والدتهما بين قص شعورهما او قتلهما . فاختارت لهما القتل . فقتلا. وبقي لشعر الرأس هذا الاعتبار الى ان نابوليون بونابارته الاول ابطل هذه الخرافة وقص شعر رأسه فتابعه الناس . ثم عندما صار عند الشرقيين مألوفاً حلق لحى الشبان حتى العساكر فاستحسن الاوروباين للشبان اطلاق اللحى عكساً للشرقيين . اذ لا يليق عند شيوخ الاوروباين ان يطلقوا لحاهم وبالاخص القضاة والكنايسيين من شماس وقسيس ومطران حتى ذات البابا منهم يحلقون اللحية والشاربين لتكون وجوههم كوجوه النساء ويمتازون عن النساء بأن كل منهم يحلق شعر راسه ولا يترك منه سوى هألة مجوفة كافحوص القطا يسمونها اكليلا.

ولنرجع لاعمال يوسف باشا فكان احياناً يحتم على الاسلام بان يكحلوا عيونهم بكحل اسود ويمدون للكحلة ذنباً طويلا من الجهة الوحشية للعين . ثم أصدر امره بان نساء النصارى عند خروجهن من بيوتهن في الشوارع يتزرن بغطاء اسود اللون ورجالهن يتعممون بعمامة سوداء واليهود بالعمايم الحمراء . وكذلك في دخول النصارى واليهود من نساء ورجال الى الحمام يتزرون بالاسود والاحمر كي يمتازون عن المسلمين. (ان العمامة السوداء كان يلبسها الخليفة من الدولة العباسية دون غيره علامة للخلافة عن حضرة نبيهم لانه حين فتوحه مكه ودخوله للكعبة

صعد المنبر وخطب بالاسلام وهو متعمماً بعمامة سوداء . فعندما الفاطميون حضروا من المغرب واخذوا بلاد مصر من يد العباسيين حتموا على النصارى بان يتعمموا بالاسود تحقيراً للخلفاء العباسيين) .

ومن الحوادث التي جرت بمدة ولاية يوسف باشا المذكور انه كان بخدمته رجلا حمصياً من طايفة الروم الكاثوليك يقال له عبود البحري . فهذا الرجل كان من العقلاء الحاذقين مهذباً على يد والده ميخاييل البحري الذي كان شهيراً بحسن الخط والانشاء ومعرفة اللغات التركية والعربية وينظم الاشعار الرابعة . وقد ابتلي مدة بخدمـــة الجزار لحسن خطه وذكائه فجازاه بقطع انفه وتشويه صورته . وكان عبود فاق كثيراً على ابيه بمعرفة التركية والعربية مع بلاغة الانشاء . واما حسن الخط بجميع اشكاله تفرد به حيث لا يوجد له مثيل في بلاد العرب . وكانت وظيفته كاتب تحريرات الولاية . وكانت ادارة الخزينة واموال الايالة بيد بيت فارحي الاسرائيليين وهذه منها منافع جمة لا تقاس بها وظيفة اخرى . فعندما نظروا زيادة نفوذ عبود وشدة ميل يوسف باشا اليه اختشوا على وظيفتهم ان يأخذها من يدهم وهو اعرف منهم بطرق المحاسبات وحسن الخط العربي والتركي . فيوماً كان كبيرهم عند الباشا لمصلحة ما فسمع (٣٩) الباشا يثني على عبود وانه عديم المثيل في خطه وانشايه ومعارفه الا انه نصراني فلو كان يصير مسلماً كنت ارفعه لرتبة عالية . فالاسرائيلي عندما سمع ذلك زاد اختشاه على ذهاب وظيفته ولكن قريحته الجيدة فتحت له حالا باب الحيلة فقال للباشا ان المعلم عبود هو من الرجال المعتبرين ونظر سعادتكم فيه بمحله وغالباً انه يميل لمرغوب دولتكم . فاذا اشهرتم له خاطركم فلا يخالف امركم لكونه على ما بلغني هو غير متعصب في دين النصرانية(حال كونه شديد التمسك به)وغايته ان عبود لا يترك دينه ويضطر لاحتمال غضب الباشا عليه ويمكن ان يقتله فيرتاحوا منه . فواحد من الحاضرين نقل الذي حصل لمسامع عبود فاخذ بتدبير امره ليتخلص من المصيبة . فثاني يوم اذ كان في شغل عند الباشا صدر امره بخروج الحاضرين وابتدأ في الكلام مع عبود وترغيباته بالدخول بدين الاسلام . فكان جواب عبود انني لا اخالفك بشيء مما تأمرني به . فانشرح الوزير لذلك واراد ان يحضر له الكسوة الاسلامية ويستحضر القاضي والاعيان ليشهدوا على صحة اسلامه ويثبتوه . فقال له عبود انك تريد اسلامي لاجل راحتي ام لاجل تعبي . اجابه بل لاجل راحتك في الدنيا والآخرة . قال عبود فأي راحة تكون بمفارقة اعيالي واخوتي فأرجوك طولة البال ايام قليلة لبينما اتدبر في اقناع عيالي واخوتي بان يسلموا معي هكذا يكون

احسن . فحصل السرور من ذلك عند الوالي وقال له يا عبود انك عاقل فدبر ما تراه اوفق . وخرج عبود مظهراً علايم الفرح . وثاني يوم بكر عن عادته بالحضور لعند الباشا وعلايم السرور تلوح على وجهه . وكان يقضي مصالح وظيفته بكل رغبة ونشاط وبقي هكذا مظهراً رغبته بعض ايام حتى دبر احوال بيته وفر لدير القمر لعند الشيخ جرجس باز ملتجياً الى الامير بشير ليخلصه من هذه المحنة التي اوقعها عليه بيت فارحي .

فيوسف باشا عندما تحقق عنده فرار عبود الى لبنان اغتم لذلك لانه كان يحبه جداً فحرر للامير بشير بطلبه فجاوبه مع معتمد خصوصي حاملا كلام شفاهي يشرح الاسباب التي احوجت عبود الى الفرار حال كونه صادق في خدمته ويعلم انشراح خاطر مخدومه لنحوه . فعندما وقف يوسف باشا على الاسباب اجاب انني استخدمه لصداقته لا لاجباره على ترك ديانته وحرر امراً الى عبود بالتأمين والتطمين الكافي ليرجع الى تعاطي وظيفته . فرجع حالا ونال من مخدومه كلما يسره . فهذا سبب النفور بين البحري وفارحي (٤٠) .

(ان سبب غنى يهود دمشق هو وجود بيت فارحي في باب الحكومة التي كانت تتصرف بأعمالها بتدبيرهم . فكانت بلاد الشام مع قراياها واموالها الميرية ومصارف الحكومة جميعها بيدهم . وكانوا مع اقربايهم كما يقال بلسان العامة الولاة ماسكون قرون البقرة واوليك يأكلون حليبها . فالمصارف على تثبيت الوظيفة بيدهم كانت خسارتها عليهم وحدهم لايشركهم بها احد من اقاربهم وممن ينتمي اليهم لانهم كانوا معهم بمثابة شريك المضاربة الذي يأكل من الربح ولا يلتزم بالخسارة .)

. . . .

. . . .

ولنرجع بالكلام الى يوسف باشا فعوضاً عما كان يؤمله من فتح بلاد الحجاز وطرد الوهاب عنها قد اتى عليه الوهابيون الى حوران ومنها كتبوا الى اعيان دمشق يدعوهم الى التسليم وان يتركوا الشرك ويدخلوا في دين الاسلام (بزعمهم ان اهل السنة هم من المشركين) فيوسف باشا عرف انه لا يقدر على دفعهم فاستغاث بسليمان باشا والي صيدا لمعونته على طرد الوهابي عن البلاد الشامية . فأجاب لمطلوبه وحالا امر بتجهيز العساكر وانه ينهض بنفسه . (٤٤) وحرر بذلك للامير بشير ان يوافيه الى طبريا بعسكر من اهالي لبنان بقدر ما يمكنه . فالامير قابل الامر بالامتثال واصدر اوامره لجميع جهات لبنان بان كل امير وشيخ من

العمال يأتي اليه مع جميع رجال بلاده حاملة السلاح من مسلم وشيعي ونصراني ودرزي بأسرع ما يمكن . فحضر الجميع مع الامير الى طبريا . وحضر اليها سليمان باشا بعسكر وافر من ترك واكراد وارناوط ومغاربه وهوارة ومشى الوزير وصحبته الامير واعيان بلاده قاصدين دمشق بعساكر لم يسبق لوزراء سوريا ان يجمعوا مثلها . وبوصولهم الى ارض القنيطرة البعيدة عن دمشق نحو ثلاثين ميلا ارسل اليهم يوسف باشا خبراً بان يرجعوا حيث لم يعد لحضورهم لزوماً لانه حضر افادة للوهابي بان محمد علي باشا والي مصر استولى على بلاد الحجاز وطردهم منها ولذلك تركوا حوران ورجعوا لبلادهم . اما سليمان باشا فبقي ماشياً بالعساكر وقاصداً مدينة دمشق وكان الباعث لذلك ان الدولة العلية عندما وجدت قصور يوسف باشا عن القيام بتعهده وانه عوضاً عن طرده الوهابي من بلاد الحجاز قد وفد عليه لبلاد الشام قد اصدرت اوامرها بعزله وتنكيله وتفويض احكام ايالة الشام وامرية الحج لعهدة سليمان باشا اضافة على ايالتي صيدا وطرابلس وملحقاتهما المتولي عليهما . وصار بيده جميع المعروف الآن بولاية سوريا . وبوصول سليمان باشا والامير بشير بالعساكر الى ارض جديدة عرطوز غربي دمشق مسافة سبعة اميال قابلهم يوسف باشا بعساكره ليصدهم بالقوة الجبرية عن الدخول لدمشق . وبعد محاربة قليلة انكسرت عساكر يوسف باشا وهو هرب الى مصر بخواصه ومعه المعلم عبود البحري والتجى الى واليها محمد علي باشا الذي استحصل له رضى الدولة وان يقيم بمصر فأقام بها لنهاية عمره . اما سليمان باشا فدخل بالعساكر لدمشق بدون تشويش على احد منها . وجميع الاهالي فرحوا بولايته لما تكبدوه من اطوار يوسف باشا لا سيما ان طريق الحج المنقطع من عدة سنين قد انفتح بايامه . وكان استحضر من عكة بمعيته المعلم حاييم فارحي والمعلم حنا العوره كاتب العربي واولاده المتقدم ذكرهم فنزلوا في بيت المعلم روفائيل اخي المعلم حاييم . وبعد ان استقرت الامور رجع الامير بشير ورجاله الى الجبل وسليمان باشا عندما حان وقت الحج توجه بطريقه مع الحجاج واصحب معه المهمات اللازمة والعساكر الضرورية لصيانتهم . وهكذا قضوا فروض الحج ورجع الجميع لاوطانهم بكل راحة . واما المعلم حاييم قد رتب مصالح الايالة وخدامها والاموال الاميرية على احسن وجه حتى انه منع اخذ رسم التحصيل من الاهالي (٤٥) على حقوقهم . قالوا انه في يوم نظروا واحداً من اولاد كاتب العربي يتناول نحو ثلاثة غروش بوجه الاكرامية من انسان حرر له امراً من الحكومة بتحصيل حق له فقال المعلم حاييم لابيه ان هذا العمل لا يليق وهو دناءة فالاحسن تركه . في عشية ذلك

اليوم اذ كان كاتب العربي جالساً بمحضر المعلم حايم اتى ولده بدراهم مصرورة. فقال له ابيه افتحها واخبرني عن عددها فعدها بلغت نيف عن مايتين وخمسين غرش . فنظر في المعلم حايم وقال له حضرتك نهيتني عن اخذ الثلاثة غروش فهذا هو محصول اليوم قصدت اريك اياه . ان المثل يقول خذ من كل ذقن شعرة فشعرة فيصيروا ذقن . اجابه ان ذلك صحيح ولكنها تصير ذقن رذيلة لا يقبلها القوم الكرام .

(وفي هذه السنة اي سنة ١٢٢٥ هجرية صار رفع ايدي امراء راشيا عن التصرف بقرايا اقليم البلان وتبعت خزينة دمشق . وكانوا الامراء يدفعون مالا سنوياً معلوماً جملة واحدة عن بلاد راشيا واقليم البلان بدون فصل مقدار ما هو على كل منهما . وكانت حكومة راشيا مقسومة بين الامير افندي الشهابي وبين ابن عمه الامير منصور الذي الامير افندي قتل اخيه الامير بشير غدراً . فلذلك كانا اعداء لبعضهما وكل منهما له قراياه ورجال يسكن بينهم غير ان الامير افندي اطول باعاً لكون ميله جنبلاطي كميل الامير بشير حاكم لبنان الذي تنقاد[1] اليه جميع عشاير سوريا . واما الامير منصور ميله يزبكي الذي استحوز عليه الضعف وراسه ابن عماد نازحاً لمصر. فوجود العداوة بين اميري راشيا جعلت كل منهما يختشي الآخر ويحتاج لكثرة الاعوان . وهذا يستدعي لكثرة المصاريف التي تحوج الامراء ان يجوروا على الرعايا بأخذ الاموال . فكانوا يزيدون الثقلة على اهالي اقليم البلان بأكثر من ثقلتهم على رعايا وطنهم بلاد راشيا . فولاة الشام كانوا ضعفا عن انصاف الرعية من الامراء المستندين الى مساعدة كبيرهم حاكم لبنان . فعندما صارت ولاية الشام تحت احكام سليمان باشا والي صيدا الذي يحكم على امير لبنان اغتنم الفرصة اهالي اقليم البلان وقدموا تشكيهم لديه . فصدر امره الى المعلم حايم ان ينظر في تشكيهم ويعمل راحتهم . فطلب منهم دفتراً في بيان ما يكلفهم الامراء لدفعه . فقدموه وبالغوا فيه . ثم اوضح الامراء تشكي الاهالي من زيادة المطاليب عليهم فأنكروا وانهم لا يكلفونهم لدفع شيء خارجاً عن المرتبات القديمة . فطلب منهم دفتراً مفصلا مبين فيه مفردات ما يأخذونه منهم . فكتبوا الدفتر ولكنهم نقصوا كميته ولم يكتبوا فيه اكثر من ربع الذي يأخذونه لكي ينفوا شكوى الرعايا . ولم يفتكروا فيما هيأه لهم المعلم حايم لانه بعد ايام ارجع لهم الجواب ان افندينا يرغب راحتكم وراحة الرعايا ولذلك أصدر امره ان الذي تأخذونه من (٤٦) اقليم البلان بموجب الدفتر الذي قدمتوه

---

(١) هكذا في ص وفي جب الذي تقتاد اليه .

يخصم لكم تماماً من الاموال المرتبة عليكم بدون ان يخصم عليكم شيئاً بمقابلة ما تصرفونه على الخدام لتحصيل الاموال ولمحافظة البلاد وذلك بوجه الانعام لاجل تحسين احوالكم وترفعوا يدكم عن الاقليم فتكون لكم الراحة بقطع بلابل اهاليه كما ترتاح الحكومة من تشكياتهم فاشكروا هذه النعمة واستديموا الدعاء بدوام ولايته عليكم . فالامراء لم يعد في وسعهم انكار صحة دفترهم لما يترتب عليهم من الخيانة بكذبهم على الوزير فالتزموا باظهار الممنونية واخفاء غمهم . ثم استحضر المعلم حايم وجوه قرايا اقليم البلان وقال لهم ان افندينا فاضت مكارمه بالشفقة عليكم وصدر امره الكريم برفع ايدي امراء راشيا عنكم وان ادارتكم تكون تبعاً لخزينة الشام بنسبة قرايا المرج والغوطة لاجل راحتكم من اثقال الامراء واتعابهم . وزادت مرحمته لكم بان يرتفع عنكم خمس الذي كنتم تدفعونه الى الامراء بموجب الدفتر المتقدم منكم وان يترتب عليكم اربعة اخماسه فقط . فادعوا لحضرته بطول العمر . فالمذكورون ايضاً لم يسعهم الاقرار بانهم كتبوا زيادة بدفترهم نحو نصف ما يتكلفونه للامراء بل اسدوا الشكر والدعاء . فهكذا[1] هي اراء الغير صادقين في كلامهم اذا ارادوا التخلص من مصيبة يطرحون انفسهم في اعظم منها .

ومما حدث بعد ذلك ان الدروز المتوطنين في الجبل الاعلى من بلاد حلب حصل عليهم الجور الزايد في تلك البلاد حتى لم يعود لهم امنية على انفسهم . ومع كونهم اشداء لم يروا في امكانهم حماية انفسهم لقلة عديدهم وكثرة مقاوميهم . فالتجوا الى الامير بشير بواسطة الشيخ بشير جنبلاط . فارسل استحضرهم لدير القمر بنسايهم واولادهم ووزعهم في البلاد . وشبانهم اللايقين لخدمة صار استخدامهم فيما يليقوا له عند امراء ومشايخ لبنان . وبالاخص الشيخ بشير جنبلاط قد استخدم منهم الكثيرين لانه كان يعتني بتكثير خدامه الفرسان والمشاة الشجعان واما الحلبيين قد زادت رغبته فيهم عندما تحقق لياقتهم وشجاعتهم الا انه وجد منهم من يحفظ المعروف نحو المحسن الى جنسهم ولنذكر شيئاً من ذلك .

ان للشيخ بشير حجرة صغيرة في براني سرايته بالمختاره كاينة في آخر ممشا يعلوه دار الحريم . فكان فيه مجلسه بفصل الشتاء هرباً من البرد . ففي ذات يوم حضر لعنده شاباً درزياً حلبياً صبح عليه وقبل يده كعادة الجبل ووقف قايلا ان لي شغل يلزمني اعراضه سراً . فنهض الحاضرون وخرجوا خلا خورياً علمانياً يقال له الخوري اسطفان من طايفة الروم الكاثوليك كان طبيباً حاذقاً عند الامير بشير وقاطن بعيلته دير القمر فبقي جالساً . فقال الحلبي ارجوا من حضرة الخوري ان

(١) هكذا في ص وفي ج ب هذه .

يتكرم بالخروج . قال الخوري ان جناب الشيخ لا يكتم عني شيئاً ومع هذا اجيب لمرغوبك . وخرج مشغول الفكر من هذا الرجل . ولذلك بقي على الباب المسدولة عليه البرداية لمنع البرد . فسمع شخيراً داخل الحجرة. فكشف البرداية وجد هذا الحلبي (٤٧) راكباً على صدر الشيخ يخنقه بيديه . فهذا الخوري كان متقدماً بالعمر الا انه قوياً جداً . فأسرع قابضاً على خصيتي الحلبي بيده الواحدة بكل عزمه وعلى يديه بيده الاخرى . فانحل عزمه واغمي عليه . وصرخ على الخدام فتراكضوا فامرهم بوثاقه جيداً فأوثقوه ثم التفت لتدبير الشيخ لانه كان مغشياً عليه . فبعد المعالجة انتبه . فلامه الخوري على خلوته باتسان يجهله وهو ايضاً كالفيل حال كون الشيخ وان كان كبير العقل الا انه صغير القامة نحيف الجسم كثير الاعداء . فبعد ان حصلت الراحة للشيخ الق هذا الغادر[1] تحت العذاب ليقر عن سبب صنيعه القبيح . فبعد ان اذاقوه العذابات الشديدة مراراً اعترف بكونه مرسلا من مصر لاغتياله من طرف الشيخ علي عماد ولم يجد واسطة لاتمام مرغوبه اسهل مما عمله ولولا وجود هذا الخوري[2] كان تم قصده بخمسة دقايق وخرج سالماً ويغلق الباب ويقول للاتباع ان الشيخ لا يريد ان تسمحوا لاحد بالدخول عليه حتى ياذن لكم كونه مشغولا بمطالعة الكتابات التي أحضرتها (له) وبذلك تكون لي الفرصة بالخلاص . فبعد وقوف الشيخ على هذه الحقيقة اعرض للامير عن المتوقع فتجاوب يهنيه بسلامته من المكيدة وارخص له بقتل الغادر لان اجراء القتل قصاصاً لا يكون في لبنان الا بامر الامير.

ان من عادة الامير بشير في مسامراته لا يسامر احد الا بما يعرفه فيسامر التاجر بامور التجارة والفلاح بالفلاحة والعالم بعلمه الخ. وكذا اذا ارسل احداً من اتباعه بمامورية ما ولو كانت طفيفة فلا بد عند رجوعه ان يساله عن كلما حدث له او شاهده او سمعه مما يكون له ولو بعض اهمية مع تحري الصدق لان الكذب عليه والخيانة بخدمته لم يكن لهما عنده مغفرة . فصودف ارسال اثنين من البازدارية عنده لبلاد حلب لمشترى طيور للصيد لانه كان شديد الرغبة فيه . فعند رجوعها استقصى منها ما جرى لهما ذهاباً واياباً . فأخبراه عن مرورهما في بلدة ريحا من بلاد حلب . فنزلا في خان كعادة المسافرين فسألهما الخاناتي من اين اتيتما والى اين تذهبون وما هو مقصودكم . فقالا له ماذا يخصك من ذلك نحن عابري طريق نبات عندك هذه الليلة وفي الصباح نتوجه في طريقنا . اجابهم

---

(١) هكذا في ص وفي ج ب الغالب .
(٢) ساقطة من ج ب .

كلامكم مناسب لا يخصني من ذلك شيئاً ولكن علينا الحتم من حاكمنا سعيد آغا بان نخبره عن كل من ينزل عندنا من اين هو واين مقصده فيصدف انه يطلب البعض لمواجهته . ولذلك انني مضطر لهذا الاستعلام منكم . فأخبراه انهما من البازدارية في خدمة الامير بشير حاكم جبل لبنان وقادمون بأمره لمشترا طيور باز للصيد من ارض العمق بموجب تذكرة بيدنا تحت ختمه لعدم معارضتنا . فتركهم وتوجه فلم يلبث حتى اتاهما الطلب من سعيد آغا فتوجها لمقابلته . فأمر لهما بالجلوس والقهوة ثم قدما له تذكرة الطريق تحت ختم الامير المعلنة بالمصلحة المرسلين اليها . فقرأ التذكرة ثم قبلها ووضعها على رأسه وارجعها اليهما قايلا ان سعادة الامير هو كبير جميع عشاير سوريا وروس العشاير يحسبون انفسهم كأولاده ومحلاتهم (٤٨) هي محلاته فكيف لاق لديكم النزول في خان المسافرين مع وجود بيت لسعادة الامير في بلدتنا . يلزم ان تكونوا عندي وبعد ثلاثة ايام تتوجهوا لقضاء مصلحتكم مصحوبين بفارسين من جماعتي لانكم تجهلون الارض . وهكذا اقاموا عنده ثلاثة ايام ثم اصحبهم بخيالين من احسن رجاله واوصاهم بان لا يسمحوا لاتباع الامير ان يصرفا شيئاً لانفسهم ودوابهم بل يقدموا لهم جميع لوازمهم من ماله ذهاباً واياباً . ثم عندما رجعوا لعنده ألبس كل منهما عباة لايقة واعطاهما خمسماية غرش نظير ما يصرفانه حتى يبلغا لبنان . فعندما وقف الامير على تقريرهما انشرح لذلك وقال ربنا يقدرنا ان نكافيه على جميل عمله مع اتباعنا بدون معرفة سابقة بيننا .

فلم يمضي مدة طويلة حضر جوبان اوغلو وزيراً على حلب وعصت عليه ومنعته عن الدخول . فحاربها ودخلها عنوة وفتك بها فتكاً ذريعاً . وحضر فرمانات من الدولة بأسماء كثيرين من كبراء ايالتها ان تقطع روؤسهم وترسل لجانب السلطنة . وكان من جملتهم سعيد آغا المذكور آنفاً . فعندما بلغ الخبر لسعادة الامير فغب الاستيذان من سليمان باشا ارسل اليه ان يأتي لعنده بكل من يريده . فحضر لدير القمر وصحبته نحو ثلثماية نفر بخيولهم وبغالهم . ومنهم اثنين مطلوبة روؤسهم للدولة اسم احدهما اوزون علي واسم الآخر طوبل علي اي علي الطويل وعلي الاعرج كعادة الترك ينعتون الانسان بعيوبه الطبيعية . وكان كاتبه من جملة المتفرجين عند وصولهم . فسعيد آغا كانت صورته كلية المشابهة لصورة الامير بشير الذي استقبلهم بكل ترحاب وبشاشة وانزلهم في قرية كفرنبرخ بعيداً عن سرايته المسماة بيت الدين بمسافة ميلين . فرتب لهم كلما يلزمهم لمأكولاتهم وعليق دوابهم . وبعد اقامتهم نيف عن ثلاثة اشهر حضر فرمان من طرف السلطنة لسليمان باشا صحبة مأمور كبير من رجالها به يطلبون منه ارسال الثلاثة

آغاوات المذكورين وانه تقرر للباب العالي فرارهم الى لبنان . فسليمان باشا ارسل نفس المأمور لعند الامير بشير وكان معه من الاتباع نحو اربعين رجلا مختلفي الاشكال في ملابسهم . فقابله الامير بالتكريم وصار الترجمان بينهما نفس سعيد آغا المطلوب كون الامير لا يعرف اللغة التركية كما ان المأمور لا يعرف سعيد آغا . ثم انزله في سراي دير القمر . وقرر الامير للمأمور المذكور ان الطريق من جهة السواحل لجهة دمشق وبغداد مفتوح لكافة المارين في لبنان . ولا نعرف كل من يمر فيه . هذا وان لبنان يقبل كل من اتى اليه . فاذا كان الاشخاص المطلوبين استقروا في احد جهاته نفحص عنهم ونلقي القبض عليهم ويتسلموا ليدك حسب الامر . وبهذا اليوم ارسل الاوامر لجميع العمال في جهات الجبل ليجتمعوا في دير القمر ويصير الفحص منهم عن الاشخاص المطلوبين عسى نجدهم . فالامير ارسل اوامره لجميع امراء ومشايخ لبنان ان يجتمعوا لدير القمر بكافة رجال بلادهم تحت السلاح . فاجتمع رجال ضاقت بهم دير القمر وما حولها . فالمأمور قال لماذا هذا الجمع الغفير . فقيل له هؤلاء هم خدمة الامراء والمشايخ (٤٩) فقط الذين استدعاهم الامير فلا يأتوا بدون اتباعهم اينما توجهوا . حينئذ طلب من الامير انه يكفي السؤال من الخواص . فجمع الامير نحو خمساية رجل منهم وتليت عليهم اوامر الوزير ومضمون الامر السلطاني فأجابوا بكلام واحد انه منذ ثلاثة اشهر سمعنا انه مر في طريق الشام ضمن الجبل جانب خيل وبغال وتوجهوا في طريقهم . وقيل انهم من بلاد حلب . ومن المعلوم ان سعادة الامير لا يسمح بمعارضة احد من ابناء السبيل . وعلى هذه الصورة سافر مأمور الدولة وانفضت الجمعية التي يسمونها بالجبل جمعية الحلاوة لانها كانت والنصارى صايمون يعطى لهم الفطور خبز وحلاوة طحينه مقادير جسيمة من طرف الامير . واما سعيد آغا ومن معه بعد ايام طلبوا التوجه الى بلاد مصر فتوجهوا عن غير طريق الساحل . وارسل الامير معهم معتمدين احتساباً من تعرض احد لهم في الطريق فأوصلوهم الى العريش حدود بلاد مصر .

ومما حدث بعد ذلك ان شاباً درزياً من الغرب الفوقاني اسمه سلمان الحكيم له من العمر ما لا يبلغ العشرين سنة نزل لدار حريم الشيخ بشير جنبلاط ليلا ليغدر به فما ظفر بمرغوبه حال كون الدار المرقومة كلية الحصانة لا يمكن التسور على جدرانها . وقد وقع هذا الشاب باليد واحضروه لسجن الامير بدير القمر لاجراء قصاصه . ففي احد الايام اذ كنت خارجاً من عند والدي بالسرايا فوجدت هذا الشاب احضروه لدار السرايا والسلسلة الحديدية الغليظة في عنقه لكي

يجلدونه امام الناس وهو لم يكن الشعر كاسياً لحيته وشاربيه . وكان نحيف الجسم جداً . فطرحوه ووضعوا ارجله بما يسمونه فلقاً وانتصب اثنان من القساة لضربه بعصي متينة من خشب السنديان وابتدوا يضربونه بكل قساوة . فحزنت عليه جداً . واما هو فكان يحتمل الضرب المؤلم بكل تجلد ولا ينطق بكلمة حتى انه علق يديه بالفلق ورفع ظهره عن الارض فضربوه نحو ثلاثين عصاً على يديه حتى رفعها عن الفلق وهو لا ينطق بكلمة . وعندما صار مضروباً نحو ماية وخمسين عصاً اغمي عليه فتوقفوا عن ضربه ورشوا الماء على وجهه وارجله باقية بالفلق وعندما انتبه رجعوا الى ضربه وهو صامت الى ان سال الدم على الفلق من ارجله . حينئذ رفعوا عنه الضرب فحملوه لداخل السجن لانه ما بقي له مقدرة على الوقوف وجميع الناظرين اليه حزنوا لاجله كثيراً وكنت اشدهم حزناً .
فبعد ايام اذ ادخلوا له الطعام فما وجدوه فقط وجدوا القيود مكانها حال كون المحبس كلي الحصانة . فهو حجرة حصينة البناء بابها ضمن قبو فيه باب السرايا الخارج وباب مقابله للدخول اليها وعلى داير القبو مصاطب للمحافظين يجلسون وينامون عليها نهاراً وليلا عندما يقفلون عليهم الابواب . ثم المحبس يضعون فيه ذوي الجنايات الخفيفة وله طاقة مطلة على ميدان متسع حوله الاسواق وهذه الطاقة محصنة بتشبيك حديد متين ويعلوها نافذة للضوء تعلو عن الارض نحو خمسة اذرع وعرضها وارتفاعها كل منهما نحو ثلثي (٥٠) الذراع لا يمكن الوصول اليها بدون سلم وعلى فوهتها مثبت بلاطة متينة مخزمة ينفذ الضوء منها . وفي احد زوايا هذا السجن مبني حجرة صغيرة مسقوفة على ارتفاع اربعة اذرع وليس لهامنفذ غير بابها الذي يفتح لداخل السجن . فأصحاب الجنايات الثقيلة يحبسونهم في هذه الحجرة والقيد الحديدي الثقيل في اعناقهم وطرفه مخرج من ثقب في حايط الحجرة موثوق في خارجها . ثم يقفلون عليهم الباب ولا يفتح عليهم الا وقت ادخال الطعام او اخراجهم لقضي الضروري او للتعذيب . وصودف ان السجن في ذلك اليوم لم يكن محبوساً فيه غير هذا الفتى فما وجدوا اثر لمهربه غير البلاطة المخرمة التي في فوهة نافذة الضوء فهي مكسورة من وسطها باستدارة قطرها نحو شبر وبجانبها سكة حديد كالتي يغرزونها في الارض ليربطوا فيها رسن الدابة .
فقرروا الواقعة لمسامع الامير فأرسل اناساً ذوي نباهة لرؤية البلاطة المثقوبة وكيف تمكن المحبوس من الفرار . وبعد الفحص قرروا ان طوق القيد الذي كان في رقبة المحبوس هو مقطوع بالمبرد وهذا ممكن . واما الخروج من ثقب البلاطة فيضيق عن خروج الانسان منه . ومع التسليم بامكان وسعه جسم الهارب نظراً لدقته

فلا يمكنه ذلك لان حوافي الثقب لم تكن مستوية بل على استدارتها زوايد جارحة كون البلاطة مخرمة . ثم اذا الهارب اخرج رجلاه اولا فيعلق من تحت ابطيه . واذا اخرج رأسه اولا فمع علو المكان يسقط على رأسه ويقتل . فحينئذ ترجحت الشبهة على محافظي السجن اولاد زين الدين بان هروبة المحبوس كانت بمعرفتهم . وحيث ما وجد بينة كافية لثبوت ذنبهم فاكتفى الامير بقصاص عايلتهم ان تكون مطرودة من خدمته مؤبداً حسب قاعدته بان الخاين ولو مرة لا تقبل توبته. والامين اذا مات او ادركه العجز فوظيفته لابنه بمعاشها. والعاجز يبقى له معاشه مدة حياته عدا عما يعطى لابنه بالوظيفة . ولهذا ما كان يوجد في خدمته غير امين رحمه الله .

فبعد مضي ايام فاحد الخادمات في بيت الامير توجهت بالسهرة الى حجرة منامة ولده الامير امين لتصلح فراشه فرجعت صارخة بانها وجدت بها شاباً غريباً . فسكته فضربها على يدها فخلع اصبعها وانفلت منها . فاخبروا حارس باب الحريم . واحتاطت الرجال بدار الحريم وفتشوا على الغريم فما وجدوا له اثر . هذا وان دار الحريم كلية الحصانة لا يمكن التسور على جدرانها ولا الدخول اليها من غير بابها المحفوظ باناس ثقاة . فقالوا ان الخادمة كاذبة وان خلع اصبعها كان من سبب آخر كوقعة استلقت الارض بيدها . ولكنه غب التدقيق تحققوا فقد زوج الغدارات الذين يبقوا دايماً بجانب فراش الامير امين. فحينئذ لم يعد شكاً بصدق الخادمة . ولكن وقعت الحيرة في كيفية دخول هذا الرجل الى دار الحريم وخروجه منها مع شدة حصانتها وعلو جدرانها والمحافظون هم ليلا ونهاراً على بابها الذي يبقى مقفولا ولا يفتح الا وقت الاحتياج اليه . وبعد ذلك باشهر اذ كان المكارون على دوابهم قادمون من دمشق الى دير القمر وصحبتهم بضايع وركاب (٥١) نزلوا على نبع نهر الباروك حيث هناك خاناً يباع فيه ما يحتاجه المسافرون ومكاناً لايواء دوابهم فصودف ان واحداً من خدام الامير من اهالي قرية الباروك حضر ليشتري شيئاً من الخان فبمروره على منزل المكارية نظر الى شاب من الركاب القادمون صحبتهم في زي اولاد نصارى دمشق ولكنه لم يكن هاملا في حركاته ولا ظاهر عليه التعب كاولاد المدن ذوي الرفاهية بل كان يمشي ويقمز بكل رشاقة كالغزال خلافاً لباقي الركاب فهم مطروحون كالموتى. فارتاب منه . فاشترى لزومه من الخان ورجع الى القرية واخبر اصحابه عن ارتيابه بهذا الشاب وعدد لهم اوصافه . فواحد منهم قال هذه صفة سليمان الحكيم الهارب من سجن افندينا الامير وانا اعرفه جيداً هلم اليه . فاذا وجدنا انه هو سليمان فنمسكه ونقدمه لسعادة الامير فيكون لنا صدق الخدامة عنده . فتوجهوا نحو عشرة رجال وعندما

قربوا الى الخان تحققوا انه هو سليمان الحكيم بذاته . فتقدموا نحوه فابتعد عنهم . فنادوه ان يقف ليسألوه سوالا اجابهم اني اسمع كلامكم من دون تقريبكم . فسالوه من اين انت وما جنسك . اجابهم انني نصراني من دمشق . قالوا له اصدقنا لان لفظك يدل انك ابن البلاد وانك فلان . حينئذ فر من امامهم فتراكضوا خلفه فما امكنهم لحوقه . فاجتمع عليه رجال ثلاثة قرايا الباروك والفريديس والبتلون واحاطوا به من كل جهة وهو ينفر منهم كالغزال ويروغ عنهم كالثعلب . وبعد ان اعياه التعب امكنهم القبض عليه وشددوا وثاقه فوجدوا معه فرداً من زوج الغدارات المفقودات من محل منامة الامير امين الذي تقدم الكلام عنهما . فاحضروه لعند الامير فامر بتقييده في حبس[1] بتدين ضمن سرايته والاحتفاظ عليه جيداً وتقريره عن مقصوده وعما فعله بكل تدقيق . وارسل كاتباً لتحرير استنطاقه . فسئل اولا عن مقصده وانهم يرغبون معرفة الحقايق بدون تعذيبه بالضرب وغيره وان النجاة بالصدق واذا تعهد بالتوبة فحلم الامير يشمله ليس بالعفو فقط بل غالباً يجعله من جملة خدامه لانه يحب الشجعان النشيطين . فكان جوابه ان غرضي هو يزبكي متمكن في جميع اعضاي فلا أحيد عنه ما دمت حياً واني بخدمة مولاي الشيخ علي العماد وتغربت معه الى بلاد مصر . واما رجوعي منها هو لاجل قتل الشيخ بشير جنبلاط وقتل الامير بشير بأي طريقة امكنتني حسب امر سيدي . وحصانة دار حريم الشيخ بشير منعتني من الدخول اليها ليلا . فاحتلت ودخلت مع الماء الداخل اليها من قناة ضيقة كدت اختنق بها حتى توصلت الى الداخل ولم اظفر بمطلوبي فهربت من الباب والتقادير اوقعتني باليد ووضعوني في سجن دير القمر الداخلاني مقيداً بالحديد . فسئل عن كيفية خلاصه وماذا عمل مع اولاد زين الدين حتى سمحوا في تهريبه . فتنهد وقال هولاء الملاعين هل يوجد ادنى رحمة في قلوبهم نحو احد من البشر حتى يرحموني سيما انني يزبكي وهم جنبلاطية وجنايتي كانت ضد من ينتمون اليه خصوصاً اثنين منهما ابو غوش وثانيه صعب ما اصعبه . فكانوا يضربوني بكل قساوة (٥٢) ويكزون على اسنانهم كانهم يأخذون ثاراً من قاتل ابيهم لعنة الله عليهم . فكان الكاتب يكتب كلما ينطق به . ثم قال ان الخلاص تهيأ لي بالصدفة اذ كنت يوماً امهد ارض السجن بكفي لاجل اصلاحها مكان جلوسي ونومي حيث لا فراش تحتي ولا ضو النهار يصلني وكنت كالمحبوس في صندوق لا ارى الضو سوى عند فتح الباب لمناولتي الطعام الذي لا اقدر ان اتشكى منه لانهم

---

(١) هكذا في ص وفي ج ب سجين .

يقدمون طعاماً الى المحبوسين مما يقدم على موايد الامراء فعثرت يدي على مبرد يظن ان احد المحبوسين قبلي استحضره ليتدبر في قطع قيده وتركه في السجن . فأخذت اولا في قطع الطوق الذي في رقبتي . ثم احتلت لخلع الباب ليلا وخرجت الى الحبس البراني ولم يكن فيه احد سوى اشياء تخص بيت زين الدين منها سيبة عملوها بدير القمر لكي يرسلونها لبيتهم حيث تلزمهم لاجل اشياء كثيرة كالسلم . ووجدت عدة فرس وسكة حديد فصعدت الى نافذة الضو على السيبة . ثم خرقت البلاطة المخرمة بالسكة وسع راسي فاخرجته مع يداي حتى صار نصفي بالخارج . فاستعنت بكبس كفوفي على وجه الحايط بشدة فتملصت من الثقب ونزلت الى الارض واقفاً وهربت الى دمشق . وبعد ايام عزمت ان لا ارجع لمصر بدون قضي غرضي فحضرت الى بتدين لكي احتال بقتل الامير فوجدته دائماً محاطاً بالرجال لا اتمكن منه سوى عند انفراده للنوم . فوجدت انني قادر على التسلق من جهة الاسطبل حيث عمار الحايط بحجارة مقصوبة يمكنني تعليق اظافر يدي ورجلي بها واصعد عليها . (وبالكاد ان الهر يمكنه ذلك) . ثم افتكرت بنزولي ورأيت انني اقدر اقفز عن احد الاسطحة الى ارض الجنينة الشمالية وكان معي خنجراً ماضياً . فتسلقت على الحايط عند تخييم الظلام . وغب صعودي نظرت الى حجرة مضوية فتقربت اليها واصغيت . فلم اسمع فيها حركة . فدخلتها ووجدت فيها فراشاً معتبراً وبجانبه غدارتان فما بقي عندي شكاً انه المكان الذي ينام فيه الامير وانه واضع الغداراتان لضرب من يأتي عليه ليغدر به . فأخذتهما ووقفت بجانب الباب لكي عندما يعبر الامير اضربه بالخنجر في ظهره واتمم عملي . فقبلما ارتب موقفي دخلت امرأة ونظرتني ولا يليق بالرجال قتلها . فارادت تتعلق بي فلطمتها وخرجت فصرخت بأعلى صوتها فتراكض من بالدار وقام الصياح . فاحتسبت من اجتماع الرجال فيصطادوني ولو مهما قتلت منهم . فتوجهت على السطح لجهة الجنينة وقفزت اليها فنزلت سالماً وخرجت منها . واشتد تراكض الرجال بالتفتيش بكل المحلات حول السرايا . فنفدت ولم افتر عن المشي حتى وصلت لعند الشيخ فلان اليزبكي بالعرقوب . فبعته احدى الغدارتين بدون اخباره بشيء مما حصل . وابقيت لي الثانية التي اخذتموها مني . وبالليلة الثانية توجهت لدمشق وكرهت الرجوع لمصر بدون قضي غرضي . فصبرت هذه المدة حتى تتناسى القضية وينقطع الامل من وجودي . والآن حضرت متنكراً[1] املا بحصولي على فرصة تمكنني من نوال مقصودي . فوقعت باليد ووصلت الى هنا . واما

(١) هكذا في ص وفي ج ب مفتكراً .

وعدكم لي ان سعادة الامير ربما يستخدمني عدا عن العفو عني اذا قررت الصدق وتعهدت بالتوبة فهذا تقريري بكل صدق . ولكن التعهد بالتوبة والرجوع عن غرضي البز بكي فهذا غير ممكن واي وقت امتلكت الفرصة لا تؤمن غايلتي . فاعرضوا تقريره على الامير وقال انني كنت ارغب العفو (٥٣) عنه واستخدامه لان شجاعته عديمة المثال ولكن هو حذرنا[1] من غدره وصار من الضروري اعدامه فاشنقوه عاجلا . فشنقوه وتأسف عليه كثيرون .

ومما يحكى عن افراد شجعان الجبل ان الجزار كان استوثق على ثلاثة شبان من اولاد مشايخ ابي نكد فوضعوهم مقيدين بالحديد في حجرة داخل قلعة صيدا المحاطة بمياه البحر والوصول اليها من المدينة على قناطر[2] مبنية قواعد اعمدتها ضمن المياه . ولم يمكن ابايهم ارضاء الجزار بأطلاقهم . فواحد اسمه حنا بيدو من قرايا ساحل صيدا من طايفة الروم الكاثوليك تعهد بانه يحتال في استخلاصهم . فاقتنى حماراً يحمل عليه حطباً جيداً يبيعه في صيدا عند باب الجسر الموصل الى القلعة . فصار محافظوا القلعة يمنعون غيرهم من مشتراه لجودته ويشترونه لانفسهم حتى الزموه اخيراً ان يدخل بحمله لذات القلعة . فداوم المجي وصار احياناً يأتي في آخر النهار ويبيت في القلعة . وعمل صحبة مع المحافظون وكان يدور في القلعة يتفرج على امكنتها . ونظر المشايخ المقيدين فسأل المحافظين عنهم تجاهلا من هؤلاء فأخبروه انهم من دروز الجبل . قال لماذا افندينا لا يقتلهم ويريح الناس من شرهم . قالوا لا بد له غاية من ابقايهم . ثم يحضر للمحافظين بعض هدايا فلوحية فمرة اكم عصفور مصادين بالدبق ومرة زعروراً ومرة لفة خبز رقيق وهذا تتوق نفس اهالي المدن لاكله لعدم استعماله في مخابزهم وهم يسرون بهذه الهدايا ويكرمونه بعطاياهم . وصار معهم كواحد منهم الى انه صار يجتمع بالمحبوسين واخبرهم بانه رسول ابايهم لاستخلاصهم . اجابوه كيف يكون ذلك مع وجودنا مقيدين وضمن قلعة محاطة بالبحر من جميع جهاتها وبابها مقفول والخروج منه يكون داخل المدينة المسورة وعلى بابها مقيم المحافظ بجوق من العسكر تحت السلاح . قال لهم هذا جميعه مطلوب مني فقط يلزمكم قطع القيود وحديد الشباك المطل على البحر وخذوا هذا المبرد استعينوا به على شغلكم متى اخبرتكم ان تعملوه . وليس بهذا اليوم . فتوجه لقريته وصنع خبزاً رقيقاً بغاية الاتقان واشحنه بطحين الزوان في عجينه واحضره هدية لاصحابه المحافظين . وصل به اليهم نحو ان يتعشوا

---

(١) وفي ج ب عذرنا .
(٢) ساقطة من ج ب .

وفرقه عليهم وامر المشايخ بقطع قيودهم مع حديد الشباك المطل على البحر بكل سرعة . واما الحراس فغب ان تعشوا اظهر الزوان مفعوله فيهم وصاروا كالاموات . فعندما دخل الظلام ابتدأ حنا بيدر يربط المشايخ في حبل اعده لذلك واحداً فواحد ويدليهم من الشباك الى صخر مقامة عليه جدران القلعة . وعندما انزلهم ربط الحبل بالشباك ونزل عليه لعندهم . ثم ابتدأ ينقلهم على ظهره واحداً فواحداً سباحة بالبحر حتى اوصلهم الى الشاطىء خارج المدينة ومشى فيهم الى جسر الاولي حدود لبنان حيث كانت الخيول المهيأة لركوبهم مع الرجال المرسلة لرفقتهم من عند اهاليهم تنتظرهم. فركبوا مع مخلصهم ودخلوا دير القمر واقيمت الافراح وكان حنا بيدر يشار اليه بالاصابع وحصل على مزيد الاعتبار والعطايا من جانب المشايخ النكدية فتوطن بعياله في دير القمر وظهر منه بعد ذلك اعمال كلية ظهرت فيها شجاعته وزادت شهرته . (٥٤)

واما الجزار عندما بلغه كيفية استخلاص المشايخ المذكورين من ضمن سجن قلعته مع شدة الاحتفاظ عليهم اغتاظ جداً ووعد بمزيد الانعام الى من يأتيه بحنا بيدر الذي اقتدر على الاحتيال بخلاصهم . وشاع ذلك ولم يتجاسر احد على الوصول لهذا المطلوب الى ان رجلا شجاعاً درزياً من بيت عبد الصمد بقرية عماطور من الشوف حصلت له الفرصة بقتل حنا بيدر فأخذ رأسه الى الجزار املا بحسن الجايزة . فقيل له ان مطلوبي احضار هذا الشجاع حياً لا مقتولا فخاب امله .

ومما حدث بايام الجزار والامير يوسف انه كان في صيدا حاكماً من غلظاء الاتراك مؤذياً لعموم الناس سفيهاً شتاماً قاسياً و بالاخص نحو اهالي لبنان عندما يقتضي لهم اشغالا في صيدا مفوضاً عن مساعدتهم كان يعطل حقوقهم ويهينهم سواء كانوا من الاسلام او من النصارى او من الدروز . وكان معظم قباحاته تتصل بالمشايخ الجنبلاطية لان جوار صيدا من لبنان جميعه يخصهم . فضاق صدرهم عن احتمال قبايحه فتقدم اثنان من اتباعهم اهالي بعدران احدهما نصرانياً مارونياً والآخر درزياً وتعهدا بقتله . وارخص لهما فتقلدا سلاحهما وقصدا مدينة صيدا وتبعهما رجلا مصرياً يسوس الخيل للمشايخ وسلاحه نبوتاً من خشب الشوم ارادا ارجاعه فما ارتضى قايلا انني بقبوتي احمي ظهركم من الغدر اذا تكاثرت عليكم الرجال . فتوافقوا على ان الدرزي يتوجه الى السرايا ويفتك بالحاكم في ديوانه والمصري يحمي قفاه وان النصراني ينتظرهما في باب المدينة يمنع اغلاقه عليهم عند رجوعهما . وكان كذلك . فدخل الدرزي الى ديوان الحاكم وفتك به

واستل يطقانه وهجم على الاتباع فتهاربوا . والمصري يحمي ظهره . وكل من تقرب اليهما يطرحه بضرب النبوت . فخرجا من باب السرايا والنـاس تجتمع عليهما من كل جهة وهم يقاتلان من يقرب اليها الدرزي بحد اليطقان والمصري بالنبوت حتى بلغا باب المدينة فوجدا النصراني يمانع عن غلقه والرجال محتاطة به من كل جانب يضاربونه ويضاربهم ولا يتزعزع عن الباب ليغلقونه . وعندما اجتمع الثلاثة سوية خرجوا من المدينة بالسلامة ولم تزل الرجال تطلبهم . وعندما جازوا دكان صباغ في سوق البياطرة خارج المدينة . وكان بيد الصباغ مخباطاً يطرق به الاقمشة المعدة للصبغ . فضرب المصري بالمخباط على رجله فكسر ساقه وعندما سقط ارتجع رفاقه لتخليصه فقال لهم صار خلاصي غير ممكن وهذا نصيبي فلا يلزم ان تهلكوا بسببي . ولا يمكنكم خلاصي ففوزوا بانفسكم وانا استوفيت حقي سلفاً . وتخلص النصراني والدرزي . وجماعة الحاكم انشغلوا عن طلبهم بقتلهم السايس المصري المذكور بدلا عن سيدهم .

ومما حكي عن زخور الشمعوني من روم كاثوليك دير القمر انه كان شرس الاخلاق ويحصل منه مطاولات كثيرة توجب التشكي منه للامير يوسف حاكم الجبل . وبما ان رجالها يتبعون لشيخهم كليب ابي نكد كان الامير يتكلم مع الشيخ المذكور ان يؤدبه ويردعه . فكلام الشيخ وتهديداته لم تؤثر في زخور فضاق صدر الامير من (٥٥) التشكيات المتنوعة التي تتقدم له عليه . ففي يوم قال للشيخ الى متى تتوارد الشكايات على زخور ولم تقتله فاختار من تريده انا او زخور . اجابه يا سيدي انا عبدك واربي رجالي كاولادي لاجل خدمتك وقد تهددت المذكور مراراً ولكني اقتل رجالي بيدي هذا لا يمكنني ولكن سعادتك انظر له خدمة مهلكة نرسله بها فاما انه يقتل ويرتاح سرك منه واما ان يتممها وتكون كفارة ذنوبه . قال الامير هذا مناسب . يوجد في صيدا اسكافاً اعوراً شريراً جداً حانوته حذا باب المدينة فلا يبطل تعديه على اهالي الجبل من اي مذهب كانوا ولو من الاسلام فيعاملهم بالهزو والسخرية والشتايم الفاحشة . واذا احدهم اجابه بشيء فيهجم عليه بضرب العصا . والعسكر المقيم على باب المدينة عوضاً عن ردعه يضحك وينشرح من فعله وذاك الجبلي لا يوجد له معين . وقد حررت بذلك مراراً لمتسلم صيدا واجاب بانه اجرى الفحص اللازم من العسكر المقيم على باب المدينة بجوار الاسكاف ومن الجيرة وتبرهن لديه كذب الدعوى . فيلزم ان تطلب من زخور قتل هذا الرجل وانه يقطع اذنيه ويحضرهما علامة لفعله . فالشيخ عند المساء استحضر زخور وافهمه عما حصل بينه وبين الامير

بخصوصه وعلى القرار بالقايه بهذه التهلكة التي اوصله اليها عدم قبوله النصيحه . اجاب ان المطلوب بحسب نظرك وصفو خاطر الامير لا احتسبه تهلكة وينقضي كالمرغوب بل احتسبه جبر خاطر لعبده في ارساله لي بهذه الخدمة . قال له الشيخ ان حسن الخدمة بسرعة اتمامها . فيلزمك بالطريق يوم لذهابك ومثله لرجوعك واعطيتك ثلاثة ايام في صيدا لتدبير شغلك . فيلزم ان تسافر مصباح غداً . ثم الشيخ في الصباح توجه لعند الامير واخبره عما حصل مع زخور وعن جوابه وانه بهذا اليوم يتوجه الى صيدا وانه امهله خمسة ايام . اجابه الامير انه غالباً لا يرجع من هذه الخطرة ونرتاح منه . ثم في العشية غب انفضاض سهرة الشيخ ودخوله لاجل المنامة انطرق عليه الباب بان زخور يعوزك بالخارج . فخرج اليه مغضباً قايلا له انك تعهدت بانك تسافر بهذا اليوم وقد اعرضت للامير انك توجهت فانت باق هنا اغرب من امامي . اجابه لا تزعل يا سيدي انني تممت تعهدي فتوجهت لصيدا وتممت مأموريتي وحضرت . قال له وقد قتلت الاسكافي واحضرت اذنيه قال نعم هما معي وكان لي غاية التوفيق في سفرتي هذه وذلك بحسب صفو خاطر الامير وخاطرك . فقال له هلم معي لنعرض ما جرى معك لسعادة الامير . فذهبا الى السرايا وكان الامير دخل ايضاً للمنامة . فطلبه الشيخ على ان زخور حضر من خطرته متمماً مأموريته وهو بمعيته ليقرر ما توقع له . فأمر بدخولها لعنده . وأمر بجلوسها فجلسا . فقال الامير لزخور اشرح لنا ما حصل معك من ساعة سفرك لساعة رجوعك . اجاب زخور ان جناب الشيخ قد طلبني عشية امس لمواجهته واخبرني عن صدور أمر سعادتكم بقتل الاسكافي الاعور في بوابة صيدا وان اتوجه لذلك بهذا اليوم وامهلني بخمسة ايام . وبحسب نية سعادتكم صادفني التوفيق منذ رجوعي لبيتي افتكرت ان سفري ليلا بضو القمر هو اوفق من حر النهار . فتعشيت وحيث انه صيام السيدة تزودت برغيفين (٥٦) ناشفين حيث لا يجوز لي الجبن واللبنة وطلبت من صاحبة الصيام المعونة على مطلوبي (فلم استغرب ذلك اذ الخواجه كواريني الإيطالياني في ذهابه لبيروت احتال في مسك ثلاثة يقتلون ويسلبون المارين احدهم نصراني اعرفه احضرهم لدمشق وقبل قتلهم احضروا لهم خبزاً ولبناً فالنصراني امتنع من اكل اللبن كونه كان يوم الاربعاء) وبعد ان تسلحت في غدارة في زناري وطبر صغير ماضي اخفيته تحت كبوتي . توجهت في طريق صيدا فوصلتها بعد نصف الليل ونمت خارجها الى ان طلع النهار وفتح باب المدينة . فدخلتها وجلست في قهوة قرب الباب المذكور انتظر مطلوبي . فجاء محافظ باب المدينة بالعسكر وجلس

بجماعته على الصفة المختصة بهم . فنظرت في وجه المحافظ فوجدت الغضب ينقط منه . فبعد قليل حضر الاسكافي الاعور وفتح حانوته وصارت اهل القرايا تتوارد على المدينة باشغالها . فهذا الاعور كلما عرف واحداً من اهل الجبل يتحرش فيه ويهينه بالشتايم . واذا رد الجواب ينهض اليه بالعصا . ووجدت ذلك المحافظ ينشرح ويضحك لافعاله عوضاً عن ردعه وتوبيخه . فتاثرت منه اكثر مما تاثرت من ذلك الاعور الذي كنت انتظر قيامه للغدا في بيته او لمصلحة أخرى فاتبعه لزقاق واقتله حيث ذلك لا يمكنني اتمامه وهو قريب من المحافظين واذا طعامه محضره صحبته فأخرجه وتغدى . فانتظرت قيامه لصلاة الظهر فمضى بعده ساعتين ولم يقم فزحمتني الطبيعة للخروج فسألت القهواتي عن المحل المعد لذلك فدلني على خان الدباغة بالقرب من القهوة وانه فاض فداخله قبو واسع معد لنقض الوضوء . فذهبت اليه فوجدته مظلماً جداً لا يدخله النور غير من الباب المملوء من الاقذار . فتعمدت لداخله هرباً من الاقذار وقضيت مصلحتي واذا المحافظ الكبير دخل وجلس يقضي غرض قريب الباب ومن ظلمة المحل لم يراني وجعل قفاه لداخل القبو . فاغتنمت الفرصة ومشيت اليه بخفة والطبر بيدي ونقرته فيه على نقرة القفا بعزم شديد فلله در هذا الطبر لم يحوجني لضربة ثانية فسحبته للظلام واخذت منه ما وجدته معه من الدراهم مع ساعته وخاتمه وزوج غداراته المفضفضة واخفيتها تحت كبوتي . ثم قطعت اذنيه وها هي وقدمها للامير . فقال له اننا ارسلناك لتقتل الاعور لا لكي تستبدله بالمحافظ . اجابه احلم على عبدك حتى اتمم اعراضي عن كلما توقع لي . انني بعد اتمام عملي نظرت داخل من الباب ذاك الاعور مطلوبي . فجلس يقضي غرض كالاول فبمثل لمح البصر الحقته بالاول وسحبته للداخل ووجدت معه قليل من الدراهم فأخذتها وقطعت أذنيه وها هما وخرجت من المدينة وعندما وصلت لجسر الاولي ودخلت في حدود الجبل جلست للراحة على جانب الجسر واشعلت غليوني وصرخت للخاناتي هناك ان ياتيني بفنجان قهوة فأتاني به . ثم نظرت الى حافة النهر اسفل فوجدت فارساً يتوضا لصلاة العصر وفرسه جميلة ترعى بحافة النهر فسالت عنه الخاناتي قال لي هذا فلان من مشايخ المتاولة في بلاد الشقيف فعرفت اسمه لاني سمعت من جانب الشيخ يذكر في مجلسه اسمه وان خاطر سعادتك متعكر عليه بسبب عدم رجوعه عن قباحاته . فقال له الامير والنتيجة من هذه الخبرية ما هي اجابه زخور يا سيدي احلم على عبدك حتى اكمل كلامي . انني صرفت الخاناتي واعطيته ثمن القهوة . وتركت (٥٧) الشيخ حتى اكمل وضوءه واحرم للصلاة فنزلت اليه ومع

بجوده كان الطبر ازاح رأسه عن بدنه . فعريته وقلبته الى النهر بعد قطع اذنيه وها هما وجمعت حوايجه وربطتها على مؤخر الفرس ولبست عباته وركبت الفرس ومشيت . فبوصولي لعند مفرق القني وجدت قال له الامير هل باقي خبر آخر اجابه نعم لكن هو الاخير بانني نظرت اثنين متاولة يسوقون عشرة حمير محملة ومع كل منها بارودة فعندما نظروني الظاهر انهم عرفوا فرس شيخهم التي تحتي وعباته على اكتافي فلم يشكوا بقتله فأطلقوا بواريدهم علي فواحدة لم تشعل والثانية رصاصها اخطاني فهجمت عليهم وضربت اولا الذي لم تشعل بارودته بسيف شيخه فوقع قتيلا ثم الحقت فيه رفيقه فحولت وقطعت اذانهما وها هي ثم ركبت وسقت الحمير امامي وهي الآن مع فرس الشيخ مربوطة خارج البلد تحت امر سعادتك لمن يستلمها . اجابه ان هذه الاشياء من كلما اخذته هو لك وصباحاً تقبض من خزينتي خمساية غرش . حينئذ قال الشيخ للامير ارجوك ان تعذرني بعدم قتلي هكذا شبان حفظتهم لخدمتك . اجابه انك محق بذلك وانصرف كل لمحله.

ومن شجعان لبنان الذين اعرفهم وكثر اجتماعي بهم الشيخ يوسف الخوري الشلفون الماروني . وكان شهماً كريماً يسكن في برج البراجنه خارج بيروت . فمرة خرج اليه جمهور منها لكي يغدروا به في ارض الحرش فهزمهم بسيفه . ومرة توامروا عليه وهو داخل المدينة فبسيفه بدد جوعهم وقفلت الحوانيت وتهارب الناس من سطوته وخرج من المدينة وسيفه مسلولاً بيده لا يتجاسر احد علي الدنو اليه حال كونه لطيف المعاشرة حسن الاخلاق عربي الكرام لا يرد سايلاً. وكان في خدمة اولاد الامير يوسف وعندماتشتعل نار الحرب بينهم وبين الامير بشير كان يوسف الخوري من اعظم المضرين لتدابير الامير حتى انه سطا مراراً على الذخاير الواردة لعسكر الامير واخذها من يد الرجال محافظيها واستاقها لمعسكر اولاد الامير يوسف . فعندما قتل جرجس باز واخيه وطفيت اعين اولاد الامير يوسف صدر امر الامير بشير بالقبض على يوسف الخوري فلم يقع باليد وصار التفتيش عليه بمأمورين صحبتهم رجال اشداء بان يحضروه حياً او مقتولاً. فكانوا يدورون عليه في البلدان والبراري ويرجعون بالخبر انه لم يظهر له اثر. ومضى مدة بالفحص عنه وظنوا انه هرب لمصر او لحلب وتركوا الفحص عنه . ففي ذات يوم اذ كان الامير جالساً في ديوانه انتصب امامه يوسف المذكور قايلاً ان سعادتك ارسلت رجالا لمسكي فهم عاجزون عني واما امرك يجلبني بدون رجال فعبدك كنت خادماً لاولاد عمك بكل نشاط وصداقة كما يجب على ذمة الخادم فاذا كانت خدمتي الصادقة لاسيادي ممكن لعدالتكم احتسابها ذنباً فانني حضرت بنفسي فأجروا

قصاصي بما تريدونه . فالامير انشرح من شجاعته وكلامه فقال له كن مطمان البال وامر له بالجلوس ثم بالقهوة . وغب شربه لها ساله الامير عن مكان اختفايه حتى ما امكن المفتشين معرفته . اجابه انني لم اختبي قط وكنت انتقل ضمن البلاد من قرية الى قرية وكثيراً ما صادفت في طريقي جماهير من المفتشين وعندما اهجم عليهم يهربون من وجهي . ففلان قابلته بالمحل الفلاني ومعه عشرة رجال قد هرب برجاله وفلان وفلان قابلتهم مع رجالهم بمحلات (٥٨) كذا وكذا فلم يتجاسروا على مقابلة عبدكم وجميعهم يعرفون اني لا امكنهم من مسكي ما دمت حياً ولا يتمكنون من قتلي الابهلاك اكثرهم ولتأكيدي عدالتك وانصافك بانك لا تدينني على نشاطي بخدمة اولياء امري طرحت نفسي بين اقدامك ولم ارتضي بتذليل نفسي وتسليمها ليد خدام امثالي . فالامير زاد انشراحه من ترتيب عبارته وقال له اتخدمني كخدمتك لاولاد عمي . اجابه وهل تحصل لي السعادة في يوم يهرق فيه دمي بين ارجل حصانك . فامر باحضار فرو من السمور ألبسه اياه علامة لانشراح خاطر الامير عليه وقال له الامير قد وليتك على اعمال ساحل بيروت القاطن فيه وانت عندي عزيز مكرم وستشاهد كلما يسر خاطرك . فخدم الامير بكل صداقة وتغرب معه عن وطنه الى حوران ثم الى مصر وبلاد الصعيد . ولم يزل بصدق الخدمة لحين وفاته رحمه الله .

ولنذكر ما يتعلق بعيلة جرجس مشاقه ولئن كان ذلك ليس هو ذو اهمية انما نذكره اجابة لمرغوب الطالب. فقد ولد لجرجس بعد محرره مخاييل (ولدين من الذكور) احدهما جبرائيل الذي هو الآن بوظيفة قاضي بمدينة زحله ولد سنة ١٨٠٥ والثاني روفائيل الذي هو الآن عضواً في مجلس محاكمة المتصرفية بسراية بيت الدين بدير القمر ولد سنة ١٨٠٩ . فصاروا جملة اولاده الذكور الذين عاشوا خمسة ما عدا خمسة اناث قد عاشوا لا حاجة لذكرهن . فجرجس مشاقه احتساباً من تقلبات الدهر على اولاده كما تقلبت عليه ولا صناعة بيده ليعيش منها عمد الى تعليمهم الصنايع بعد تعليمهم القراءة والكتابة ولم يكتف بتعليم الواحد صناعة واحدة بل كلما تعلم احدهم صناعة ينقله لغيرها . فكان نصيب محرره ولده مخاييل اتقان اربعة صنايع. وبعد سنين تعلق على صناعتين غير الاربعة الاولى. ثم بعد تعليم اولاده الصناعة عمد الى ما يبعدهم عن مخالطة الحكام بسبب ما وقع على والده وعليه من مخالطتهم . وصمم على ارسالهم لعند عمهم واخوالهم في بلاد مصر يتعلمون التجارة . فابراهيم البكر لم تسمح والدته بارساله لتفرح بزواجه باكراً . فزوجته اذ كان عمره ثماني عشرة سنة . اما اندراوس ارسلوه لعند عمه

انطون بدمياط اذ كان عمره ستة عشر سنة . واما ميخاييل فقد مالت افكاره لمعرفة الحساب وبذاك الوقت لم يوجد بدير القمر من يعرف اكثر من الجمع واذا اراد احدهم ان يحسب ثمن سبعة ارطال في سعر الرطل سبعة عشر وربع مثلا يلتزم ان يرقم السعر سبع مرات ويجمعه . واما والده فكان يعرف الضرب والقسمة ومسك الدفاتر بالتلقي عن ابيه . فعلم اولاده طريقة الضرب والقسمة . ثم كان ميخاييل يسمع من اليهود اخبار كسوف الشمس وخسوف القمر قبل حدوثهما . وهم يزعمون كما في ايامنا ان حاخاميهم يعرفون حسابها ولا يقروا بانه يأتيهم من اوروبا مكتوبة في ألمناك تلك السنة وكنت اصدق بهتانهم . وفي الحديث انهم قوم بهت ولذلك التصقت بواحد منهم يقولون انه يقرأ (اي عالم هكذا اصطلاحهم) اسمه اسحق الازعري واخبرني انه خبير باستخراج حساب الكسوفات وبوقتها ما كنت اعرف ما يلزم ذلك من الحسابات المدققة والتقويمات الكثيرة ومعرفة الجيوب والاطوال والعروض وقوس النهار واختلاف المناظر وغير ذلك وان قراءة التلمود لا تفيد علم الافلاك فلذلك التمست منه ان يعلمني واجزيته على تعليمي . فبقيت جملة اشهر اتردد عليه وهو يوعدني ولا يقرّ بجهله حتى يئست منه فتركته . (٥٩) وبذات يوم ارسلني والدي بمصلحته لعند القس كيرللوس فرح احد الرهبان الخدام الروحيين لكاثوليك دير القمر فوجدته يطالع في كتاب بخط اليد فيه جداول وارقام حسابية ومذكور فيه اسماء الشمس والقمر ففرحت جداً وقلت في نفسي قد حصلت على مرغوبي بمعرفة علم الفلك حيث حضرة الاب يعرفه فأترجاه ان يعلمني . فقلت له ما هذا الكتاب . فاجابني بعبوسٍ هذا شيء عميق لا تقدر على فهمه اسمه الكيكلس تاليف الاباء القديسين منه نقدر نعرف مواقع الاعياد المنتقلة ولو الى سنين كثيرة واوايل السنين والاشهر الرومية ومبدأ الهلال في كل شهر وغير ذلك من المعارف السامية على ادراك العامة . وبالاختصار انني نظرت من هذا القس ان يحتسب نفسه بالمعارف نظير الفيلسوف ارشيميدس او كالحكيم اسحق نويتون او ارفع منهما حيث يقدر على ادراك ما تحرر في كتاب الكيكلس . فتوسلت لدى حضرته ان يسمح لي بنسخ هذا الكتاب ويتكرم فيما بعد بتعليمي فيه وقررت له عما حصل لي مع اليهودي . اجابني يا ولدي هؤلاء لا يوجد عندهم علماء بارعين نظيرنا . ثم تكرم علي بان انسخ هذا الكتاب عنده حيث لا يمكنه السماح بخروجه ويبقى يعلمني فيه وقتما يمتلك فرصة . فأحضرت لوازم الكتابة وباشرت بنساخته وتممتها بعد ايام ووجدته سهل المفهومية لا يحتاج لمرشد ولكن حضرة الاب كيرلس كان عند قراته فيه

يحتاج لتهجئة بعض الفاظه وربما يلفظها بخلاف منطوق حروفها وهذا دليل على سعة معارفه . فتركته واجتهدت بمطالعة الكتاب لنفسي ولكونه سهلاً تمكنت بمعرفة ما تضمنه جيداً . ولكنني لم احصل منه على مرغوبي من معرفة مواقع الكسوفات . وبما انني كنت اصدق مزعومات الدجالين بانها تعلن بحوادث عظيمة كالحروب والوباء وموت بعض الكبراء فرغبتها لذلك . في سنة ١٨١٤ حضر لعندنا من دمياط خالي بطرس عنحوري وهو من معتبري تجارها بقصد معالجة عيون احدى بناته لانه وقتئذ لم يكن في تلك البلاد اطباء يركن اليهم . وكانت الشهرة في معالجة العيون في بلاد الشام الى روفاييل نهره الغبغوب القاطن بقرية صغبين من غربي البقاع . فوالدي تعهد له بدفع مبلغ جسيم على ان يتوجه لدمياط فما رضي . فاضطر خالي ان يحضر بنفسه لعندنا واستحضر الغبغوب وابنه فرح القاطن الآن في بيروت الى دير القمر وعالج عيون البنت مدة ونالت الشفاء بواسطته . فعندما خالي استراح من مشقة السفر ومن استحضار الكحال لمعالجة ابنته اخرج كتبه من صندوقه فنظرت ما هو مكتوب على ظهرها . فوجدت على ظهر الواحد علم الهيئة لديلالند الفرنساوي وعلى الثاني ديلالند تقويم الكواكب وعلى الثالث حاشية الاشمندريتي انثيموس غازي على كتاب بنيامين الانكليزي في علم الطبيعة وعلى الرابع علم الطبيعيات للمعلم ريغا البلاستنلي وعلى الخامس الماخذ الحديث (٦٠) في تقويم الكسوفات لبطرس عنحوري الذي هو خالي المذكور مع كتب اخرى تأليفه وتأليف غيره من موضوعات متنوعة ففتحتها ووجدت جميعها خطاً بالعربية . وما كان منها اصله بلغة اجنبية فهو مترجم باعتناء باسيلي فخر قنصل فرانسه بدمياط . وعند وقوفي عليها سيما كتاب تقويم الكسوفات حصل عندي مزيد الفرح لاعتقادي بانني متى عرفتها تصير اسرار الكون مبسوطة امامي . وتمثلت بكلام داود النبي (الفلك يخبر باعمال يديه) اذاً علم الفلك يخبرني عن كلما صنعه ويصنعه الباري تعالى . فقصر عقلي وضيق معارفي كانا يورطاني الى تصديق خرافات كهذه . حينئذ سألت خالي هل حضرتك تعرف علم الفلك وكيف عرفته مع ان بلدتنا كبيرة وهي كرسي حكم سعادة الامير الذي يسمونه سلطان البر فلا يوجد بها انسان يعرف بالفلك . فضحك من كلامي وقال لي يا ولدي يلزمك ان تعرف بان بلدتكم هذه هي صغيرة جداً اذا قيست بالمدن العظام ولا تكون الا كحارة صغيرة من حاراتها . اجبته كيف تقول عنها صغيرة ويمكن ان اهاليها يبلغ عددهم اربعة آلاف نفس . قال لي ان دمياط تحتوي على ثلاثين او اربعين الف نفس منهم كثير علماء واصحاب معارف وانا

تلقيت العلوم الفلكية وغيرها اولا عن استاذي الشيخ محمد الصباغ الميقاتي الشهير. ثم لما اتى بونابارته على مصر بالعسكر الفرنساوي وتملكها سنة ١٧٩٩ والانكليز ربطوا عليه البحر وتعطلت التجارة لم اضيع الوقت بل اجتهدت بتعلم لغة الفرنساويين وكان بينهم علماء كثيرين فتلقيت عنهم علم الاكتشافات الجديدة بعلم الفلك والطبيعة والجغرافية . فاذا كنت ترغب ان تتعلم فانا اعلمك لانني فاضي من الاشغال وقصدي ابقى عندكم مدة الشتاء والربيع بقصد مشاهدة حوادث الجو التي لا تحصل في اقليم مصر . والآن فصل الصيف فتكون المدة طويلة . فاذا اجتهدت وفتحت ذهنك للتعليم تحصل كثيراً مما ترغب فيه وانا اعمل جهدي بافادتك . فشكرته على جميع صنعه معي . في ثاني يوم ابتدأت بدرس كتاب المأخذ الحديث تأليف خالي لانه سهل الفهم واقرب لوصولي لمعرفة تقويم الكسوفات . ففي مدة شهرين خلصت منه مع عدم تعطيلي عن الشغل بصناعتي. فأخذت في كل يوم من ايام الشغل درسين صباحاً ومساء وايام البطالة بتمامها بعد حضوري فرض القداس اقضيها بالمطالعة . وهكذا اقضي السهرات وصرت اقدر على تقويم خسوف القمر لسهولته عن الشمس حيث لا يلزم فيه معرفة كلما يلزم لتقويم كسوف الشمس . ولم يحضر وقت سفر خالي حتى تمكنت من صناعة التقويم . وفهمت ما تيسر لي من علم الهيئة والطبيعة من مؤلفات ديلالند وبنيامين وغيرهما . وصادفني التوفيق بان خالي احب لبنان فغاب مدة ورجع مصحباً معه عيلته واتسع معي (٦١) المجال بالاستفادة من معارفه . ومع علمه كان من ذوي العقول الراجحة الثاقبة . متى عرف مبدأ قضية يعرف منتهاها بكل سرعة .

ففي سنة ١٨١٧ اراد والدي ارسالي لدمياط لعند عمي كما ارسل اخي قبلا . فخالي استحسن ذلك وألف لي رسالة تتضمن كلما يلزمني هناك من عوايدهم واصطلاحاتهم واختلافات موازينهم ومعاملاتهم وكيفية المحافظة على الصحة بحسب طبيعة تلك البلاد . وشرح بعض علاجات مع وصايا ونصائح حكيمة واعطاني تحريرات توصية بي لاصحابه هناك . وسافرت اليها في اواخر الصيف عندما يفيض نهر النيل ويعتدل هواها لان اقليم مصر يخالف بلادنا ففصل الربيع فيه ردي جداً واحسن هواها يكون في فصل الخريف. فعوضاً عن قولنا ربيعة جميلة فهم يقولون خريفة كويسة بمعنى جميلة . فغب وصولي لدمياط اقمت في بيت عمي الذي حضر اليه قبلي بنحو خمس سنوات اخي اندراوس . وكنت كتب معه في مخزن عمي الذي فيه ايضاً كاتبان غيرنا . وعملت لنفسي شغلا

صغيراً لخاصتي اربح منه كبقية الكتاب . وكانا عمي واخي يسعفاني في اسمها عند اللزوم حتى بقرضة الدراهم لدفع استحقاق لم يكن عندي جاهزاً بالحاضر لدفعه . فصار عندي رأسمال يرتضي به مثلي .

فالذي جرى بتلك السنة في بلاد مصر ان واليها محمد علي باشا الشهير كان ارسل كتخدايه محمد بك الى الصعيد ليباشر بعيداً عن مصر ترتيب عسكر منتظم كعساكر دول اوروبا التي استحضر منها معلمين. وعمل ذلك بعيداً خشية من قيام عسكر الترك ضده كما وقع للسلطان سليم وقتلوه عندما اراد ان يعمل عسكراً منتظماً . فمحمد علي باشا ابعد عنه اكثر عسكر الاتراك بارساله الى الحجاز لمحاربة الوهابي وعسير . ومع هذا لم يسلم من الخطر . فعندما عرف المؤامرة عليه من العسكر الباقي في مصر ان يهجموا عليه تحصن بقلعة الجبل وارسل اناساً ينهبوا سوق خان الحمزاوي لينظر العسكر النهب ويشتغل به فتكون له الفرصة بتدبير نفسه . فبعد ان ترتب وارتاح فكره ابتدأ في قطع مرتب العساكر تدريجياً وتسفيرهم لبر الترك . وبوقتها كانت الاسكندرية خراباً لا يصلها الماء الا قليلا بايام فيضان نهر النيل فقط . وكانت دمياط ميناء بلاد مصر. فكانت هذه العساكر ترد اليها بمراكب النيل ومنها تنتظرهم مراكب بحر المالح لتأخذهم لبلادهم . لكن كنا نسمع ان مركباً كبيراً فقط واقف خارج البوغاز لم يسافر قط وكلما ورد عساكر ترسل اليه . وجملة الوف التي دخلته تدريجياً واختفى خبرها قيل انه عند طلوع العسكري اليه من جانبه الواحد تطرحه الرجال بالبحر من الجانب الآخر بعد ان يربطوا في عنقه جرة مملوة رملا. فلا نعلم الصحيح . وهكذا صار يستحضر عسكر الاتراك من الحجاز ضابط فضابط مع عسكره وينفيهم على الطريقة المشروحة . وبذلك تمكن من اتقان عسكر النظام . واما اصحاب الحوانيت التي انتهبت بالحمزاوي تحول حزنهم الى فرح عندما صدر الامر من محمد علي باشا بان يكتبوا قيمة منهوباتهم ويحلفوا يمين على صحتها ويقبضوها من خزينته . فكم يوجد بضايع كاسدة لا تباع من عدة سنين قد نفقت عنهم بالنهب وقبضوا اثمانها ولم يعد يخشى من الفتن .

وفي هذه السنة وضعت الحكومة يدها على معامل الارز وصارت تبيعه للتجار من يدها . وسنة ١٨١٨ وضعت يدها (٦٢) على جميع الاشغال الاقمشة من حرير وكتان وقطن . وهكذا بالتدريج وضعت يدها على جميع محصولات الاقليم من حبوب واقطان وكتان وجلود لا يقدر التاجر على مشتراها لتجارته الا من يد الحكومة . ودام ذلك لحين رفع يد والي مصر عن الشام سنة ١٨٤٠ واستقلال

محمد علي باشا وذريته بأحكام داخلية بلاد مصر بواسطة الدول العظام الاجنبية تحت شروط ودفع مال سنوي للدولة العلية ورفع يده عن الصنايع وعن حجز محصولات الاقليم بان تكون التجاره حرة كما تكون ايضاً الحرية الداخلية لارباب الصنايع.

وبهذه السنة اي سنة ١٨١٨ تبلبلت افكاري في امور الديانة مما كنت اراه فيما يجب علي تصديقه من اوامرها التي تأباها العقول السليمة . سيما وانني رأيت كثيرين من اهالي دمياط اسلام ونصارى مبلبلي الافكار بأكثر مني . وقد زاد بلبالي بمطالعتي كتاب سياحة المعلم فولني الفرنساوي عندما يتكلم عن سياحته في لبنان ووصوله الى خرابات تدمر وذلك بان الخواجه باسيلي فخر المعتني بترجمة الكتب الى اللغة العربية قد ترجم هذا الكتاب وبذاك الوقت ما كان يوجد مطابع بالاقليم المصري ليطبعها . فالخواجه ميخاييل سرور قنصل الانكليز بدمياط استنسخ هذا الكتاب ولكونه من انسبائي طلب مني ان اقابل معه تلك النسخة على اصلها احتساباً من التحريف . فأجبت لمطلوبه ومن هذه المقابلة زاد بلبالي. ولكن بقيت محافظاً على ما تلقيته عن اهلي . وبهذه السنة اجتهدت بتحصيل علم الموسيقى والعمل على آلاتها من ذوات الاوتار وذوات النفخ . فحصلت منها ما امكنني والسبب في جهدي اني كنت مع اخي وجماعة من الاصحاب في عرس واذ كانت الموسيقى تشتغل سألني رجل بجانبي ما هو اللحن الذي يشتغلونه فقبل ان اعترف له بجهلي فكان قريب الينا رجل عكاوي قد تربى بدمياط عمره نحو خمسين سنة يدعي الظرافة واتساع المعارف تعرض لمجاوبة السايل بقوله له عني هذا جبلي لساه بعبله لا يفهم شي . انا اخبرك ان الشغل هو اللحن الفلاني . فتأثرت جداً من غلاظة هذا الرجل وقلت في ضميري ان اهالي لبنان يمتازون عن عامة بلاد صفد الذين هو منهم وان عمي واخي بدمياط يعتبرون اكثر منه عند اكابر البلدة فضلا عن امثاله ولكن ما دمت جاهلا فيما سيلت عنه فيلزمني الصبر على احتمال ما وصفني به . فتلك الليلة رقدت مهموماً ونهضت صباحاً لعند رجل من احسن الموسيقيين يشتغل على جميع انواع آلاتها العربية وطلبت منه ان يعلمني العمل على اسهلها . فاختار لي القانون وعين لي ساعة في كل يوم يحضر لعندي فيها آخر النهار عندما اخلص من شغلي . وهكذا داومني . وبوقتها اخترعت جدولا اكتب ضمنه التلحينات التي يقدمها لتعليمي . وبمدة شهرين صرت أميز بين الالحان جيداً وبعد ذلك امكنني معرفة العمل على بقية الآلات بدون مرشد الى انه امكنني بعد سنين ان أولف رسالة بهذا الفن لم ينسج على منوالها . فصودف حضوري بمجلس فيه ذاك العكاوي المتظرف السابق ذكره. وسئل من احد

الحاضرين عن اسم لحن كانوا يغنونه وقتئذ فقال عنه حجاز حال كونه سيكاه ولا يمكن اشتباه احدهما بالآخر. فتحقق عندي جهله بهذا (٦٣) الفن فاغتنمت الفرصة لاخذ الثار منه بتقريعه امام الحاضرين فقلت له يا خواجه منذ مدة سالني فلان عن لحن فجابك تدعي اللطف والظرافة ولكن لطفك لم يسمح لك بالصبر حتى تسمع جوابي لربما كان يرضيك اعتراف اللبناني بجهله فن الموسيقى وحينئذ تبدي معارفك ولا توصمني يجعلك اهالي لبنان لساهم بعبلهم والآن اتضح لي انه من بعد اقامتك في بر مصر اربعين سنة لا اقول لك كلمتك التي استحسنها لطفك انك لساك بعبلك حيث اننا في لبنان نتحاشى الكلام الغليظ ولا ندعي بمعرفة ما لا نعرفه كما حضرتك تدعي علم الموسيقى ولا تميز بين الحجاز والسيكاه اللذين بينها فرق كما بين الصفدي واللبناني لا يشتبه احدهما بالآخر. فأراد ان يبرهن عن صحة جوابه فنفس الحاضرين ممن يعرفون الموسيقى اوضحوا له عدم معرفته بهذا الفن واخجلوه .

ثم بلغنا اخبار ايالة صيدا . منها وفاة علي باشا كتخداى سليمان باشا واليها ووضع مكانه ولده عبد الله بك . ثم بنا الشيخ بشير جنبلاط جامعاً ومأذنة في داره بقرية المختاره وزيادة تظاهره بدين الاسلام . ثم ان الامير حسن ابن خال الامير بشير قتل والده وعمه خالي الامير وتظاهر بدين الاسلام وانه قتلها لكونهما نصرانيان . فأرسل الى عكه وصار الخبر انه صار اعدامه سراً حال كون سليمان باشا ارسله الى محبس في الاستانة . وفيما بعد استحضره عبدالله باشا الى لبنان وقتله اخوه الامير اسعد . ثم الامير بشير قتل قاضي دير القمر الشيخ شرف الدين وكان مصاباً بفقد عينه الواحدة وهو من الاذكياء المهذبين ممدوح السيرة غير انه قد وجد من يهجي الورد فقال فيه احد الشعراء بعد قتله :

الحق ميزان الرضى	في عينتين بلا نقط
هل شمت ميزاناً اتى	لحق في عين فقط

فالامير بشير دخلت عنده الوساوس من هذه الحوادث وربما القاها في فكره بعض مبغضي الشيخ بشير جنبلاط بان الشيخ المرقوم هو الساعي بها يمكنه اختطاف حكم الجبل لنفسه من يد الشهابيين فتظاهر بدين الاسلام واحدث جامعاً في بيته وزاد على ذلك ارجاعه المال الذي اخذه جرماً بمدة حياته لاصحابه او لورثاهم بعين عملته وكان مبالغ جسيمة . وهو الذي دبر ابن خالك الامير حسن على التظاهر بدين الاسلام وقتل والده وعمه كونهما تنصرا . والقول بانه قتل والده ضمن الكنيسة . فالشيخ بشير عندما فهم ذلك احترز على نفسه واجتهد بازالة هذه

الوساوس من فكر الامير (والحق ان الشيخ بشير هو من الرجال العقلاء الشهيرين بمعرفة طرق السياسة الموافقة للعوايد المعتبرة عند اهالي لبنان ورؤساء عشايره وانه من الغير ممكن قبولهم ان ريس عشيرة منهم يصير حاكماً فوق رؤساء العشاير. ولكن يمكن لاخصامه القول انه عندما نظر لامتداد سطوة الامير احتسب منها واراد استبداله بأمير ضعيف يجعله منقاداً اليه ولكن امتداد الوقت اظهر للعيان بان الشيخ بشير لم يكن متعمداً عمل شيء مما ذكر). وكفى برهاناً على ذلك مرافقته للامير عندما حكم غيره على لبنان وقام معه برجاله الى حوران كما يأتي الكلام على ذلك بمحله. (٦٤)

. . . .

. . . .

. . . .

وبقيت في دمياط ثلاث سنين. وفي كل سنة انحبس نحو خمسة اشهر في البيت بسبب الطاعون. فقلت لاخي ان الاقامة بهذه البلاد هي مخاطرة بالنفس لغير ضرورة محوجة فالاحسن هو رجوعنا لبيت اهلنا. فرجع اخي وبقيت لتخليص اشغالنا. وفي اوايل سنة ١٨٢٠ رجعت لدير القمر وعملت لنفسي شغلا بتشغيل الاقمشة الحريرية كوني احسن ادارتها لمعرفتي الصنايع المعينة على اتقانها ولكنه لم تمضي نصف السنة حتى ابتدأ التقلب في احوال حكومة ايالة صيدا. لان سليمان باشا كان توفي قبل رجوعي من دمياط والمعلم حاييم استحسن استحصال الولاية لعبدالله بك ابن علي باشا المتوفي لان سليمان باشا لم يكن له اولاد ولكن عنده ابن اخيه مصطفى بك والد سليمان بك احد اعضاء مجلس ادارة ولاية في سوريا حالاً. فمحبي سليمان باشا تكلموا مع المعلم حاييم ان يسعى بالولاية لمصطفى بك لكونه حليم الطباع كعمه فما سمع لهم. وقال ان عبدالله بك مولود البلاد وتعبنا عليه بتعليم العربية والخط الجميل والعلوم الشرعية. ومن بعد وفاة ابيه توظف كتخدا ومارس اعمال الحكومة فلا يصح ان نقدم عليه من كان ضعيف العربية والخط ولا يعرف العلوم الشرعية ولا مارس اعمال الحكومة. ان الدولة العلية لم ترتضي في اول الامر بتوجيه الولاية لعبد الله بك اذ انه صغير السن مع انه كان في سن الثاني وعشرين سنة وتمنعت عن ذلك تسعة اشهر. وكان الامير بشير بسطوته محافظاً على عدم القلق في عموم الايالة اذ جميع العشاير تهابه. ولكن بواسطة المعلم حزقيال الاسرائيلي الموجود وقتئذ صرافاً في الباب العالي امكنه ارضاء الدولة ووجهت منصب ولاية صيدا على عبدالله بك وجعلته وزيراً.

وبعد ان استولى عبدالله باشا على الايالة ابقى كل مأموريها على وظايفهم التي كانت بيدهم عند وفاة (٦٦) سليمان باشا . وكان الفرح عند عموم الاهالي بتوليته لانه تربية سليمان باشا الذي كانت ايامه سعيدة على الرعية والمأمورين . وبقي كل شيء بيد المعلم حايم كما كان حتى خزينة مال الوزير كانت في بيته وتحت تصرفه . الا ان عبدالله باشا لم يتصرف بالرزانة المطلوب وجودها بالوزراء حتى انه صار يختلط بالاوباش ويدخل بينهم في حلقة الذكر ويعاشرهم . فالمعلم حايم المملو من الحكمة والتهذيب قد ساءه هذا التصرف من ولي امره . وبحسب صدقه في خداميته قدم له النصيحة بان عمله هذا لا يليق بأمثاله ان يتنازل لمخالطة الادنياء . فاذا كان لا بد من الاذكار فيكون عملها مع اناس لايقين كالقاضي والمفتي ونقيب الاشراف والعلماء . (قال سليمان الحكيم لا توبخ الجهال لئلا يمقتوك . وبخ حكيماً فيحبك) . فالمعلم حايم كان في وهمه ان عبد الله باشا يرضخ لنصيحته ويعرف حقوق صداقته بخداماته الكلية سيما وانه صار من طغمة العلماء ولم يفتكر بان الجهالة متغلبة عليه . واما عبدالله باشا عوضاً عن قبول النصيحة واظهار الممنونية للذي نبه على غلطه وان يصلحه فتقدم الى ما هو ابعد عن الصواب . فانه اباح لاوليك الاوباش بما قاله ذاك الناصح الامين الذي عندما عرفوا ذلك خافوا من ان الباشا يقبل النصيحة ولو بعد مدة . ولا بد ان المعلم حايم يداوم النصيحة وحينئذ يخسرون ما يربحون من قربهم اليه . فأخذوا بالاحتيال بقولهم ان هذا اليهودي صار متكبراً جداً على الاسلام حتى ان الكثيرين صاروا يقبلون يده كأنه وزير او قاضي . وقد اخبرنا القرآن العظيم بانهم اشد عداوة للذين آمنوا . فكيف يليق بالمسلم ان يركن اليهم ويأتمنهم . ان المرحوم عمك سليمان باشا كان رجل بسيط القلب وداخل عليه غش اليهود . فهو ماسك قرون البقرة واليهود يأكلون حليبها حتى مال خزينته موضوع في بيت هذا اليهودي . يا ترى هل انه يوجد واحد من المسلمين يعرف ما دخل للخزينة من الاموال وما خرج منها او ان المرحوم عمك كان يعرف شيئاً من ذلك . ان خزينة الوزير هي بيت مال المسلمين هل يجوز وضعها تحت يد يهودي وايتمانه عليها حال كونه اشد عداوة للمسلمين ويشهد بذلك رب العالمين . فهل يوجد شهادة اعظم من هذه التي يكفر منكرها . وهل يجوز استخدام اليهودي في مصالح الحكم ومصالح المسلمين ان هذا ما اجازه احد من الايمة الاربعة مذاهب المسلمين . فعمك المرحوم يعذر بكونه لا يعرف الوجه الشرعي . واما سعادتك لا يخفاك مسئلة من مسائل الشريعة ولهذا لا تعذر في اهمال شيء منها . فعبد الله باشا

تحرك غيظه على المعلم حاييم متأثراً من كلام هؤلاء الاوباش. وثاني يوم طلب من المعلم حاييم احضار مال الخزينة من بيته ليصير حفظه في محل ضمن السرايا فأحضره كامره . ثم بعد ذلك نبه عليه ان يلازم (٦٧) بيته وسلم وظيفة رياسة كتاب الخزينة الى المعلم يوسف قرداحي من موارنة صيدا . بعد ان المعلم جرجس مسديه رفض قبولها . وبعد ذلك احتال اوليك الاوباش على اهلاك المعلم حاييم بواسطة شخصين من جلساء الوزير يكرهان المعلم المذكور اذ كان يمنع وصولها لما يرغبانه مما لا يوافق المصلحة وهما الشيخ مسعود الماضي من ساحل عتليت وعمر افندي البغدادي الذي عندما كثر فساده اطفى عبدالله باشا عينيه بالمكاوي النارية . فهذان الشخصان في احدى الجلسات عند عبدالله باشا قالا له ان جميع الاسلام فرحوا برفعك ثقل نير اليهودي عن اعناق المسلمين. وبمقدار فرحهم خوفهم من مكره وسحره لانه ساحر ذو مهارة بعمل السحر. وزاد على ذلك نفوذ مرغوباته عند الدولة العلية بواسطة المعلم حزقيل الذي سعى بتوجيه الولاية لسعادتكم رعاية لخاطر حاييم . فلا يؤتمن من ان حاييم يكتب له عما حصل . والذي يقتدر على النصب لا يعجز عن العزل خصوصاً ان اليهود عندهم الغنى الوافر والدولة ترغب في المال لا في الاشخاص . وطالما حاييم بالحياة لا يرتاح البال من شر تدابيره . فصمم عبدالله باشا على قتله ولم يحسب ان ذلك هو اعظم خطر عليه بان كافة اليهود يتحركون لاخذ الثأر ويقدرون بقوة تدبيرهم على انفاذ ما يرغبونه. وفي تلك الليلة اصدر امره الى كتخدايه ابراهيم بك الجركسي الذي هو زوج اخته بان يتوجه بنفسه بجملة من العسكر ويخنق المعلم حاييم ويرميه في البحر . فتوجه بالعسكر وطلب حاييم لمواجهته فخرج اليه يكلمه للدخول فكان الجواب احاطته بالعسكر ووضع الحبل في عنقه وشده عليه حتى اختنق . وطرحوه بالبحر. وعند الصباح وجدوا جثته على الشاطئ قذفتها الامواج. فلم يسمح لليهود بدفنه بل ربطوه على عمود من حجر وزجوه في عمق البحر. فجميع العقلاء في ايالة صيدا مع اختلاف مذاهبهم اتفقوا بالاسف على خسارة الحكومة بفقدها هذا المدبر الحكيم .

واما الامير بشير حاكم لبنان فكان اشد الجميع غماً على فقده وصار مترقباً وقوع التغييرات في سياسة عبدالله باشا بسبب استمالته لتقريب من لا يحسن السياسة . فالتجار العمدة في عكا نزحوا منها بعضهم لبيروت وبعضهم الى لبنان حذراً من تقلبات الوالي حيث نظروا قبح تصرفه بقتله حاييم الذي بجهده وحسن تدبيره استحضر له الوزارة بعد تمنع الدولة عن اعطايها له حتى ان المعلم جرجس مسديه المتقدم في كتاب خزينته عرضت عليه ان يكون بوظيفة المعلم حاييم فاعتذر

عن قبولها وتمارض وخرج من عكا لتبديل الهواء في صيدا . ثم فر لعند بيت فارحي بدمشق وكان معهم في خدمة خزينتها . واولاده ابراهيم افندي ونقولا افندي وحفيده قيصر افندي الذين هم للآن بخدمة حكومة دمشق (٦٨) فابتدأ عبدالله باشا يبدي تعللات على الامير تارة بطلب اموال نقدية وتارة بطلب خيول معلومة وتارة بطلب مجوهرات كانت اعطيت له فيما مضى مقابلة لخدامات خصوصية منه ومن اسلافه . والامير يقدم له كلما يطلبه ويستعطف خاطره بكتاباته وبلسان رسله . وكان توظف بخدمة الامير المعلم بطرس كرامة من روم كاثوليك حمص الشاعر الشهير بدقة العقل والفصاحة مع حسن الانشاء وجودة الخط . فكان الامير يرسله لاستعطاف خاطر عبدالله باشا . فبقوة عقله وعلمه وفصاحته يقتدر على استجلاب خاطره . ويستحضر منه خطاباً للامير يعلن زيادة انشراح خاطره من نحوه . ولكن غب مفارقته اياه يأتي المفسدون الى الباشا ويغيرون افكاره ويفسدون ما اصلحه بطرس كرامة الذي يضطر الى الرجوع لاصلاح ما افسدوه . وكان اعظم تحريكهم لغضب الوزير بان الامير بشير في الباطن هو نصراني كافر مخادع لا يركن اليه ولا تجوز توليته خصوصاً في المسلمين حيث يوجد في لبنان الوف كثيرة من المسلمين والباري يسالك عنهم يوم القيامة لتوليتك عليهم حاكماً كافراً حتى ان بطرس كرامة الذي هو بالحقيقة كراهة هذا رجل ساحر فيأتي ويسحرك ويغير افكارك الصالحة لما يوافقهم . وبذلك كانوا يبلبلون افكار الوزير حتى انه استحضر صالح الطرشيحي قاضي طرشيحا وهو من اهل الفضل الاتقياء وطلب منه ان يتوجه لعند الامير يقيم اياماً فينظر في تصرفاته مع الرعايا خصوصاً مع المسلمين ثم يساله عن ديانته ما هي ويرجع يفيده الحقيقة. فالامير كان يعرف بكلما يحصل بديوان الوزير لان له اشخاص من ملازمي الوزير يبلغونه الوقايع . فالشيخ صالح حضر لعند الامير واقام اياماً ورجع بدون ان يبدي للامير كلاماً مما تحمله من عبدالله باشا الذي عند وصول الشيخ صالح لعنده قرر لديه انه تمم مأموريته وفحص مدققاً عن احوال الجبل من المسلمين والنصارى والدروز فوجد الجميع يثنون على احكام الامير بشير بتحصيل الحقوق وايجاد الامنية في جميع الجبل وما يجاوره وان حقوق الجميع متساوية لديه من اية ملة كانوا وجميع الدعاوي ينهيها على الوجه الشرعي حتى انه يمنع القاضي عن اخذ الرسم على التحصيل وكتابة الاعلام والحجج الشرعية مع ان ذلك من حقوق القضاة بجميع البلاد الخارجة عن الجبل . واما قضاة الجبل فالامير يعطيهم معاشاً من عنده . فلو عرف بتناولهم شيئاً من اصحاب الدعاوي فيكون ذلك ذنباً غير

قابل المسامحة . وجميع اصحاب الوظايف عنده سلوكهم على هذه القاعدة فلا يوجد في خدامه من يقبل الرشوة او يتعدى على حق غيره . اما عن الديانة فعندما سالته عنها اجاب هذا السؤال يجب ان يسال عنه ايمة المساجد الموظفين لاتمام الامور التعبدية لا الموظفين لخدمة السياسية فسعادة افندينا استخدمني في سياسة الجبل . فاذا وجد في سياستي عيباً فعدالته توجب عليه ان يسألني عنه . واما معرفة قوانين الامور التعبدية فهي ليست وظيفتي . فاذا كان يرغب ان يكون حاكم الجبل من ايمة المساجد فيجد منهم كثيرين فيرسل فقيها يحكم الجبل بدلا مني . ثم قال الشيخ صالح انني رأيت كلام الامير بمحله لان الجبل يحتوي على كثيرين من اهل الفساد والاشقياء فالحاكم المتقي المتدين المشغول بتأدية واجبات العبادة لا يقدر على ضبط هؤلاء الاشقياء وتعديهم يمتد لخارج الجبل ويعسر التحرز منهم . فضبط اشقياء الجبل يكون منه الراحة للبلاد التي في جواره من جهة البر وللمدن التي في السواحل . فاقتنع الوزير (٦٩) بكلام الشيخ صالح وبلغ الامير ما حصل منه وجعل له مرتباً سنوياً يرسله له . وقيل ان مصطفى آغا بربر متسلم طرابلس الذي كان اصله فلاحاً من القلمون وتربى بخدمة الامير حسن اخي الامير بشير وبحذاقته ونشاطه تقدم عند الحكومة حتى صار حاكماً في طرابلس الملحقة لولاية صيدا انه كان اكبر الساعين عند عبدالله باشا بتكدير خاطره على الامير بشير . فعبدالله باشا توجه لعنده المعلم بطرس كرامة لاستكشاف خاطره من بعد ما عرف الامير ما توقع من قاضي طرشيحا فرجع وبيده جواب للامير مملو من كلام انشراح الخاطر من نحوه حتى انه مكتوب في اعلاه بيد عبدالله باشا هكذا ان هذين السطرين بخط العبد الفقير يا ولدنا المكرم انني قد جربتكم واختبرتكم مراراً وتكراراً فما وجدتكم الا كقول القايل ·

وانت الخالص الذهب المصفى   بتزكيتي ومثلي من يزكى

قدوموا سالمين وعليكم سلام الله وبركاته . فالامير عندما وقف على هذا الجواب انسر جداً ولكن المعلم بطرس قال له ان الباشا غير ممكن الا ان يتقلب في رأيه لان المعلم حايم العاقل قد خلى ديوانه منه ولا يوجد حوله الا المفسدون الذين استولوا على عقله وجذبوه لاستماع ارايهم ولا يمكن ثباته عشرة ايام كما انني شاهدت الاحوال في عكة ووقفت على الحقايق وانه موجود عنده من الثقاة فلان وفلان كارهين تصرفاته ولم يعد في مقدرتهم ان يمنعوه عنها لكثرة المفسدين واستيلائهم على عقله . فكتابته الان لسعادتك لا يلزم اتخاذها الا فرصة قصيرة لتدبير نفسك اما لاشهار العصيان عليه واما لترك الحكومة . اجابه الامير ان العصاوة

على ولي الامر هذا غير ممكن افعله وانما سأفتكر بما يوافق السلوك فيه . وحالا استدعى الشيخ بشير جنبلاط لعنده للمفاوضة فيما يجب عمله . فحضر وغب المذاكرة باجتماع رأي من يوثق بهم قر الرأي على القيام من الجبل الى ايالة الشام وانتظار صفاوة خاطر عبدالله باشا . فالامير طلب من جرجس مشاقه افادة ما يوجد بالخزينة من النقدية وبعد تحريرها وجدت ثمانية وعشرين الف غرش لا غير على حساب الريال العمود بستة غروش وربع كناية عن الف ليرة لان الذي كان عند الامير من النقود هو قليل من اصله لكثرة مصارفه حتى انه لاجل يستجلب رضى عبدالله باشا كان يستدين على نفسه ويقدم له كلما يطلبه . وعندما تقدم له علم النقدية الموجودة قال للشيخ بشير ان هذا المبلغ ليس هو شيء بالنسبة للمصارف التي تلزمنا في غربتنا . اجابه انني اقدر على تدبير كلما يلزم . حينئذ نبه الامير على جميع خواصه ان يستعدوا للقيام معه بعد ثمانية ايام . وكان ذلك اواخر شهر شباط سنة ١٨٢١ . فقام بعد ثمانية ايام ومعه عدا اولاده الثلاثة من الامراء الشهابيين الامير حيدر الاحمد من قرية شملان والامير عباس من قرية مجدل معوش وكافة اتباعه واتباعهم ثم الشيخ بشير جنبلاط واولاده واولاد اخيه الشيخ حسن وامرا بيت رسلان وكل من ينتمي اليه . فكان جملة القايمين مع الامير ما بين فارس وراجل نحو ثلاثة آلاف نفس . واما جرجس مشاقه اصحب معه من اولاده ابراهيم واندراوس ومخاييل. واما الصغيرين جبرائيل وروفائيل ارسلهما لصيدا . وبهذه الخطرة تعلق الشيخ حسين شبلي حماده والد البكوات حماده (٧٠) من قرية بعقلين بخدمة الامير وظهر منه النشاط وصدق الخدامة فاحبه الامير كثيراً . فلم يبعد الامير ساعتين عن بيته ونزل عند قرية كفرنبرخ لتجتمع رجاله . واذا بتاتار قادم من عكا بكتابة من عبدالله باشا للامير يتطلب منه اشياء لم يعد في امكانه تقديمها . فحرر له جوابها يستعطف خاطره وانه لو كان باقي في امكانه تقديم المطلوب فلا يتاخر عن ذلك وانه قام من الجبل وينتظر صفو الخاطر واينما حل يقدم الاعراض لاعتابه ليكون محل وجوده معلوماً لدى دولته . ثم نهض الى قرية حمانا حيث سكنى المقدم ابو علي مزهر زوج اخت الشيخ بشير جنبلاط. وبات هناك ليلتين حتى تكاملت الرجال . فانتقل الى قرية قب الياس من البقاع الغربي تبع ايالة الشام ولحقه هناك المقدم ابو علي واولاده المقدم ابو حسين والمقدم اسعد وبقي هناك يومين . وامر جرجس مشاقه ان يرسل اولاده لدمشق لانهم غير معتادين على مشقة الغربة وان يبقى هو بخدمته فأرسلهم لدمشق . اما الامير فأرسل معروضاً لعبدالله باشا بانه خرج من حدود ايالة

صيدا الى ارض البقاع قاصداً بلاد حوران ويبقى فيها رهين امره . ثم انتقل الامير بمن صحبته الى راشيا ثم الى القنيطرة ثم الى جبل دروز حوران . ومن حوران قدم معروضاً لعبدالله باشا يعرفه بوصوله اليها يقيم بها منتظراً انشراح خاطره عليه . هذا وان عبدالله باشا عندما بلغه قيام الامير من الجبل حرر الى الاستانة ان يرسلوا له الامير حسن قاتل ابيه وعمه الذي تظاهر بدين الاسلام . (الآمر ببر الوالدين ولو كانا من الكافرين) . فأرسلوه وقبل وصوله تقدم لحكومة الجبل اثنان من وجوه الامراء الشهابيين وهما الامير حسن ابن الامير علي ابن الامير حيدر الجد الجامع بينهم (اي بين شهابيين لبنان) والامير سلمان ابن الامير سيد احمد الذي اعماه اخوه الامير يوسف ابن الامير ملحم اخي الامير علي المذكور . فأعطيت لهما ولكن عبدالله باشا سلخ عن حكومة لبنان اقاليم الخرنوب والتفاح وجزين وجبل الريحان ومدينة جبيل . والامراء المذكورون تظاهروا بدين الاسلام . والمشايخ النازحون من الجبل كبيت عماد وغيرهم قد رجعوا لمحلاتهم .

واما اولاد جرجس مشاقه حسب امر الامير حضروا لدمشق وكان وزيرها معزولا والحاكم بها وكيلاً من طرف درويش باشا الذي توجهت عليه ولاية ايالة الشام وهو قادم بالطريق . وهذا الوكيل اسمه درويش آغا ابن جعفر آغا من آغاوات دمشق . فبلغه ان اولاد صراف الامير بشير حضروا لدمشق . ومعهم احمال صناديق خزينة الامير بشير فصدر الامر بربطهم وطلب المال منهم حال كون الامير مفلساً وهم تركوا اوطانهم وارزاقهم وديونهم بالجبل بغتة (٧١) وبالكاد استحصلوا شيئاً يسد احتياجهم موقتاً . فعندما بلغهم الفحص عنهم اختبوا في مكان يأتمنون فيه على نفوسهم حتى يأتيهم الفرج .

ان الامير بشير عندما بلغه قدوم درويش باشا والياً على ايالة الشام ارسل اليه معتمداً من خواص معتمدي الشيخ بشير اسمه يوسف العكاوي من كاثوليك دير القمر مصحوباً بخمسة افراس من جياد الخيل بملابسها المزينة وعن يده معروضاً يتضمن التجايه لتحت انظار دولته في جبل حوران . فلاقاه يوسف العكاوي الى حماه وقدم له المعروض والخيول فقبلها وقرر لديه الكلام الذي تحمله من الامير . فتجاوب بألطف عبارة من التطمين الكافي للامير بانه يبدي نحوه كل مساعدة فرجع مسروراً . وعندما شاع ذلك ارتفع السوال عن اولاد مشاقه . فاتباع الامير كالشيخ منصور الدحداح واقرباه ويوسف الخوري الشلفون المتقدم ذكره والمعلم بطرس كرامه حضروا لدمشق واقاموا بها مدة . ودخل الوزير لدمشق بيوم حافل . وكان كاتبه من المتفرجين على دخوله خارج المدينة . وكانت

المدافع مسحوبة اولا ويليها المجرمون يرفلون بالقيود الحديدية احضرهم بمحبته من بلاد المعره وحماه وحمص التابعات ولاية الشام ليقتلهم بدمشق في ايام متتابعة ارهاباً للناس . ويليهم العساكر المتنوعة الاشكال فرسان ومشاة ثم بطريرك الروم بدمشق وجماعته تحمل الشموع المشعلة ثم ارباب الطبول والزمور ثم اعيان دمشق ثم الوزير يرمي السلام على الجانبين وامامه مناد بالصلاة على النبي . ثم بعد الوزير جوق آخر فيه كتخدايه . فكانت المدافع المسحوبة تطلق النار وتجاوبها مدافع القلعة وباريد العسكر . واصوات الطبول والزمور لا تفتر . وكان ذلك باثناء عيد فصح الروم . فكان واحد من جاويشية الوزير يرمح بحصانه امام صفوف النصارى المتفرجين ويصرخ باليونانية خريسطوس اينستي . فكان عمله هذا مبهجاً للنصارى لان لم يسبق لسماعهم هذه الكلمة من فم مسلم تركي . (والعادة في دمشق عندما يصدر امر الوالي ان يخنقوا احداً من المحبوسين بالقلعة فلا يكون خنقه الا عقيب آذان المغرب . فيضعون حبل المخنقة في رقبته ويضربون له مدفعاً يسمعونه صوته ثم يخنقونه ويطرحونه امام باب القلعة ليراه الناس في الصباح . فمن صوت المدفع بعد الغروب يعلم الناس انهم يخنقون انساناً ولكنهم يكلفون النصارى واليهود بعملية القتل كيلا تلحقهم جريرة القتل كون الوجه الشرعي ان الفعل يضاف الى المباشر لا الى المسبب . فعندما يصدر امر الحكومة ان يخنقوا انساناً فيكون فرحاً عند الانفار الموظفين بالقلعة فينفردوا (٧٢) بالمدينة وكلما نظروا نصرانياً او يهودياً يقدر ان يدفع لهم شيئاً وهم من الذين لا يقدمون على هذا الفعل فيكلفونه اليه فيتخلص منهم بدفع الدراهم وربما يتخلص من الواحد فيقع ثانية بيد الآخر فيجتهد من يبلغه الخبر ان يختبي ذاك اليوم . فعند آخر النهار يمسكون واحداً يقدر على الخنق ولا يفلتونه حتى يختنق الصادر الامر باعدامه وذلك بعد امتلاء اكياسهم من الدراهم . ولله الحمد ذلك التعدي صار من الممنوعات منذ تولي المصريين على سوريا حتى الآن . فثاني يوم دخول الوزير وقت الغروب سمع ضرب مدفع واحد من القلعة فعلم انه نخنق انسان . ففي الصباح عرف انه احمد آغا الشاطر ريس الطحانة بدمشق . وخنقه كان لجنايته بمعارضة طوخ الوزير السابق عن الخروج حتى يدفع ما عليه الى الطحانة . فصورت الدعوى ان الوزراء بالسابق كانوا في الشام يلزمون الطحانة ان يقدموا خبزاً لزوم بيوت الوزير وكتخدايه وكافة خدامه ورجال دايرته وموظفيه حتى سواس خيوله ويعطى لهم الثمن دون ربع القيمة العادلة . وصودف تلك السنة اي سنة ١٢٣٥ كان الغلاء شديداً بمدينة دمشق فتضاعف ضرر الطحانة بما

يقدمونه والوزير يماطل بالدفع حتى اجتمع مطلوبهم منه خمسة وثلاثين الف غرش عملة ذاك الوقت تساوي الف ليرة انكليزية وهي متكلفة عليهم ربما ستة آلاف ليرة بسبب الغلاء . فالوزير ورد الامر بعزله ولم يدفع لهم مطلوبهم وحالهم لا يحتمل الصمت عن طلبه . فرئيسهم احمد الشماط عمل الوسايط اللازمة عند الوزير المعزول لاستحصال حقهم فما امكن الى ان عزم الوزير على السفر بدون دفعه الذي عليه لهؤلاء الفقراء . وكان عادة الدولة تعطي الوزير ثلاثة اطواخ وهي اذناب خيل فالذنب معلق من اسفله في راس عصاه طولها نحو ثلاثة اذرع وشعره مسدولاً عليها . فالوزير اذا سافر يرسل الطوخ الواحد قبل سفره بيوم لمحل نزوله فيستعدون لاستقباله وتهيئة ما يلزمه من الماكولات والعلف للدواب وهذا بلا ثمن واما الطوخان الباقيان يمشيان امام الوزير عند سفره . ومعنى الاطواخ ان الدولة باذناب خيلها تحكم البلاد . فاحمد الشماط عندما نظر الطوخ خارجاً من المدينة بدون دفع الوزير ثمن الخبز فاوقفه حتى دفع الوزير ما عليه ضد ارادته . فاخبر درويش باشا ان يقتل هذا المتعدي في طلب حقه . فهكذا كانت تصرفات المامورين قبل ان تربطهم الدولة بالقوانين التي جددتها . وفي الليلة التالية عند الغروب سمع صوت سبعة عشر مدفع . فاحتسبنا من ذلك ان يكون لحادث بالمدينة . فبعد الغروب بنحو ساعتين اتى لعندنا شاباً من موارنة دير القمر خدام الامير اسمه غالب ابي عكر فسألناه عن ضرب المدافع قال لا يكون لكم فكر بخصوصها سأخبركم عنها بعد ان تعشوني لان رفاقي قفلوا مكان نزولنا وراحوا يسهرون ولا اعرف مكانهم . فبعد ان عشيناه اخذ يخبرنا انه قبل الغروب بنحو ساعة مر على خان التوتون عسى يصادف رفاقه وينزل معهم لحارة النصارى ليتعشوا واذا باثنين من توفنكجية الحكم تقدما اليه وسألوه انت غالب ابو عكر اجبتهم نعم قالوا امشي معنا على السرايا لان امرأة قدمت عليك شكاية اجبتهم قط مالي مشابكة مع احد . اجابوه نحن مأمورين باخذك لقدام التوفنكجي باشي وهناك تبرر نفسك . فالتفت وجدت حنا عزام جالساً على صندوق (حنا هذا ابن ابراهيم عزام الذي (٧٣) شنقه الجزار مع الامير يوسف ثم اتصل بخدمة الامير وتقدم عنده وكان يعتمده بارساله لعند الوزراء ولكن الهزل متغلب على طبعه) فقلت له بعرضك يا حنا خلصني من هؤلاء . فاجابني ببرودة وهو يضحك . امشي معهم واذا انحبست ابعث لي خبر وانا نهار غداً اذا قضيت وصار لي فرصة فافحص دعواك ان وجدتها جزوئية حينئذ انتظر اليوم المناسب اذا كان لي شغل عند الباشا ووجدته منشرح الخاطر يمكن انني اجيب له سيرتك في معرض

الكلام وربما يسمح باطلاقك . فالتفت فيه وقلت له دعهم يشنقوني فهو اهون علي من استماع برادة كلامك . فازداد قهقهة ومشيت مع التوفنكجية . فبوصولي الى العصرونية مالوا بي في طريق القلعة قلت لهم انا ماخوذ للسرايا ما بالكم ملتم بي الى القلعة . اجابوني الآن صار المغرب قريباً وكل من بالسرايا توجه لبيته فتنام هذه الليلة بحبس القلعة ونهار غداً قريب الظهر نعرضك على التوفنكجي باشي وترجع لمحبسك لوقتما يصير فضاوة للحكم يفتشوا على الامرأة وينبهوا عليها بانها متى فضيت من اشغالها تبقى تحضر للسرايا حتى يفهموها عن اليوم الذي يفضون فيه لسماع دعواها . فقلت لا حول ولا قوة الا بالله . اني كنت في غنى عن دخولي لهذا الخان ثم دخلت معهم الى القلعة فوجدت في البوابة جملة رجال نصارى ويهود جلوساً يبكون . فقلت للذين احضروني لماذا هؤلاء هنا . اجابوني الآن نخبرك الصحيح. ان افندينا ارسل بهذا اليوم امراً باسماء سبعة عشر شخصاً من المحبوسين لكي نخنقهم هذه الليلة . فحسب العادة مسكنا هؤلاء لكي كل واحد منهم يخنق واحد وبقينا محتاجين لواحد فحنا عزام دلنا عليك وعلمنا كيف نعمل معك . وبالحقيقة لا نريد منك غير خنق واحد بعد آذان المغرب . قلت لهم احترق دمي من عملكم معي كنتم عملتم معي معروفاً لو كنتم اخبرتموني عن مطلوبكم فهذا أمر سهل . واما هؤلاء الذين يبكون قلوبهم ضعيفة دعوهم ينصرفوا لعند عيالهم وانا اقضي اللازم عنهم . قالوا هم كثيرون عليك اجبتهم اذا كانوا خمسين لا افتكر بكثرتهم . فارتضوا معي وصرفوهم . وعندما اذن المغرب اخذوني لمحل وصاروا يقدمون لي هولاء المحبوسين الواحد بعد الآخر مكتوفين الايدي والقيود في ارجلهم وكنت اخنقهم بكل خفة عدا كم نفر تعبت في خنقهم لانهم اقوياء ورقابهم غليظة وجالدوا كثيراً حتى قدرت على تمويتهم . وبعد ان تممت العمل سألتهم هل عندكم غير هولاء حتى نخنقهم فعوضاً عن اظهارهم الممنونية أوسعوني لعنات. فخرجت من القلعة ونزلت لحارة النصارى وحضرت لعندكم والسلام .

ومن حوادث دمشق انه حين حضورنا اليها كانت طايفة الروم الكاثوليك بغاية الكدر مما وقع عليها من السيد سيرفيم بطريرك الروم الارثوذكسيين. وبذلك الوقت كان حكمه نافذ عليها ويحسبها من جملة رعيته وقسوسها تحت امره لا يستطيعوا ان يجنزوا موتاهم ويدفنوهم ولا يعقدوا زيجة الا باذنه لان الدولة العلية وقتئذ لم تكن تسمح بمعرفة الطوايف الكاثوليك التي انشقت عن اصولها ولا يسمح لهم ان يلبسوا القلنسوة ولا الطربوش الاسود (٧٤) ملابس كنايسين الروم بل ملابسهم

تكون كملابس العوام والقصاص للقسوس يكون من يده . وكان سنة ١٨١٩ حصل اختلاف بين كاثوليك حلب وبين مطران الروم جراسيموس التركمان الذي طايفته هناك نحو خمسين رجلا. واما الروم الكاثوليك فيزيدون عن الالف وخمساية رجل . ولا يجهل ما للحلبيين من شدة الجلد على المقاومة لتنفيذ مرغوباتهم اذ طبيعتهم لا ترطخ للذل فيهلكون انفسهم ولا يرضون باذلالها . فالمطران المذكور هو حلبي الجنس ايضاً لا يرجع عن كلمته (المذكور فيما بعد عزل عن حلب وتمطرن على صور وصيدا واقامته كانت في حاصبيا وصار صديقاً لكاتب هذه الرواية) فتفاقم الامر بينهم وصار قتل احدى عشر شخصاً من الكاثوليك بسيف الحكومة . وانتهت القضية بعزل المطران المذكور . فواقعة حلب مكنت البغضة بين الطايفتين في جميع بلاد الشرق سيما ان البطرك اغناتيوس صروف الكاثوليكي كان مقتولا غدراً منذ سبعة سنين بيد رجال من طايفة الروم . فجددت حادثة حلب اوجاع الكاثوليكيين . فصودف ان كاهنا كاثوليكياً من احدى قرايا دمشق اغتاظ عليه البطرك سيروفيم لسبب ما مفوضاً عن قصاصه كتايسياً من يده ارسله لسجن الحكومة . فالشبان الجهلة من الكاثوليك لم يتركوا القضية لعقلاء ملتهم حتى يستجلبوا خاطر البطرك لانه كان من جنس الاروام حاد الطبع سيء الاخلاق حتى مع وجوه رعيته فلا يحسن التصرف. فتوجه الجهلاء لباب الحكومة وحسب العادة كل الجراحات لم تشفى عند الحكام الا بمرهم الذهب . فاستخلصوا الكاهن من السجن على غير رضى البطريرك . فلم يكتفوا بهذا ويتركون الكاهن يتوجه لقريته سراً بل تجمهروا وساقوا الكاهن امامهم وعندما بلغوا الحارة النصارى رفعوا راية تمشي امام جوقهم وهي عصا على راسها حذاء قديم ومناد يصرخ اذا كانت هذه راية البطرك سيروفيم فيرد عليه الجمهور سود الله وجهه . وجعلوا مرورهم امام كنيسة الروم ودار البطريرك . ومن المعلوم انه لو كان البطريرك ميتاً فهذه السفاهة تحركه . فعقلاء الكاثوليك تكدروا جداً من هذا الفعل الذي جرى ورده خارج من دايرة الامكان . واما البطريرك فامتلأ حنقاً وامر بمسك جميع قسوس الكاثوليك بيد الحكومة وحلق لحاهم ونفيهم لجزيرة ارواد فنفوهم عن طريق طرابلس فوجوه الكاثوليك هم اصحاب النفوذ عند والي صيدا لا بل ان عبدالله باشا كان له الميل نحوهم . فاعرضوا لديه ان قسوسنا من رهبان دير المخلص هم رعاياكم ووظيفتهم تادية الخدمات الدينية لابناء طايفتهم في البلاد الشامية والمصرية وبطرك الروم لا يفتر عن التعدي على جماعتنا وسعادتك تعرف انه بمدة المرحوم عمك اتصل التعدي منهم ان يطلبوا الاستيلاء على كنيستنا في صيدا . وحضر من طرف

بطركهم وكيلا زخريا مطران عكار لاستلامها . ولكن المرحوم عمك قال يلزم المدعي ان يثبت دعواه اولا لدى الشرع (٧٥) الشريف ويتعامل بالوجه الشرعي فترافعنا معه لدى القاضي بحضور المفتي والعلماء بديوان سعادتكم اذ كنتم كتخدا المرحوم . وظهر بطلان دعواه . واعطى لنا حجة شرعية بمنع دعواه . فالآن بطريركهم بدمشق مسك الرهبان الموجودين بها من رعاياكم ونفاهم الى ارواد ولكن عن طريق طرابلس حيث لا يوجد كاثوليكي يسال عنهم . وحيث ارواد هي تحت ولاية افندينا نسترحم حضورهم لديرهم لانهم يهلكون جوعاً بتلك الجزيرة . ولايوجد احد بجوارهم من جماعتهم ليسال عنهم . فاغتاظ الوزير لذلك وقال ان الذنب جميعه من كاتب الحكومة هناك نعوم الغريّب . فكيف لا يخبر المتسلم ان الواجب اعراض الحادثة لدينا وانتظار امرنا بخصوصها ولا يلزمه السلوك بامر والي الشام . وحالا صدر امره بعزل الكاتب وتكديره مع تكدير المتسلم وارسال الرهبان لديرهم بكل راحة عن طريق صيدا . واما البطرك سيروفيم لم يكتف بنفي القسوس بل قدم الشكاية للوزير بان جانب من رعيته المتولي عليهم بموجب الامر السلطاني قد عصوا عليه بدسايس الافرنج وانقادوا لمذهب الكاثوليك الذي لا تسمح الدولة لرعاياها باتباعه لما فيه من المحذورات . لذلك يلزم ان يجبروا على الابتعاد عن مذهب الكاثوليك ويسلكوا بطاعة بطريركهم ويصلوا في كنيسة ابايهم واجدادهم . فالوزير بعد ان استعلم عن اسماء وجوههم استحضرهم لديوانه وافهمهم عن مطلوب البطريرك . اجابوه نحن لا نعرفه متولياً على عقايدنا فدولتك والي على الجميع ولا تعارض احداً في امور دينه معتقده ولا تلزمه الا بدفع المرتبات الميرية وحسن السلوك . فاذا كان له علينا مرتبات فلا نتوقف عن دفعها وان كان لاحد منا جناية فيقدمها لديكم وسعادتكم تحققونها وتجرون اللازم واذا كان لا يقتنع بذلك فنحن خاضعون للشريعة الغراء فيصدر امركم بمرافعته معنا . وكلما توجبه علينا الشريعة نسلك بموجبه . فتوقف معهم حتى ينظر مفاتيح الذهب فتوجهوا واحضروها له . حينئذ جاوب البطرك ان الجماعة انكروا دعواك فيلزمك اثباتها شرعاً . فالبطرك يعرف ان دعواه لا تعضدها الشريعة فقدم للوزير ما يرضيه من المال بحيث يساعده على تنفيذ فرمانه بدون مرافعة . فالوزير قال للكاثوليكيين ان البطرك متمسك بمضمون الفرمان السلطاني ولا يرتضي بالمرافعة فاخرجوا له فتوى بان فرمانات السلاطين تحيل احكامها بما يطابق الشرع . وارضوه بالمال . فاعتذر للبطرك بمضمون الفتوى . ولا زال الوزير يلعب بالفريقين حتى غرقوا تحت الديون . وعندما عرف عجزهم عن الدفع حتم على الفريقين

بالمرافعة الشرعية امام القاضي في ديوانه بحضور المفتي والعلماء ويكون ذلك ليلا لانه كان صيام شهر رمضان . فحضر الفريقان للمرافعة وكان اوباش الطايفتين يجتمعون خارج المجلس ينتظرون معرفة ما يكون . في تلك الجلسة لم تنتهي الدعوى ولكن ظهر من سياقها انه (٧٦) سيكون الحكم بمنع البطريرك عن دعواه وانفض المجلس . وبعد انصراف الجميع من السرايا بنحو نصف ساعة رجع البطريرك لعند الوزير مذعوراً وقرر انني فيما كنت متوجهاً الى منزلي تبعني جمهور من اشقياء الكاثوليك ليقتلوني واهانوني كثيراً وبالجهد حتى اقتدر اتباعي على تخليصي من بين ايديهم . والتجيت لبيت فارس بك عظم زاده حتى انصرفوا وحضرت اشكو حالي ليصير معلوم سعادتك اعمال كبراء الكاثوليك بانهم يجروا مرغوباتهم بيد صغارهم ويعتذرون بانهم جهلة لا يشاورونهم عما يفعلونه ولذلك اطلب قصاصهم . فالوزير لم يتوقف عن ارسال كافة التوفنكجية بالقاء القبض على جميع رجال الكاثوليك وسجنهم حتى بالغداة يصير اجراء اللازم . فكانت ليلة مخيفة لجميع طوايف النصارى بدمشق حتى للروم ايضاً لان التوفنكجية لا يعرفون الكاثوليكي من غيره ولا يصدقون كلام من يمسكونه اذا قال لهم انه من طايفة اخرى ليلا يكون حيلة للتخلص . وبما ان شهر رمضان كانت الاسواق مفتوحة ليلا مع القهاوي ومراسح الالعاب وآلات الموسيقى تشتغل في الجهات واكثر النصارى خارج بيوتهم للانشراح فتيسر القاء القبض على اكثرهم من جميع الطوايف حتى ان الحبوس لم تعد توسعهم فصاروا يحبسونهم مع الدواب في الاسطبلات . فباتوا تلك الليلة اشنع بيات . وفي اليوم التالي صار تمييز غير الكاثوليكي واطلاقه . ثم ميزوا الذي وجدوه من معتبري الكاثوليك واخرجوهم لامام باب السرايا وجلدوهم بالعصي على ارجلهم امام عموم المتفرجين وارجعوهم الى السجن حيث جلوسهم ومنامتهم على الارض الندية بدون فراش يقيهم من المضرة . اقتضى لهم ان يستعملوا مرهم الذهب كالمألوف وصار اطلاقهم . وحيث ان شكوى البطرك عليهم كما يزعمون كانت تزويراً قد عملها مكيدة لهم عندما نظر ان الشريعة لا تسند مطلوبه قد اخترعها لتوقيف ابراز حكم القاضي فسبحان من يعلم الحقيقة . . . .

. . . .

. . . . فوجوه طــايفة الكاثوليك اختشوا من مكايد البطرك التي لا يمكن التخلص من كل واحدة منها الا بالدراهم الكثيرة حال كون طايفتهم في جميع المملكة لا تبلغ خمسة عشر الف رجلاً . وطــايفة الروم بالمملكة

خمسة عشر مليوناً وفيها من الاغنياء ما يملكه الواحـد يساوي ما تملكه جميع الكاثوليك فمن اين يقدرون (٧٧) على مقاومة البطرك . على دعاويه طالما لا يكون الا بدفع الرشوة للحكام والقضاة . ولذلك صمموا على ترك اوطانهم ونزحوا لدير المخلص في لبنان . وبعد ايام وردت الاخبار بان الاروام في المورة وجزاير البحر الابيض قد اجهروا العصيان على الدولة وتحقق لديها اتفاق كبراء روم القسطنطينية وبطريركها معهم على استخلاص بلاد الروم من تسلط المسلمين وان حضرة السلطان محمود امر بشنق البطريرك وشنقوه يوم عيد الفصح وقتل كثيرين من طايفة الروم . ثم صدرت الاوامر السلطانية بقتل المفسدين من كبراء طايفة الروم واذلال النصارى في جميع الممالك العثمانية . وعند ورود الامر لوالي الشام عقد مجلساً من اعيانها وتلاه على سماعهم فكان كلامهم ان النصارى عندنا لا يوجد منهم مفسدون بل جميعهم ذميون سالكون بشروط الذمة فلا تجوز اذيتهم بل لهم ما لنا وعليهم ما علينا وحضرة نبينا اعطاهم العهد الذي فيه يقول من تقلد ذمياً كنت خصمه يوم القيمه ونحن لا نقدر نحتمل ثقل هذه المسؤلية على انفسنا . فقر الحال بان كتبوا عرض محضر للدولة بحسن سلوك نصارى الايالة وطاعتهم ودفعهم المرتبات الميرية ويستحقون حسن الرعاية والمرحمة من جانب السلطنة السنية. فرضيت الدولة من نحوهم . واما باقي البلاد منها ما قد حصل فيه ازعاج للروم كأزمير وقبرص فانهم قتلوا فيها جملة اشخاص من معتبري طايفة الروم. وقد اكتفى وزير الشام بالحتم على النصارى ان تكون جميع ملبوساتهم الخارجية ذات الوان قاتمة وان تكون احذيتهم سوداء الذي بعد ان دفع له النصارى خمسون الف غرش سمح لهم الاحذية الحمراء كالعادة . ويوم المنادات كان عند محرره مشايخ بيت الدحداح ويوسف الخوري شلفون المتقدم ذكره وغيرهم نحو عشرين شخصاً ولم يعودوا يستطيعون على الخروج للازقة بالاحذية الحمراء حتى استحضرنا الزاج مع خادم توجه للسوق حافياً وصبغناها سوداء . فمن حادثة قيام المورة وشنق البطرك ضعفت شوكة بطرك الروم بدمشق فرجع اليها جميع كبراء الكاثوليك النازحين منها مع قسوسهم الذين كان البطرك المذكور قد نفاهم .

. . . .

. . . .

(ولنرجع لسياق خبرية الامير بشير . قد ذكرنا قبلا انه قام من الجبل ولم يكن عنده من النقود سوى ثمانية وعشرين الف غرش وان الشيخ بشير جنبلاط تعهد له بتقديم المصارف اللازمة على القايمين من بلادهم معه وهم نحو ثلاثة آلاف

رجل منهم نحو خمساية فارس وان الذي يقدمه يكون ديناً على الامير . فالامير بقي محتاجاً لدراهم لمصروفه ومصروف اولاده الخصوصي . فأرسل جرجس مشاقه لعند اولاده بدمشق لكي يستدين له ماية الف غرش تحت المرابحة التي كانت قيمتها وقتئذ تساوي اربعة آلاف ليرة. وارسل معه رهناً على الدين قيمته ضعف المبلغ من شيلان كشمير وفرو ثمين ومصوغات ثم سنداً على الامير تحت امضايه وختمه بقدر المبلغ مع ابقاء فراغاً فيه لوضع اسم الداين . ان جرجس مشاقه واولاده يجهلون صيارف الشام وكان موجود بها حينئذ تاجر حرير من معتبري تجار دير القمر اسمه بطرس الجاويش . فصار الاجتماع عليه واخباره بما يلزم وان يدل على الصراف المناسب . فقال ان الصيارف هنا لا يعطون ديناً لخارج الشام سيما ان مدة الوفاء مجهولة ولكن بهذا اليوم افحص على دين وفي الغد احضر لعندكم بالجواب . ففي صباح اليوم التالي حضر الخواجه بطرس المذكور ومعه رجل مهاب اسمه السيد محمد الجوخي ويتبعها زنجياً حاملا كيساً ثقيلا فرحبنا فيه وغب ان جلس قال ان الخواجه بطرس اخبرني عن المبلغ اللازم لسعادة الامير وقد احضرته بهذا الكيس الذي هو مع العبد فاستعدوه . فوجدناه صنفاً واحداً ارباع ذهب فندقلي ذا الزنجير وكان ذلك قليل الوجود ونظن انه لا يوجد منه هذا المقدار عند جميع صيارف دمشق . قال انني اخترت هذا الصنف لكون سعادة الامير في غربة باقي اصناف الذهب يلزمها الوزن اذ يوجد منها ناقصاً. كذلك هذه الارباع اوفق للمصروف لصغرها . وبعد استلام الدراهم تحرر اسم السيد محمد الجوخي بالسند المرسل من الامير وتقدم له . وأخبر عن الرهن الى اين يريد ارساله له فضحك وقال ان سعادة الامير ارسل السند والرهن لربما تأخذون الدراهم من انسان لا يعرف ما هو الامير . واما انا ولئن كنت ما حصلت على معرفته بالمواجهة الا انني اعرف اخباره عن بعد واشكر معروفكم اذ كنتم واسطة للعرفة بيننا فبها لزم لسعادته فاني مزمع اقدم له كلما تملكه يدي ثم شق السند وارجعه ولم يقبل استلام الرهن . فجرجس مشاقه ارسل الدراهم للامير مع السند المشقوق واعرض له كلما توقع وان الرهن باق عنده (٧٩) تحت امره . فرجع الجواب وعن طيه تحرير للسيد محمد الجوخي يظهر فيه عظم ممنونيته لمعروفه الذي ابداه نحوه على غير سابق معرفة وان الماية الف غرش مرسلة قد وصلت مع السند بها الذي شقه وارجعه اليه ولكنه يؤمل منه قبول استلام الحوايج مرسله . فاذا شهامته لم تقبلها على صفة الرهن على الدين فتقبلها على صفة الوديعة لاجل المحافظة عليها من التلف بالغربة كون اكثر شالات وفرو مما يتلفه الغبار والعث. فهذا التحرير

جعله الامير كسند عليه . فالسيد محمد ارتضى واستلم الحوايج على صورة المحافظة عليها من التلف. والامير غب رجوعه لمحله كما ياتي كلفه بالحضور لعنده وانزله بافخر مكان في سرايته واوقف لخدمته خاص خدامه واجرى له كل الاعتبار . وبعد ايام عندما عزم على الرجوع لدمشق ألبسه فرواً فاخراً واعطاه فرساً من جياد الخيل لركوبه وآمر ان يدفع له مبلغ الدين مضاعفاً واصحبه بفرسان ترافقه لدمشق ودامت صداقته لوفاته .

فالامير ما كفاه ضنك المعيشة واحتياجه لاستدانة المال لاجل سد الاحتياج الا ان والي الشام درويش باشا طلب منه خمساية الف غرش لكي يسمح لخيوله ان ترعى في ارض مرج الروم حال كون خيل الوزير لا تؤمن على نفسها بالاقامة في تلك الاراضي . فالرجال الموجودة مع الامير كفاية لقهر الوزير واخراجه من دمشق ولكن الامير كلي الخضوع لولاة الامور فباشر بتحرير معروض استعطاف خاطر لعبدالله باشا وارسله صحبة حنا عزام المتقدم ذكره معتمداً من قبله حاملا كلاماً شفاهياً يعرضه للوزير ملخصه ان الامير افنى عمره بخدمة جدك الجزار وخدمة عمك سليمان باشا ثم بخدمتك وذلك بكل استقامة وصداقة واخيراً شعر بانحراف خاطرك عليه فعزل نفسه وحتى لا يكون لمن يتخلفه بحكومة الجبل ان ينسب اليه سبباً ما قد نفى نفسه لايالة الشام وارتضى بسكنى القفار ويستدين لمعاشه منتظر وقت انشراح خاطرك عليه ليرجع ويقيم تحت انظارك اينما شئت . وهو بعد ان شاخ في خدمة ولاة صيدا لا يمكن ان يلتجي لغيرهم . فالآن والي الشام طالب منه خمساية الف غرش ليسمح له بان ـ عى دوابه في برية حوران فلو كان عنده مبلغاً كهذا كان يقدمه لخزينة ولي نعمته . فالآن يسترحم من دولتكم اما الكتابة لوالي الشام بان يرفع عنه هذا الطلب كونه احد خدامكم واما تأمرون دفع المبلغ من خزينتكم لان الامير لا يطلب العطاء من يد احد غير يد ولي نعمته واما تأمرون بحضوره الى اعتابكم تفعلون به ما يحسن بأمركم . ثم ان الامير قد بلغه عصيان الاروام بالموره وان مراكبهم تتخطى الى شواطي البحر في بلادنا ويضرون بابناء السبيل اذ يطلعون احياناً الى البر ويؤذون المارين ويقتلون منهم . ولربما تلزم خدمة للجهاد فالامير يقدم نفسه اليها . فكان جواب عبدالله باشا ان كلام ولدنا الامير جميعه بمحله فلا يشاهد مني الا ما يسر خاطره فليحضر الى شفا عمر وبوصوله يخبرني فأجاوبه عما يقتضي. وبالحال آمر بكتابة الجواب للامير وان لا يتأخر عن الحضور لشفاعمر وبوصوله اليها يخبره . فحنا عزام اخذ الجواب ورجع لعند الامير وقرر لديه ما كان مع عبدالله

باشا . فصمم الامير على ابقاء رجاله وجميع الذين برفقته من امراء ومشايخ بجبل حوران وتوجه لشفاعمر بعشرين فارس لا غير . . . .
. . . .
. . . .
. . . . ثم ان الامير توجه لشفاعمر وصحبته عشرون فارساً لا غير واعرض للوزير بوصوله اليها حسب امره فتجاوب ان يختار مكاناً لاقامته مع من يخصه . فالتمس ان يكون في جزين حيث انسلخ حكمها عن الجبل . فصدر له الاذن بذلك وارسل مأموراً من خدام الوزير يمشي امامه ويقدم له الذخاير اللازمة لخيوله واتباعه . فحرر الامير لاولاده وللامراء وللشيخ بشير جنبلاط الباقين في حوران عما حصل له وان يوافوته بمن صحبتهم من الرجال الى جزين عن طريق راشيا فتوجهوا. كذلك جرجس مشاقه توجه وصحبته ولداه ابراهيم واندراوس. واما محرره ولده مخائيل لم يرغب التوجه معهم حتى ينظر قرار احوال الجبل والامير لانه ما هي فايدته من الاقامة في قرية خارجاً عن وطنه ليس له فيها شغل . فبقي في دمشق يدرس كتاب الجمقيني في الهيئة وبعض افادات حسابية ومساحية وموسيقية على العلامة الشيخ محمد العطار المدرس الشهير بالعلوم العقلية والنقلية الى ان ركز حال الجبل فطلع الى وطنه .

اما الامير بشير فبوصوله الى جزين حضر لعنده جميع اعيان الجبل ووضعوا انفسهم تحت خاطره غير مفتكرين بالاميرين المتولين عليهم وذلك قبل وصول جماعة الامير من حوران الذين بعد وصولهم بأيام ارسل عبدالله باشا (٨١) تفويض حكومة الجبل للامير وارجع له حكومة الاقاليم التي كان فصلها عنه عدا مدينة جبيل كونها اسكلة بحرية لم يرجعها . فالامير لم يتوجه لبيته بل بقي اياماً في جزين يرتب الاحوال . فحصل اجتماع عمومي من نصارى بلاد كسروان ونواحيها وكهنتهم وحتموا بان لا يدفعوا الاموال الاميرية غير مالا واحداً حسب القديم لا ثمانية اموال بحسبما هو جاري الحال . فالامير قدم لهم النصيحة بان طلبهم لا يوافق لان ذلك لا يوفي مطلوب الدولة وترتيبه كان باعتبار قيمة الحاصلات واسعار المسكوكات حين الترتيب فالآن بحسب قيمة الحاصلات واسعار المسكوكات. فالثمانية اموال هي اقل من المال الواحد القديم . فلا تجعلوا اسباباً تكدر خاطر ولاة الامر عليكم. فلم يصغوا الى النصيحة وربما توهموا النصيحة تذللا من الامير ليقي نفسه من بطشهم . فتوجه الامير بنفسه اليهم املا باقناعهم ولم يصحب معه غير ابنه الامير خليل والشيخ ناصيف ابي نكد واتباعه وبعض اتباع الامير جميعهم نحو ثلثماية نفس . فعندما نصب الامير خيامه في ارض قرية لحفد في لحف جبل هناك

عسر الصعود اليه اجتمع من القوم فوقه نحو ثلاثة عشر الف رجل واطلقوا عليه
بعض بواريد محشوة بالرصاص . فاستاذن ولده والشيخ ناصيف بالصعود اليهم
فمنعهم بقوله انكم قليلين العدد والطريق اليهم لا يسع اثنان يمران فيه سوية وقد
حررت للشيخ بشير جنبلاط وللشيخ حمود ابي نكد ان يحضرا لعندي بالرجال
كذلك طلبت من الوزير اعطاء مدينة جبيل لنجعلها مركزا لاعمالنا وحررت
لرؤساء الديانة ان ينصحوا الرعية عن المخاطرة بانفسهم فيلزم ان ناخذ الامور
بطولة البال حتى ننظر ما يجد علينا فتوقفوا . ولكن المتجمهرين لم يفتر رصاصهم
عن الوصول لجماعة الامير حتى انه اذ كان على الطعام ضمن خيمته خرقها الرصاص
واصاب حامل كأس الماء فوق رأس الامير فوقع قتيلا . حينئذ الامير خليل والشيخ
ناصيف لم يصغيا لامر الامير وقالا لا نترك الكلاب تفترسنا ونحن جماعة الاسد
وصرخا على رجالهم بالصعود لضرب الجماهير فتسلقوا اليهم ووجــدوا بينهم
كهنة تحرضهم وصـــار بين الفريقين حرب شديدة انتهت بكسر تلك الالوف
الكثيرة وقد فقد بهذه المعركة اثني عشر رجلا من جماعة الشيخ ناصيف الذي
رجع مع الامير خليل لعند الامير واخبروه بتشتيت تلك الجماهير بعد ان قتل
منهم ميئات . وبتلك العشية ورد للامير التفويض باستلام مدينة جبيل فأمر
بالانتقال اليها فانتقلوا (واما الشيخ بشير والشيخ حمود فجمعوا نحو الفي راجل من
رجالهم وقصدوا مكان الامير وبوصولهم وجدوا نقار نهر الكلب مربوط طريقه
عليهم برجال من كسروان فكسروهم بعد محاربة قليلة فقتلوا بعضهم وبعضهم
نجا بالهرب . وبأمر المشايخ نهبوا قرايا الازواق وحرقوها . وصادف الشيخ بشير
بطريقه الخوري نهره فارساً ومتقلداً بالسلاح الكامل بالطابية الكبيرة على رأسه
وكان من اعظم القايمين بهذه الفتنة فعندما شاهده الشيخ بشير قال له المجد لله
يا ابينا الخوري (كما يقول النصارى بتلك البلاد) كيف حال ابوتك صدقني
انني استحليت المصادفة لكنني لا استليق هذا الكاسم لحضرتك ان كان يحسن
عندك اعطي هذا السلاح لاتباعنا لان الكهنة سلاحهم كتابهم فاخذوا سلاحه .
ثم قال له لا يليق بالكاهن ركوب الخيل فيركب البغال والحمير للتواضع فنزلوه
عن فرسه . ثم قال له اني اخشى عليك التعب بالمشي فالاحسن انك ترتاح في
ارضك وامر بذبحه . فكان يصيح ويترجى والشيخ يقول له ابوتك تسامحنا لان
ذبحك اوفق لصالح الرعية فذبحوه ثم حرقوه وتركوه بارضه . وذهبوا لعند الامير
الذي اجرى قصاص المفسدين وحصل المطاليب الميرية في تلك البلاد) (وعندما
كان الامير في جبيل ورد له الامر من عبدالله باشا ان يرسل اليه جدعون الباحوط

للكلام معه في مصلحة ضرورية ولا يرسل غيره . فهذا جدعون هو من وجوه موارنة ساحل بيروت مستقيم (٨٢) السيرة سليم السريرة كان يستخدمه الامير معتمداً يرسله للمكالمة مع الوزير وذلك قبل استخدامه المعلم بطرس كرامه . فأرسله اليه فرجع يقول ان الباشا يخبرك بان اليهود سعوا فيه عند الدولة حتى عزلته عن منصب صيدا واضافت صيدا لدرويش باشا والي الشام وابقوا ذلك مكتوماً حتى يذهب درويش باشا بالحج ويرجع . وتعين لمساعدته مصطفى باشا والي حلب وبرهام باشا والي ادنه . فان كنت تثبت معه فهو يقدر على صد القوات التي تأتي عليه . فيرغب الوقوف على حقيقة عزمك . فاذا كنت لا تثبت معه فهو يسلم نفسه بدون مقاومة . فارجعه الامير بالجواب ان الامير لا يعرف نفسه الا خادمك فافعل ما تريده وهو يخدمك بكلما تأمره حتى يسفك دمه بخدمتك فهذا غاية ما يقدر عليه . ثم رجع الامير الى بيته في بتدين . وانتظم حال الجبل

اما درويش باشا كان توجه بالحج ووضع بالشام قيمقاماً اسمه فيضي باشا وارسل متسلماً الى البقاع اسمه حسن آغا العبد . فأكثر التعدي والتخريب على المحلات المختصة بمشايخ واهالي لبنان ونهب ابقارهم ودوابهم وغالباً كان ذلك بتدبير القيمقام فيضي باشا حيث تقدمت له الشكوى على حسن العبد ولم يأمره بارجاع المنهوبات لاربابها ولا ردعه عن التعدي . فتوجه اليه رجال من الجبل وضربوه فهرب الى دمشق فنهبوا مواشي البقاع بمقابلة المنهوب لهم . ثم ارسل فيضي باشا متسلماً للبقاع احد مخصوصيه اسمه امين بك . فاستقام بقرية لالا من شرقي البقاع . فارسل الشيخ بشير اناساً مسكوه وارسله لحبس دير القمر ولم يتركوا له من كسوته غير السترة ومحرره قد شاهده بهذه الحالة . وهو شاب امرد يظهر عليه انه من اناس كرام . فساعده بما امكنه ولم يجتمع به . فلم يضيع ذلك عنده لانه بعد انطلاقه قد توجه لمصر وتقدم عند كتخدا واليها واجرى مساعدة كلية لرجل قال ان ميخاييل مشاقه خاله . فالمشايخ بني عماد مع بعض المشايخ المنتمين اليهم قد نزحوا الى دمشق وبسعيهم صار توجيه حكم بلاد راشيا للامير منصور كونه يزبكي وعدواً لابن عمه الامير افندي الجنبلاطي الحاكم في راشيا وقتئذ . فتعين عسكراً بمعية الامير منصور لاجل تمكنه من قهر الامير افندي والاستيلاء على البلاد . وحضر بالعسكر والمشايخ اليزبكية لبلاد راشيا . فالامير افندي كان سبق واعرض للامير بشير عما عزمت عليه حكومة دمشق فبالحال نهض بنفسه الى راشيا وبمعيته الشيخ بشير جنبلاط وجانب فرسان ومشاة . وبوصول عسكر دمشق مع الامير منصور هاجموا راشيا بالبارود . فدافعهم رجال لبنان

ورجال الامير افندي . وبعد محاربته ايام حق الانكسار على عساكر دمشق وفروا من امام الامير بشير الى دمشق . وبذلك الاثناء رجع درويش باشا من طريق الحج واصدر مراسيمه للجهات بانه والي الشام وصيدا وابتدا بتعيين العساكر . كذلك عبدالله باشا صار يمضي كتاباته هكذا (امير الحج السيد عبدالله والي الشام وصيدا وطرابلس ومتصرف الوية غزه ويافا ونابلس وسنجاق القدس الشريف حالا) .

فدخلت سنة ١٢٣٧ (٨٣) هجرية فعبدالله باشا طلب نزول الامير بشير لعنده فنزل وبوصوله لم يواجهه في ديوانه كالعادة بل بقي داخل دار الحريم وادخله لعنده . وبالحال حضرت والدة الوزير لعنده فتلقاها بالاحترام اما هي فوضعت يدها في حزام الامير قايلة له ان ابني هذا هو مولاك بحسب مرتبته واما نظراً لسنه واتعابك امامه فهو ولدك . وقد سبق كثير من تصرفاته الجهلية حتى معك فضلا عن الغير . ونتج عن جهله تصرفاته ان اعداه يمتلكوا الفرصة عند الدولة بعزله ولا نعرف ما هو الاستعداد المهيء له من اخصامه اليهود . وربما انهم مدبرين على اعدامه اخذاً بثأر المعلم حايم الذي غلط ابني بقتله الغلط الذي لا يمكن اصلاحه . فالآن اطلب منك انجاز وعدك بعدم خذلانه . فكان جواب الامير انني اعترفت ولم ازل معترفاً بالعبودية الصادقة لولي نعمتي واسفك دمي في خدمته فليأمرني بالخدمة التي يريدها حتى اباشرها بدون توقف . فعبدالله باشا اجابه اني اريد ضرب درويش باشا قبل وصول ولاة حلب وادنه لمعونته وآخذ الشام من يده . فالدولة عندما تنظر بطشي وانني مع ذلك دايماً اقدم لها مطاليبها الميرية وانفذ جميع اوامرها فتصرف النظر عن سعاية اليهود وترى انه لا احتياج للحروب وتضييع المال والرجال بمحاربة وزيرها الصادق بخدمتها لاجل انفاذ نفسانية اليهود . ومع ذلك يوجد لي اصدقاء من رجال الدولة يساعدونني فلذلك يلزم ان تستحضر رجالك لجسر بنات يعقوب كما ان عساكري تجتمع لهنالك وتمشون سوية على دمشق وتضربون درويش باشا وتجتهدون بالقبض عليه وارساله لطرفنا . فأجابه بالامتثال وارسل اوامره لامراء ومشايخ لبنان بان كل منهم يوافيه برجاله بسرعة لجسر بنات يعقوب . كذلك الوزير نصب ابراهيم آغا الكردي سر عسكر وتجمعت عساكره على الجسر المرقوم نحو اربعة آلاف وحضر من الجبل نحو اثني عشر الف يقودها بعض امرايها ومشايخها ومشوا سوية يقصدون دمشق . فدرويش باشا جمع عساكره مع من قدر على جمعه من دمشق ونواحيها واضيف اليه المشايخ اليزبكية النازحون من لبنان والامير منصور الشهابي المطرود

من راشيا مع رجالهم وجعل معسكره خارج دمشق بثلاثة اميال في قرية المزه حيث امامها سهل متسع. فوضع عسكر الخيل والمدافع خارج البلد ووضع العسكر المشاة خلف جدرانها المطلة على السهل . فعسكر عبدالله باشا عند وصوله لقرب المزه اطلقوا عليه النار من المدافع والبواريد ولم يكن معهم مدافع لمقابلتها لصعوبة الطريق من عكة على سحبها . فترامحت الخيل واشتد القتال بينهم . فالامير بشير ترك (٨٤) عسكر الخيول تترامح وانتخب من رجال المشاة نحو الف نفر كل منهم لا يخشى الموت وساقهم امامه وهو يحرضهم ويشجعهم قاصداً جدران القرية والرصاص منها يهطل عليه كالمطر الى ان التصقت رجاله بها وتسلقت على الحيطان واشعلت النار في بيوت القرية والقتال مستديم . فخيالة عسكر دمشق عندما نظروا ارتفاع دخان حريق البلد مرتفعاً في الجو وخيول عسكر عكا تضايقهم والرصاص من مشاته اهلك كثيراً من رجالهم وخيولهم فولوا منكسرين كما ولت منكسرة العساكر المشاة من داخل القرية فتبعهم عسكر عكا لقرب دمشق وكثير منهم القى نفسه في المياه للتخلص فاختنق بها . واما الامير فلم يسمح بدخول العسكر لدمشق خوفاً عليها من النهب. فرجع واقاموا في ارض المزه . وكان القتلى من عسكر دمشق ينوفون عن الف ومايتين نفراً والقتلى من عسكر عكا وجماعة الامير نحو اربعين. ومن جملة الاسرى كان الشيخ حسين تلحوق . فالامير عفى عنه وارسله لابيه في الجبل كونه لم يتحرك مع اليزبكية . واما ابنه هذا كان شاباً جاهلا ولم يصل الى ما وصل اليه فيما بعد من زيادة التعقل .
واما درويش باشا عندما نظر انكسار عسكره خاف على نفسه والتجى الى المتحصن في قلعة دمشق ينتظر قدوم المعونة من ولاة حلب وادنه . ثم الامير بشير ارسل الشيخ عزالدين الحلبي من معتبري عقال دروز حوران لمقابلة لمقابلة مصطفى باشا والي حلب القادم لمعونة درويش باشا ان يعرض لديه بان درويش باشا محصوراً في قلعة دمشق والامير منع العسكر عن دخول دمشق خوفاً عليها . فلو تعمد دخولها والقاء القبض على درويش باشا حسب امر عبدالله باشا فلا يعسر عليه ذلك سيما وان درويش باشا اساء التصرف مع الامير عندما التجا اليه في حوران . فعوضاً عن اجارة الملهوف بالمساعدة قد طلب من الامير خمسماية الف غرش حتى يسمح له بان يرعى خيله في برية جبل حوران التي لا تقدر عساكر الوالي تصل اليها من كثرة اوباش العربان . فلذلك الامير لا يأمنه ويبقى مضايقاً عليه حتى تحل ركابك في دمشق ويصله امرك فيقوم بعساكره من امامك مذعوراً من سطوتك . فيكون ذلك اعتباراً عند الدولة وخفضاً

لاعتبار درويش باشا ويصدر الامر بعزله وتوجيه المنصب لدولتك . فرجع الشيخ عزالدين بالجواب بان مصطفى باشا حصل له كمال المحظوظية من الامير لوعده هذا [وبعد ان وصل الباشا لدمشق خاطب الامير بقدومه حسب الامر السلطاني لمعونة (٨٥) درويش باشا وانه يجب الامتثال وتقومون بالعساكر التي صحبتكم عن مضايقة دمشق . فحالا نهض الامير بجميع العساكر وتوجه كل فريق منها لمحله . [فالامير بشير غب وصوله الى بيته اجتمع بالشيخ بشير وقر رأيهم ان الامير يتوجه الى مصر ملتجياً الى واليها الشهير محمد علي باشا لكي يتوسط عند الدولة العلية باستحصال العفو عن عبدالله باشا . وكان الامير سبق وافاد الخواجه حنا بحري عما يمكن وصول الحال اليه مع درويش باشا ويضطر للقيام من بلاده فهل يصير قبوله لدى محمد علي باشا في مصر لان الخواجه بحري كان وجيهاً عنده . فورد له الجواب انه من اخص شيم افندينا اغاثة الملهوفين وتفريج كرب المضنوكين فمتى شئت احضر . فالامير اعرض لعبد الله باشا عما صمم عليه مع معتمده حنا عزام فرجع الجواب بالاستحسان مع كتابة منه لمحمد علي يلتمس مساعدته امام الدولة العلية ويبرر نفسه بصدق عبوديته لها وان تغيير خاطرها عليه لم يكن لذنب صدر منه بل هو من وشايات ذوي النفسانية وانه يسترحم عفوها بواسطته. ثم ان الامير اختشى من اعطاء حكومة الجبل لامير لا يراعي مصلحته ولا المختصين به فاتفق مع الشيخ بشير على تقديم الامير عباس ابن الامير اسعد ابن الامير يونس ابن الامير حيدر الجد الجامع لشهابيين الجبل فهذا قد رباه الامير وكان يحسبه ابنه الاكبر وهو ابن اخت زوجته . فالامير نزل باتباعه لقرية معلقة الدامور وصحبته نحو الف نفر من اتباعه واستحضر مركباً من بيروت وسافر به اولاده ومائة نفر من اتباعه كان من جملتهم المعلم بطرس كرامه واحمد آغا اليوسف من اكراد دمشق ترجماناً الذي فيما بعد تقدم في الحكم حتى صار احمد باشا . والآن ولده محمد بك عضواً في مجلس ادارة الولاية وهو مع والده المتوفي من الاشخاص المستقيمين في تصرفاتهم . فالامير وصل بمن معه الى مصر وحاز القبول. ولكن لاجل احترام الدولة ارسلوه يقيم بالصعيد بقرية بني سويف لبينما يسعى محمد علي باصدار العفو من السلطنة عن عبدالله باشا]

واما درويش باشا غب قيام الامير جهز العساكر ونهض الى سهل البقاع فنزل لعنده الامير عباس ففوضه بحكومة الجبل . والشيخ بشير تعهد عنه بتأدية الاموال الميرية . ثم انه يوجد في غربي البقاع بذيل جبل لبنان في قرية قب الياس دمنة قلعة قديمة مهدمة من عمار امراء معن . فدرويش باشا امر بهدم بعض

جدران باقية وعين لذلك مأموراً مسلماً حلبياً من بيت العرقتنجي واعرض للدولة عن طرده الامير بشير وادخاله جبل لبنان بالاطاعة واستيلائه على قلعة قب الياس التي كانت مسنداً لعصاوة اهاليه . وقد امر بهدمها وهدمت. ثم ارسل الامير منصور حاكماً على بلاد راشيا . واما الامير افندي اضطر لمهاجرة وطنه . فقام (٨٦) باخيه واولاده الى لبنان . واعطى حكومة مرجعيون للشيخ علي عماد . وكان كاتبه ومدير اشغاله اسعد الشدياق . والمذكور واقعته مع بطريرك طائفته المارونية السيد يوسف حبيش وكيف اماته هي مشهورة . وهكذا حكومة حاصبيا بواسطة الامير منصور اعطيت للامير حسن واخيه الامير حسين بديعة الشهابيين. وبما ان والدهم وجدهم قبلهم لم يحكما البلاد فلم يكن لها حزب من مشايخ البلاد واهاليها ولا سطوة يخشاها احد . واما الامراء الحكام في حاصبيا وقتئذ كانوا ثلاثة اولاد ثلاثة اخوة كانوا حكام البلاد قبل اولادهم وهم الامير سيد احمد ابن الامير قاسم كبير اخوته والامير سليم ابن الامير عثمان والامير سعد الدين ابن الامير علي اصغر اخوته ولكن الامير سعد الدين هو اكبر سناً من الامير سليم وارشد منه . اما الامير سيد احمد فكان بسيطاً للغاية متدين جداً . فلذلك كان الاسم والنفوذ للامير سعدالدين سيما وله اربعة اخوة شبان وهم الامراء بشير ومحمد وامين وخليل وسيأتي ذكر كل منهم بمحله . فالامراء المذكورون مع جميع امراء عايلتهم نحو ثلاثين امير تركوا حاصبيا وتوجهوا لعند الامير عباس وصحبتهم كل من يخصهم لان حاكم الجبل يحتسب جميع آل شهاب كأولاده ولو كانوا على غير مذهبه . فأنزلهم في سراي بدير القمر وذلك في سنة ١٢٣٧ هجرية . وبهذه الوسيلة تعرفوا بمحرره وتمكنت الصداقة والمحبة بينهم ومع اولادهم حتى الآن .

ثم مشى درويش باشا بالعساكر قاصداً عكا . فعبدالله باشا قفل ابوابها وتحصن داخلها مع خواصه وبعض عساكر ومدافعيه من ابناء العرب والاتراك الذين يوثق بهم بجميعهم نحو الفي رجل . فدرويش باشا وضع معسكره خارجاً بمسافة ثلاثة اميال في مكان يقال له ابا عتبه . وكان بمعيته مدبراً المعلم سلمون فارحي الساعي بالانتقام من عبدالله باشا آخذاً بثأر كبيرهم حاييم . كذلك اجتمع على عكة مصطفى باشا والي حلب وبرهام باشا والي ادنه بعساكرهما . والعادة انه بعد صلاة العشاء يضرب العساكر ثلاثة مدافع . فعبدالله باشا كان يجاوبهم من داخل عكا بثلاثة شواريخ المستعملة في مراسح اللهو يستهزئ بمدافعهم . ومن المعلوم ان وزراء العثمانية في تلك الازمنة لم يكن عندهم من القوة الكافية لفتح قلعة حصينة كقلعة عكا . فكانوا يتكلمون على فروغ ذخيرة المحصورين

واضطرارهم الى التسليم او على خيانة بعضهم . فشددوا الحصار على عكا .

ان محرره مخاييل مشاقه كان موكلا من خاله الخواجه بطرس عنحوري على سندات له بدين على اشخاص من لبنان حيث اقتضى رجوعه لبر مصر في اشغاله وابقى ولده عند عمته . وكان الشيخ بشير جنبلاط باعه موسم حريره نيف عن سبعة قناطير لوعدة لم يستحق وفاها . وعندما اقتضى له السفر تعهد بيت مشاقه بدفع المبلغ باستحقاقه اذا كان قبل رجوع المديون . فعندما صمم الامير بشير على السفر الى مصر اعرض لديه مخاييل عن رغبته بالسفر مع والده بخدمته وعن قضية الكفالة التي عليهم (٨٧) للشيخ بشير . فقال له خذ سندات ديون خالك وابنه وتوجه بها لعند الشيخ واخبره عن مرغوبك وقدم له السندات والولد ليكونا عنده بدل الكفالة والذي يجاوبك فيه اخبرني عنه . فعملت حسب امر الامير . فجاوبني الشيخ بشير هل انني طلبت من خالك كفيلا ام اخذت عليكم سند كفالة حتى تأتيني بهذا الكلام فاني اعرف ما انتم عليه . انتم كفلتم بدون طلب كفالة فلماذا تريدون السفر . اجبته احتساباً من مبغضي الامير ان يسعوا بما يضرنا . اجاب ان سعادة افندينا الامير ولو غاب عنا شخصه فنحن دايماً تحت خاطره وامره ولا يحصل عليكم الا ما يفوتني . فخذ ابن خالك وسنداته وكونوا مرتاحين في بيتكم واشغالكم . ونؤمل ان الباري تعالى يسهل طريق افندينا الامير ويرجعه الينا باقرب وقت . فرجعت واخبرت الامير بما حصل . فقال لي ابق مع اخوتك كما قال الشيخ واما والدكم يتوجه معي . وبذاك النهار قام الامير الى معلقة الدامور وعندما لم ياخذ صحبته بالمركب سوى مايه نفر ارجع والدنا مع من ارجعهم واعطاه كتابة للمشايخ حمود وناصيف ابي نكد توصاه به خصوصاً وبباقي خدام الامير عموماً .

ثم تعاطيت اشغال معيشتي بتشغيل الاقمشة الحريرية وارسال الحرير لدمشق عند رواج حاله بها . وبذاك الوقت رغبت بالاطلاع على فن الجبر والمقابلة ولم يمكنني الحصول سوى على كراس متن اسمه خلاصة الحساب لبهاء الدين العاملي يوجد في آخره كلاماً وجيزاً في اصول الجبر الذي حصره المؤلف بنحو ثلاثة اوراق بعبارة مغلقة جداً . ولا يوجد بدير القمر من يعرف اسم هذا الفن فضلا عن اصوله . فاعتنيت بمطالعته وفهم مقاصده بجد جهدي والباري تعالى سهل لي الحصول على مرغوبي . وبتلك المدة زادت مودة الشيخ بشير جنبلاط واولاده الشيخ قاسم والشيخ سليم وابناء اخيه الشيخ علي والشيخ قاسم لنحوي حتى انهم لا يتركوني شهراً بدون زيارتي لهم في محلاتهم جملة ايام . كذلك

الامير عباس المقيم بسرايا جرجس باز بدير القمر التزمت بالسهرة عنده كل ليلة لاجل تسليته . واذا تعوقت عنه لعذر ما يرسل بطلبي الى ان في احدى الايام وردت ورقة باسم والدي تحت ختم الامير عباس بطلب مبلغ قرض تساوي قيمته الف وخمساية ريال عمود . ونظرت ان الاوراق الواردة لغيرنا ممن هو اغنى منا جداً لا يوجد ورقة بأكثر من ماية وخمسين ريال وافتكرت بان هذا القرض عديم الوفاء . فأخذت الورقة وتوجهت بها لعند الامير عباس وقررت لديه ان هذا المطلوب هو لشخصك ام للحكم . اجابني بل للحكم وشخصي لست محتاجاً لشيء واذا كنت محتاجاً لقرضة دراهم فاعطيك لزومك . اجبته اذا كان للحكم فيلزم التسوية بين الرعية وليس موجوداً على امثالنا ماية ريال وفلان الذي هو اغنى التجار موضوع عليه ماية وثمانين ريال فكيف سعادتك ترتضي بهذا. فضحك واجابني قايلا انك لحد الآن ما عرفت بانني امير على طاولة الطعام فقط وان كل شيء بيد الشيخ بشير كونه تعهد لخزينة الوزير باموال الجبل ووضع عندي فلان ابن بلدكم من طايفتكم وكيلا (٨٨) فهو يكتب كما يعرف وانا اضع ختمي على ما يكتبه حتى انني عند قراءة الاوراق للختم اعترضت عليه بورقتكم وورقة فلان الذي اشرتم عنه فأظهر الزعل وقال انا اعرف الواجب عمله. فبيت مشاقه الاب واحد واولاده ثلاثة فاربعة رجال لا يكثر عليهم مبلغ كهذا وهم مرتاحون في زمان سلفكم بخلاف فلان كان لا يرتاح من المطاليب نظيرهم . اجبته ان كلامه غير صحيح والامير ما كان يكلف الانسان لغير مال ميري اراضيه . واذا لزمه قرضه فلم يجبر احد على دفعها بل كان والدي يستقرضها من الذي يوجد عنده دراهم جاهزة باقية لموسم الحرير وترجع لهم عملة صاغ باول الموسم . واكثر الاحيان هم يسألون والدي اذا كان لازم للامير دراهم . ودفاتر (المقارضات) ووفائها سنوياً موجودة عندنا واظن انه لا يوجد فيها اسماً لفلان المدعي ظلمه بمدة الامير .ولكن العجب كيف انه عرف بوجود ثلاثة اولاد لجرجس مشاقه ولم يعرف الاربعة اولاد واخين لفلان الذي هو اخو زوجته وهو متزوج باخته . وحيث ان القضية متعلقة بالشيخ بشير فاتوجه بنفسي الى المختاره واقرر له الواقعة ⟩ فتوجهت حالا وعندما حولت عن فرسي وجدت تابعاً قال لي جناب الشيخ يريدك . فتوجهت معه . وكان بالمجلس عنده اولاده قاسم وسليم فريثما جلست وشربت القهوة قال لي الشيخ نظرناك بالنظارة مستعجلا في نزلة الجديدة افتكرنا انه لسبب داعي فخيراً يكون ان شاء الله . اجبته انه كان قصدي السفر مع سعادة الامير احتساباً من التعدي علينا وجنابك استحسنت بقاينا في محلنا وانه لا يصلنا الا الذي يفوت

جنابك . فالذي وصلنا الآن من يد معتمدك فلان حضرت للسؤال عنه هل هو مما فات جنابك . اجابني ماذا اصابك فشرحت المتوقع . فولده الشيخ سليم وكان حد الطباع قال لابيه وصل تعدي معتمدك الى مخاييل . فبهذه الساعة اتوجه واقتله في بيته . قال له القضية هينة وميخاييل يبقى عندنا نتسلى معه . والدعوى نعرضها للامير وتنصرف كالمرغوب. فخرجت من عنده مع اولاده لدورهم الخصوصية ثم سهرنا عند جناب الشيخ ونمت عند اولاده . وعند الصباح توجهت معهم للصباح على والدهم . وبعد شرب القهوة ناولني خطاباً لي من الامير عباس مضمونه انه رفع عني وعن والدي الذي يخصنا النصف من المطلوب . فراجعت الشيخ بذلك اجابني كل انسان يلتزم بمن يخصه فوالدك صديقي قبل ان تخلق وانت سلكت في طريق والدك فواجب على ذمتي المحاماة على صوالحكم . واما اخوك ابراهيم وشريكه اخوك اندراوس لا انظرهما هنا ولا عندما كنت بدير القمر . وهما متعلقان في اخوتنا المشايخ حمود وناصيف النكدية فلا يلزمني تعاطي مصلحة المخصوصين بغيري . وكان الباعث لكلامه هذا ان الشيخ ناصيف منعه من المجيء لدير القمر لاختلاف بينهم . فاستأذنت منه بالذهاب فلم يسمح لي لثلاثة ايام . وامرني ان ارسل ورقة الامير لوالدي لاجل رفع الطلب عنه . فأرسلتها وعرفته المتوقع. فاخي ابراهيم حالا اطلع المشايخ النكدية على تحريري ومرسوم الامير فاستشاطوا غيظاً وارسلوا مخصوصاً للامير عباس ان يرفع الطلب عن ابراهيم واندراوس مشاقه . واما فلان سنقتله على فراشه لانه يسعى بالفساد ويعمل اسباب للنفور بين مشايخ البلاد. فرفع الطلب (٨٩) وبقي فلان اياماً يبات بالسرايا خوفاً حتى صار توسط لصفو خاطر المشايخ من نحوه .

وعندما مضى خمسة اشهر ولم ينجح درويش باشا في محاصرة عكا عزلته الدولة ووجهت ولاية صيدا على مصطفى باشا والي حلب الذي كان يميل للامير بشير وارسل له حينئذ تحريراً لمصر يطلبه بالحضور. وحين ورود الامر بعزل درويش باشا حصل غم شديد للمعلم سلمون فارحي طرحه بحمى شديدة ومات بها . وعندما نزل الامير عباس للمعسكر في صحراء عكا ليبارك لمصطفى باشا بالمنصب التمس منه بانه يصلح بين امراء حاصبيا وراشيا ويقسم حكومة بلادهم بين المتولين والنازحين لاجل هدو تلك البلاد من القلاقل فرخص له بذلك . ثم الباشا لمعرفته بان الامير عباس تقدم لحكومة الجبل عن تدبير الامير بشير لانه عنده كاولاده اخبره انني طلبت حضور والدكم من مصر وقريباً يحضر ظناً منه ان الامير عباس ينشرح لذلك ولكن الامير المومى اليه اغتمّ باطناً لانه كان يؤمل

ان حكم لبنان يدوم له وان عكا لا بد ان توخذ بالحصار عندما تحتاج للذخاير ولا يعود مالا عند عبدالله باشا ليعطي عساكره ما يرضيه . وحينئذ ينقطع امل الامير بشير واولاده من الرجوع وان الشيخ بشير جنبلاط يعضده اضطراراً لانقطاع امله من رجوع عايلة الامير بشير . وكنت فيما بعد اجتهد بازالة هذه الاماني من فكره عندما يظهر لي منه ما يدل عليها بقولي له بان العاقل لا ينبغي له ان يضع المظنونات الممكنة بمنزلة المشاهدات الراهنة لامكان حدوث الموانع والظنون كما انها تصيب قد تخطئ ايضاً فيجب على العاقل يتحذر من خطاها باكثر مما يؤمل من اصابتها ليحفظ نفسه من غوايل الخطا. فكان لثقته بي يسمع لكلامي لكنه كان كثير التردد في افكاره لا يجزم على راي .

ثم بعد رجوعه من عكا اصلح بين الامراء بوادي التيم فقسم بلاد راشيا بين الامير افندي والامير منصور لكل منهما قرايا معلومة . واما نفس راشيا لكل منهما نصفها وليس لاحدهما السكنى بها . فالامير افندي سكن بقرية عين عطا ثم انتقل لقرية بكيفا والامير منصور سكن بقرية الظهر الاحمر . واخو الامير افندي الامير جهجاه واولادهما ترتب لهم معاشاً على كل من الامير افندي والامير منصور مناصفة حال كون الامير منصور لم يكن له اولاد ولا اخوة . واما بلاد (حاصبيا) مع تبعتها بلاد الحوله وشعاره قسمت بين الامير حسن بديعه والامير سعدالدين والامير سليم لكل منهم الثلث . واما الامير حسن بديعه والامير سيد احمد تنزلا عن حقهما بالحكومة وارتضيا بأخذ معاش يكفيهما وهكذا ترتب المعاش لبقية الامراء كالعادة (٩٠) ‹فالشيخ علي العماد المعطاة له حكومة بلاد مرج عيون فلم يحسن سلوكه لا مع الاهالي ولا مع اولياء امره . ولربما كان ذلك لعدم غناه . فسوء تصرفه اسس له كراهية شديدة في قلب مصطفى باشا وصار يترصد وقوعه بيده حتى فيما بعد وقع بيده وقتله كما يأتي ذكره بمحله.›

وبعد ان حوصرت عكا تسعة اشهر رجع الامير بشير اليها من مصر بمن معه وصحبته سليمان افندي سلحدار والي مصر وفرمان سلطاني بالعفو عن عبدالله باشا وتقرير ولاية صيدا عليه مع الامر لمصطفى باشا بالقيام عن حصار عكه والرجوع الى ولاية حلب . ولم يكن بخزينته نقود كافية لدفع ما عليه للعساكر الذي بمعيته فأخبر الامير بذلك فارسل له من خزينة عكا لزومه . فقام عنها في آخر جمعه من صوم النصارى . فعبدالله باشا غب رفع الحصار اظهر تكدير خاطره على جميع العمال الذين خدموا درويش باشا وبالاخص على الشيخ بشير جنبلاط . وبما ان الدولة رتبت عليه لخزينتها خمسة وعشرين الف كيس عملتها

بوقته المساوية قيمتها الآن نحو نصف مليون ليرا عن بدل مصارف عسكرها بحصار عكه وهو قد صرف ما عنده بمدة الحصار والدولة سلخت عنه ولاية طرابلس ولواء غزه ويافا مع الوعد بارجاعها اليه متى اكمل دفع المطلوب فوزع مطلوب الدولة على الايالة وقال للامير ان الجبل هو ضمن الايالة الباقي بيدي فيلزمه دفع خمس المطلوب . . . .

. . . .

فالشيخ بشير دفع المطلوب منه . ثم نظر عدم الراحة فنزح الى راشيا ملتجياً لوالي الشام الذي خاطب بخصوصه عبدالله باشا الذي حرر للامير بشير لاجله واعطي له التأمين بالرجوع لبيته . فرجع وصحبته معتمد من طرف والي الشام عبدالله افندي المهردار وهو من العقلاء وله اليد الطولى بالفنون وصناعة الكلا م . وعندما حضر الشيخ لمواجهة الامير فلم يحضر كعادته بعشرة او عشرين من الاتباع بل كان صحبته نحو الف متسلح . وربما كانت غايته ان يظهر قوة مشايخ لبنان وخضوعهم لاميرهم امام معتمد وزير الشام ليعرفوا درجة سطوة حاكم الجبل . واما الامير اتخذ هذا العمل من عدم ثقة الشيخ بشير بالامان المعطى له وانه يخشى من الغدر . فهذه الافكار التي نتجت عن كيفية تلك المواجهة قد حركت غيظ الامير وجعلته عديم الثقة برجوع الشيخ لصداقته معه حسب القديم . هذا وان امناء الدين من الفريقين كانوا يدخلون في افكار الواحد ما يبعده عن الآخر . والذي تشهد به التجربة ان كل قضية دنيوية تتداخل بمعاطاتها ايدي رؤساء الاديان لابد ان تنتهي الى الشر. ولا يصح القول ان الرؤساء يقصدون الشر او يريدونه حاشاهم من ذلك ولانقيسهم الا بصايغ الجواهر الذي لا يعرف كيف يفحمون الحطب فلو باشر التفحيم يفسده لعدم معرفته بتلك الصنعة . فاذا اردت ان اخلف نعلي فلا يليق ان اتخذ فيه رأي الساعاتي بل يجب الاعتماد على رأي الاسكافي لكونه اعلم في صناعته من الساعاتي . وهكذا (اذا) كانت القضية روحانية فاعتمد (٩٢) فيها رأي الروحانيين او جسمانية فرأي الجسمانيين. فاذا سبرت اسباب الخراب في جميع ممالك العالم قلما تجد سبباً غير دخول رؤساء الدين في الامور العالمية . فالعاقل يجب عليه ان يسد آذانه عن سماع كلامهم بالامور الدنيوية كما يسدها عن سماع الدنيويين في الامور الروحية . واظن بانه لا يخالف ذلك الا اعمى البصيرة .

فالامير بعد مدة قد طلب من الشيخ بشير الف كيس غير الذي دفعه اولا فدفع منها شيئاً وارسل معتمده فلان المتقدم ذكره من وجوه الكاثوليك بدير القمر

مستعطف خاطر الامير بان يمهله بالباقي ليدفعه تدريجاً . وكان القصد اتخاذ الفرصة حيث بتلك الليلة قام الى حوران برجاله ولم يبلغ خبر قيامه للامير حتى الصباح فكان الشيخ بشير قد بلغ برجاله مأمنه في ايالة الشام . ففلان خاف جداً من الامير بان ينسب اليه بانه اتى ليخدعه مع معرفته بما صمم عليه الشيخ بشير . ولكن الامير لم يلم الخادم على تصرفه كارادة مخدومه ولذلك طمنه بان يكون اميناً ويقيم في بيته» وحينئذ تواردت عليه الشكايات بدعاوى متنوعة كالعادة بفتح الدعاوى على من يخسر جاهه . فتصدر لدفع الدعاوى عنه ابراهيم مشاقه الخبير بالامور الشرعية فدفعها عنه ولم يكلفه لخسارة شيء . وبعد مدة صار التوسط باستخدامه مع كتاب التحريرات عند الامير . واجتهد ان يكافي المعروف بسعيه عند الامير في ابعاد والد ابراهيم من وظيفته ليكون مكانه بتقرير دعاوى كاذبة لم يرتضي الامير بتصديقها . ولكن والد ابراهيم قد الح بالرجاء للتحقيق عليه بحضور الواشي لاجل ثبوت التهمة او التبرير منها جهاراً . وبعد تكرار الرجاء سمح الامير بذلك وغب تدقيق المحاسبة وكتابتها بقلم الواشي ظهر ان الزايد لوالد ابراهيم ثلاثة آلاف غرش باعتبار سعر الريال سبعة غروش . ثم ختم الدفتر بختم المحققين وختم الواشي وتقدم للامير الذي استحضر والد ابراهيم وقال له ما النتيجة من طلبك التحقيق ها انه زاد لك ثلاثة آلاف غرش . اجابه يا سيدي الدراهم لا تزيد ولكن الثلاثة آلاف التي امرت لي بها بدفتر المعاشات ابقيتها بالصندوق لحين لزومها لي . واما نتيجة طلبي التحقيق هي لاظهار براوتي عند نفس الواشي وعند من استمع لكلامه لا لاظهارها لدى سعادتك لانك تعرف جيداً صداقة جميع خدامك . والآن بعد ان تبررت جهاراً التمس ان اكون في بيتي بوظيفة داعي لسعادتكم بقية عمري . ولله الحمد اولادي خمسة قد تربوا على خبزكم وصار كل واحد منهم يقدر على القيام بمصارف عيلتنا . فاذا حسن لديكم فتأمروا باعطاء وظيفتي لهذا الرجل لانه يقاتل على الحصول عليها . وله اعمال ضدي غير هذه باطلاع المعلم غنطوس عازر وغيره لا يسعني شرحها ولله الحمد لم ينجّح بواحدة منها . اجابه الامير (٩٣) متى عجزت فوظيفتك لواحد من اولادك واما الآن فلست بعاجز فكن في عملك . فنهض لتقبيل يد الامير وينصرف لعمله فقال له اجلس مكانك واستحضر الواشي وسأله هل هذا دفتر التحقيق هو بخطك وهذا هو امضايك وختمك اجابه نعم . قال له كم طلع لنا بهذا الحساب ضمن ابي ابراهيم مدفوع من صندوقنا لتجارة اولاده اجابه لا شيء بل له الزيادة . قال الامير انه هو من استماعه وشايتك عليه فمع معرفته بانني

لا اقبل عليه وشاية لم يرتضي مني الآ باجراء التحقيق بمعرفتك لتظهر برارته امام الذين اتلفت اسمه امامهم لا بل قد اتضح الآن للجميع عدم استقامتك فاعلم ان تربية خدامي ليس حسب الطريقة التي انت ارتبيت عليها فاحرص من العود لمثل ذلك ليلا يحصل لك مني ما لا تحب. واما الآن فاكتب بقلمك وصولاً مني لابي ابراهيم باثني عشر الف غرش وسلمه له من يدك اظهاراً لصداقته وتخجيلك. فكتبه وتم امر الامير وانصرفا احدهما فرحاً والآخر خجلا.

وبذاك الوقت حضر الى دير القمر رجلا اميركاني اسمه يونس كين بيده تحرير توصية لتاجر اسمه يوسف الدوماني بيته تجاه بيت مشاقه واحد اولاده متزوج باحدى بنات مشاقه فانزله عنده وكثر اجتماعنا عليه لقرب منزله الينا . وكان يتكلم بالعربية جيداً ولكن الجميع يتاسفون عليه لحسن صورته وشبوبيته باعتقادهم فيه بانه انكليزي لا دين له كما يتلقنون من قسوسهم حتى كثير منهم يعترض عليه بقوله لماذا انتم الانكليز بلا دين فيجيبهم هذا غلط . نحن مسيحيون فلا يقتنعون منه وهو يساير الجميع بكل لطف . فاكثر الليالي نقضي السهرة معه . فعيلتي تتاسف عليه كونه غير كاثوليكي فيذهب الى جهنم . واما انا فاضحك باطناً على الفريقين ولكني عشقت مزايا هذا الانسان وكنت افتكر كيف انه مع جودة عقله يصدق الخرافات الدينية التي ترفضها العقول السليمة . وكان المذكور يسافر الى الجهات ثم يرجع لدير القمر الى انه طلب منا معلماً يعلمه اللغة السريانية . وكان لنا معرفة باولاد يوسف الشدياق من ساحل بيروت ينسخون لنا كتباً بالاجرة وخطوطهم جميلة وتربية المدرسة المارونية التي تعلم السريانية والعربية فاستحضرنا له الشاب اسعد بن يوسف الشدياق المذكور فرتب له حسب طلبه اجرة شهرية فعلمه السريانية بمدة قصيرة ورجع لبيته شاكراً من صنيع الخواجه يونس كين معه . ولكنه صار يكتب له بالعربي كما يلزمه . . . .

. . . .

ان الامير عباس قد شعر بانحراف خاطر الامير بشير نحوه وصار يختشي على نفسه . فطلبني لمواجهته في قرية مجدل معوش واخبرني عما يراه من انحراف خاطر الامير عليه وان اكون رسولا بينهما حيث خدامه ليس لهم وجه عند الامير وانه لا يؤتمن غيري من جماعة الامير على السلوك معه بالاستقامة فيما يخصه . فقبلت الرسالة وترددت بينهما مراراً . فكان الامير بشير يعترض عليه بقضايا تشير على اتفاق الامير عباس مع الشيخ بشير جنبلاط الخارج عن دايرة رضاه . وحيث انه محسوب كواحد من اولاده فاتفاقه مع عدوه يحسب عليه ذنب عظيم .

واما الامير عباس ينكر الدعوى ويقول لا ارضى ان سعادة الامير يحسبني ولداً عقوقاً ويقيم الدلايل الدافعة لدعوى الامير . فضاع فكري عن ادراك حقيقة الواقعة حتى اعترفت لسعادة الامير بان عبدكم قد مهرت بعلم استخراج المجهولات العددية والمقدارية واما مجهول هذه القضية السياسية فلم تقدر افكاري على معرفة طريقة لاستخراج مجهولها . فضحك من قولي واجابني ان السبب لعدم اقتدارك على حلها عدم ممارستك لعلم السياسة فانا اعلمك طريق التوصل لمعرفة هذا المجهول . ان النصارى يقولون على المنكر ايمانه اذا اراد الرجوع يلزمه ان يشتري بالمحل الذي باع فيه . فالامير عباس باع رضائي برضاء الشيخ بشير جنبلاط الذي حضر الآن لاراضي بعلبك لتحريك الفتنة في الجبل . فان كان لم يزل في خاطري كما يزعم فليتوجه ويضربه . فقلت وهل عنده من الرجال ما يكفي لمحاربة جمهور الشيخ بشير . اجابني ان الرجال اقدمها له باكثر من اللازم فقط يكون هو القايد لها فتطلب ذلك منه وتفيدني جوابه . فتوجهت لعند الامير عباس مسروراً بان الدعوى قد انتهت معي على وجه سهل . وقررت لديه ما كان من نهاية كلام الامير . فكان كلامه اذا انا فعلت ذلك اكون كمن اسلم بعد الظهر ومات قبل العصر فتبرى من دينه والاسلام لم يعرفوه . اجبته ارجوك تصغي لكلامي فان استصوبته فتقبله والا فترفضه . فنظراً للشيخ بشير لا اظن ان محبتي له هي اقل من ميلك لنحوه لانه يستحق المحبة لحسن (٩٦) اطواره وبكل وقت اطلب من الباري تعالى ان يزيل الكدر من بينه وبين سعادة الامير الذي هو ولي نعمتنا ولا يمكننا ان ننسى افضاله علينا كما اننا نشتهي دوام الراحة لجميع عيلته وان جميعها تكون تحت خاطره لانه اكبرها سناً وجاهاً وتدبيراً وقد شاهدنا عياناً التعس الذي لحق بمقاوميه ان كان من عيلته او من غيرها والراحة التي حصل عليها السالكون في رضاه . فالقياس الذي تكرمت بايراده ينطبق على عكس الواقع . فالممثل به قد خرج من دين يعرفه لما لا يعرفه . ولم ينل مرغوبه . واما الاحسن لهذه الواقعة ولا تواخذني مثل الابن الشاطر المذكور في الانجيل ورجوعه لاحضان ابيه وقبوله بالفرح والابتهاج . والحمد لله لم يحصل خطية من خطايا الابن الشاطر فنؤمل من ابينا ان يلاقينا بأحسن مما لاقاه ابوه . يا ترى ما القايدة للشيخ بشير من وجودك تحت اغبرار خاطر الامير .فاذا كنت كما كنت في خاطر الامير هو انفع لصالح الشيخ بشير اذ يمكنك استجلاب خاطر الامير لنحوه لانه لم يكن بالسابق عدواً له بل للشيخ امامه الخدامات الكلية وهل بقي محل للامل في قهر الامير بعد خداماته اما عبدالله باشا وسعيه برفع الحصار عنه ورضا السلطان عليه .

وهل بعد انحساب الامير على محمد علي باشا والي مصر يكون عديم السؤال عن مساعدته ولو ضد ارادة عبدالله باشا . فالرأي عندي ان تتوجه حالا بنفسك لعند الامير وتدخل لعند خالتك ام اولاده كجاري عادتك وتقابل الامير بقولك قد حضر ولدكم لعندكم ولا يقول باكثر من ان تفعل به ما تريده وان شئت فعبدكم اتوجه بخدمتكم . ولا يمكن الا حصولك على كلما يسرك . فبقيت عنده يومين اتعب في استجلابه لما فيه راحتي فما امكن . فرجعت لعند الامير واخبرته باعتذار الامير عباس عن هذه الخدمة كونها صغيرة بمقامه ان ينهض بنفسه لمقاومة شيخ . فالامير مسك اذني وقال لي نظرت بعينك طريقة استخراج المجهولات السياسية فاحفظها واذا طلبك الامير عباس لعنده فاعتذر له بمنعي اياك . فالامير ارسل رجالا لضرب الشيخ بشير فلم يقاتلهم وقام من وجههم لبلاد عكار .

وبهذا الاثنا صدر الامر السلطاني بطلب راس مصطفى آغا بربر فحضر الى لبنان ملتجياً الى الامير الذي قبله بكل اعزاز وعين له الاقامة مع جماعته بقرية الشويفات حتى استحصل له عفواً بواسطة والي مصر واكتسب صداقته بعد العداوة .

ثم دخلت سنة ١٨٢٦ مسيحية الموافقة ١٢٤٠ هجرية . في شهر شباط ورد الخبر على الامير بشير بان الامير سلمان واخاه الامير فارس والامير عباس واخاه الامير حسن والشيخ علي العماد وابناء عمه والشيخ علي جنبلاط واخيه الشيخ قاسم ابناء الشيخ حسن اخي الشيخ بشير مع رجال المذكورين قد تجمهروا (٩٧) بالمختاره مركز الشيخ بشير وصاروا نحو اثني عشر الف فارس وراجل منتظرين قدوم الشيخ بشير من بلاد عكار ليهجموا على الامير بشير وايضاً منعوا خدامه الذين من بلادهم ان يأتوا لعنده . فبذاك اليوم لم يأتوا الخدام لسراي الامير كعادتهم . وكان على الدوام يجد حوله من اتباعه اكثر من الف وخمساية . فبذاك اليوم لم يجد سوى ماية وثلاثة واربعين شخصاً . منهم الشيخ حسين شبلي حمادي واقرباه والمتوظفين من اهالي دير القمر وتوابعها . والبقية ما بين طباخ وخباز وسايس خيل . فالامير قدم اعراض المتوقع لعبدالله باشا الذي اصدر اوامره للجهات بتوجيه العساكر واجتماعها على جسر الاولي تحت طلب الامير . ثم بعده نهض بذاته ونصب خيامه على الجسر المرقوم . وهكذا الامير اعرض الواقعة لوالي مصر عن يد ولده الامير امين الذي كان توجه اليها بهدية خيول فاخرة لاسطبل محمد علي باشا الذي عندما بلغه المعروض صدر امره بتجهيز

عسكر كافي يكون تحت طلب الامير امين بالتوجه على لبنان . وكتب مرسوماً للخارجين من طاعة الامير بالوعيد ويحذرهم عاقبة الخلاف . اما الشيخ بشير لم يسارع بحضوره من عكار احتساباً من عدم ثبات الشيخ علي عماد معه بان يورطه لمحاربة الامير وينحاز عنه فلذلك تاخر لبعد وقوع المحاربة . وبذلك كانت الفرصة للامير في تدبير شغله معهم . فكان من الجهة الواحدة يراسلهم مع مشايخ العقال بان لا يعملوا اسباب لسفك الدماء وخراب البلاد وانه يجري لهم مرغوباتهم بكلما يرضيهم من الممكنات. ومن الجهة الثانية يحزّب معه ما يمكنه من مناصب البلاد . فاول اعماله استمال الشيخ حمود والشيخ ناصيف ابا نكد وهؤلاء هم القريبون اليه وعندهم رجال دير القمر والمناصف والشحار من خواص رجال الجبل ويميلون طبعاً لمحبة الامير وكثير منهم خادم عنده . ثم بواسطة المذكورين استمال مشايخ الغرب الفوقاني بيت تلحوق من اليزبكية . فحضروا الى بتدين برجالهم . وحضر ايضاً من اليزبكية الشيخ شبلي عبدالملك برجاله وهو من قبل مخصص نفسه بالامير . وحضر مصطفى آغا بربر باربعين خيال جماعته . وحضر من بعقلين جميع المختصين في بيت حمادي من نصارى ودروز . فالشيخ ناصيف ابي نكد استقام بجماعته عند الامير وبقي ابن عمه الشيخ حمود بدير القمر . وبعد ثمانية ايام المشايخ الذين بالمختاره مع الامراء تكاثرت رجالهم وانتقلوا فيهم الى قرية السمقانية بعيداً عن مركز الامير نحو ميل واحد . فالامير ارسل اليهم وسايط مشايخ العقال لاصلاحهم . فبقيوا على عزمهم . فالامير عند الصباح عندما بلغه شروعهم بالانتقال الى قرية السمقانية ارسل الامير بشير القاسم لاحضار العسكر الموجود على جسر الاولي . وهكذا الشيخ ناصيف حرر لابن عمه ان يرسل له خمساية راجل فقط من دير القمر ويترك فيها البقية (٩٨) حذراً من غدرها برجال الغرب التحتاني خاصة السيدة حبوس رسلان وهي جدة الامير مصطفى قايمقام الشوف الآن لانهم جنبلاطية . فثاني يوم صباحاً تحرك البارود من طرف السمقانية على الخفراء الموضوعين على طريقهم من طرف الامير. فركب اليهم الامير خليل وصحبته بعض خيل الامير وكان من الشجعان فقاتلهم وتكاثروا وقهقروه الى ان كاد رصاصهم يصل لسراية الامير . حينئذ صدر امره للشيخ ناصيف ان يتوجه لاسعافه برجاله . فركب باتباعه ورجال دير القمر . وبوصوله اشتد الحرب بين الفريقين حتى تقهقرت رجال السمقانية والتجوا وراء جدران تصوين خلوة للعقال مشيدة بعيداً عن القرية . فكانت الرجال تطلق الرصاص من خلف الجدران والخيل تقاتل في الخارج . وعندما اشتد القتال

بينهم وصل الامير بشير القاسم راجعاً من جسر الاولي وصحبته خمسة وستون فارساً من عسكر الهواره وثلاثون مشاة من الارناووط . فقاتلوا قتالا شديداً واصيب الشيخ علي عماد برصاص في ذراعه وتم الانتصار لحزب الامير مع قليل من قتلى الفريقين . ورجع اخصام الامير الى المختاره واخلوا السمقانية . وبذاك اليوم هطل مطر كثير على المحاربين . وفي اليوم التالي بسبب هذا الانتصار لحزب الامير كثير من رجال جنبلاط وعماد تركوا مشايخهم وحضروا لعند الامير يلتمسون العفو وحصلوا عليه . وبعد هذه المحاربة حضر الشيخ بشير جنبلاط من عكار لعند الجماهير المجتمعة في بيته . واتسعت الفرصة اياماً للامير بجمع الرجال وتسهل ذلك بالاكثر بواسطة انتصار حزبه في وقعة السمقانية وجرح الشيخ علي عماد حال كون رجال حزبه تنوف العشرة آلاف والذين كانوا يحاربونهم من حزب الامير دون الالف. فحضر لعند الامير كثير من رجال الشوف والعرقوب وحضر الامير حيدر قايدبيه (الذي صار فيما بعد قايمقام على النصارى) وصحبته الفا راجل من رجال المتن . وحضر الامير محمد الشهابي باتباعه من طرف اخيه الامير سعدالدين بحاصبيا . وحضر من عسكر الوزير نحو ثلاثة آلاف فرسان ومشاة من اكراد واتراك وارناوط ومغاربه وهواره وطوبجية مع المدافع. فبعد ان مضى اياماً بدون محاربة ارسلوا الجنبلاطية سرية في احدى الليالي على قرية بعقلين لاغتيال بيت حمادي وحزبهم وكانت نحو الف وخمساية فارس وراجل فداهموهم نحو نصف الليل . وعندما انتبهوا بدير القمر على صوت البارود والصراخ تراكضوا بالسلاح لمعونة بيت حمادي . وهكذا ركب الامير خليل بجانب رجال لدفع محاربيهم الذين كانوا تمكنوا من حريق جملة محلات ورجال بيت حمادي (٩٩) تدافعهم بجهدها الى ان وصلتهم رجال دير القمر فتقووا وعندما وصل الامير خليل بمن معه لمساعدتهم حينئذ تم انكسار المهاجمين وولوا مدبرين . وعند الصباح خرجت الرجال من المختاره وصعدت لسهل بقعاثا وظهور السمقانية وحضر لمعونتهم رجال العرقوب من جهة عين وزيه فملاوا السهل والتلال مسافة خمسة اميال تحت قيادة مشايخهم . فقابلهم الامير برجاله تحت قيادة امرايها ومشايخها وبعسكر الوزير. فابتدا الحرب من اول النهار . وكان الامير نازلا امام السمقانية بنحو نصف رجاله ابقاهم عنده خارجاً عن ساحة القتال وهو ينظر في مواقع الحرب فيرسل منهم اسعافاً لمن يراه قد ظهر ضعفه امام خصمه . وبذاك اليوم نزل مصطفى آغا بربر بخيله لساحة القتال واظهر من الشجاعة والقتال ما شهدت به اشد الرجال . ودام الحرب لقبل المغرب بساعتين ورجع كل من المتحاربين

لمكانه . فقتلاء حزب الامير كانوا خمسة عشر قتيلا ولكنهم احضروا تسعة وعشرين راساً من اخصامهم ارسلت لعبدالله باشا صحبة قاسم آغا ابو سيف الذي بات بها تلك الليلة في بيت مشاقه النازل به صديقه عبدالله آغا شاناتا ورجاله وبهذه المحاربة أصيب بالرصاص الشيخ علي جنبلاط وكان جرحه لا يرجى برؤه . كذلك قتل ابن ابي زيد آغا ضابط عسكر الهواره . ثم بعد ايام ركب الامير بالعساكر قاصداً تبديد شمل المتجمهرين عليه . فقرر لديه عبدالله آغا شاناتا ان يسحب المدافع لضربهم فيهلكهم . اجابه لو امكنني دفعهم بدون جرح انسان لفعلت لانهم رعايا مساكين مسحوبين غصباً من مشايخهم وما كفاهم التعطيل عن اعمال معيشتهم ووضعهم تحت الخطر بساحة الحرب حتى اني اهلكهم بيدي مع اني مأمور من الله ومن الدولة برعايتهم وصيانتهم ولذلك اعمل غاية جهدي بعدم الاسراف بسفك الدماء ولذلك ترى انعامي على من يجلب اسيراً هو ضعف الذي يعطى لمن يحضر راس قتيل تحرزاً من التفريط بالقتل . وهذا الكلام تلقاه محرره من فم عبدالله آغا المذكور . فالامير ارسل العسكر الوزيري من طريق الكحلونية على الجديدة وعساكر الجبل اتى بها في سهل بقعاتا على ظهور الجديدة فالشيخ بشير جعل معسكره تحت المختاره قبالة الجديدة بينها نهر الباروك . وبذاك اليوم الاولاد الصغار بدير القمر ممن كان سنه اثني عشر سنة فصاعداً تسلحوا بالمقاليع وخرجوا مع العسكر للمحاربة وترأس عليهم المعلم خليل عطيه المهندس المتقدم ذكره كذلك الشجعان من يهود دير القمر كموسى شعبان واخيه ابي حسن وشمويل باروخ قد خرجوا لهذه المحاربة. وشمويل المذكور وقف قايداً لمايتي نفر من المشاة. فالشيخ بشير ارسل عسكره لمقابلة العسكر القادم على الجديدة. فخيوله قابلت الخيول القادمة من جهة الكحلونية بالارض السهلة والمشاة قابلت (١٠٠) المشاة وصارت تتسلق على الجبل فوق الجديدة لمقاتلة عسكر الامير. واما الاولاد اضروا بهم جداً برشق الحجارة بالقلاع وبدحرجة الصخور على المتسلقين بالصعود اليهم وكان المهندس يرشدهم لدحرجة الصخر الملايم لاصابة الصاعدين. واشتد الحرب بينهم حتى تغلب عسكر الامير واخرجهم من قرية الجديدة وتبعهم حتى اخرجهم امامه منكسرين . فنظر الامير نساء الشوف هاربات في الجبال فخشي من دخول عسكر الاتراك واستباحة النساء كعوايده المحذورة جداً عند اللبنانيين لانهم بكل رغبة يسمحون بسفك دمايهم لصيانة عرض عدوهم فضلا عن عرضهم . فعندما نظر الامير تهارب النساء سبق ونزل على جسر الجديدة ومنع العسكر عن عبوره بطلب المنكسرين احتساباً من الفضيحة وقال لقواد

العسكر كفانا ما اعطاكم الله من النصر على الباغين فلنرجع عنهم ليحملوا قتلاهم فرجعوا وبقي الامير على الجسر حتى انصرف العسكر . وركب بساقتهم مع جماعته. والذي اخذ من الرؤوس اثنين وعشرين فقط ارسلو للوزير صحبة قاسم آغا المذكور . وبتلك الليلة حضر لعند الامير كثيرون من رجال الشوف والعرقوب يلتمسون صفو خاطره معترفين بخطاياهم وانهم انقادوا لمشايخهم مجبورين خوفاً على خراب بيوتهم. فسامحهم وان يرجعوا لمحلاتهم (واما الامراء والمشايخ المتجمهرون فنزحوا بتلك الليلة من البلاد وتفرقوا لجهات مختلفة . والامير صرف جموعه وعساكر الوزير كل فريق لمحله ووزع مصارف عسكر الوزير على الاشخاص الذين اتفقوا مع مقاوميه . وجميع املاك بيت جنبلاط صارت مضبوطة لجانب خزينة عكا على ان تكون بتصرف الامير بان يدفع بدل حاصلاتها سنوياً ثلثماية وخمسين الف غرش لجانب الخزينة مع خمسين الف غرش للسيدة والدة الوزير) الذي صدر امره بهدم جامع المختاره مع مأذنته لكونه تشيد بدون اذن ولاة الامر وكونه وجد في مأذنته عجلا مسبوكاً بشهادة ثقاة المسلمين من العساكر (مع ان هذه الدعوى فاقدة الصحة والدروز يلعنون العجل وله عندهم معنى آخر ولكنهم يظهرون للناس غيظهم من شتيمة العجل حتى يزيدونه سباً) وصار هدمها وهدم دار الشيخ بشير الذي تكلف على بنيانها اكثر من مليونين ريال عمودي .

فمصطفى باشا المذكور آنفاً كان عزل عن ولاية حلب وحضر للشام والياً عليها . فعندما بلغه انتصار الامير بشير وهروبة اخصامه لايالة الشام ارسل عسكراً من الاكراد ليلقوا القبض على من يعثروا عليه من كبرايهم (١٠١). فالشيخ بشير غب خروجه من الجبل ودخوله لايالة الشام ارسل ابن اخيه الشيخ علي المجروح ليختفي عند دروز اقليم البلان (فمات هناك) . اما هو مع اولاده الشيخ قاسم والشيخ سليم كذلك الشيخ علي والشيخ امين العماد قد صادفهم عسكر الاكراد من الشام والشيخ بشير اراد ان يقاتلهم فالشيخ علي لم يقبل واختار التسليم اليهم فسلموا جميعهم . وغب ان حاقت بهم العساكر نزعوا منهم سلاحهم واخذوا خيلهم وكلما كان معهم من امتعة واموال واركبوهم خيولا دنية واحضروهم لسرايا دمشق . فعندما شاهدهم مصطفى باشا صدر امره بوضع الشيخ بشير واولاده والشيخ امين العماد في القلعة تحت الحفظ. واما الشيخ علي العماد لسوابقه معه كما ذكرت قبلا عندما كان متولياً الوزير المومى اليه حصار عكا قد أمر باعدامه فتناوشته السيوف قبل نزوله عن ظهر دابته .

وعندما بلغ ذلك عبدالله باشا طلب ارسال الشيخ بشير ومن معه الى عكا .

فارسلوهم له فوضعهم تحت الحفظ. وبعد اشهر امر بقتل الشيخ بشير والشيخ امين العماد فخنقوهما وطرحوهما امام باب المدينة ليراهما الناس . واما ولدي الشيخ بشير فبقيا تحت الحفظ فوقع مرض الطاعون وماتا فيه .

(اما الامير سلمان واخوه الامير فارس والامير عباس واخوه الامير حسن توجهوا لبلاد حمص . ولم يلبثوا سوى ايام قليلة ورجعوا لجهة المتن في لبنان قبل ان يبرد غيظ الامير من فعلهم. فحالا ارسل احد بلوكباشيته[1] الشيخ علم الدين ذبيان مصحوباً بجملة من الفرسان والمشاة بان يفحص عنهم في بلاد المتن ويلقي عليهم القبض ويحتفظ عليهم ويعرض لديه ليأمره بما يقتضي . فعلم الدين صادفهم بالطريق فقبض على الامير سلمان واخيه الامير فارس والامير عباس . اما اخوه الامير حسن فتخلص منهم بالهرب وتوجه الى مصر. واما الامراء الثلاثة المقبوض عليهم فحفظهم علم الدين في دير الكحالة واخبر الامير بذلك . فأرسل ولده الامير خليل واستحضرهم وصار وضعهم في حجرة وكان ذلك في ١٤ رجب سنة ١٢٤٠ وفي تلك الليلة صدر امر الامير بقطع السنتهم واطفاء ابصارهم . فقطع الالسنة باشره راهباً مارونياً فكان يغرز في اللسان سناره ويسحبه الى الخارج ويقطعه بالسكين ويكوي مكان القطع بكسرة فخار المحماة لاجل منع النزيف . ثم تقدم قاسم العرب الذي اطفى عيون اولاد الامير يوسف ليطفي عيونهم فأطفاها بالمكاوي المحماة بالنار . واعاد لهم ذلك على ثلاثة ايام بتدبير جراح مسيحي طالما قد شاهدته يأكل الطعام مع الامير عباس على مايدته ويدعي المخصوصية). فبعد الثلاثة ايام اركبوا كل امير على بغل وارسلوهم لبيوتهم . وبعد مدة راق خاطر الامير عليهم واشعر الامير سلمان بسلامة احدى عينيه ولكن فقط اجفانها ملتصقة من فعل المكاوي . فاستأذن الامير بشقها فاذن له فشقها وصار يبصر. واما اخوه والامير عباس فبقيا اعميان . (١٠٢) واما امراء حاصبيا فتحقق للامير ان الامير حسن والامير حسين بديعه كان لهما تداخل مع المتجمهرين ضده . وكان الامير سعدالدين حضر لتهنئة الامير بالظفر فتذاكر معه بهذا الخصوص . وكان اخوه الامير محمد بعد حضوره الحروب باقياً عند الامير فصار ارساله لحاصبيا وهناك قتلوا الاميرين المذكورين .

وكانت العادة ان يكون عند امراء حاصبيا مدبراً من طرف الامير يسمونه في اصطلاحهم كيخية فكان يوضع عندهم واحداً من معتمدي الشيخ بشير فيكدر

---

(١) البلوكباشي والبلكباشي والبكباشي والمكباشي في لغة ذلك العصر في لبنان « راس الجماعة » والبك من التركية ومعناه الفوج .

عيشتهم بكبرياه وتعرضاته لهم في جميع اعمالهم حتى سئمت نفوسهم . فطلب الامير سعدالدين من الامير ان يسمح له بمخاييل مشاقه ليكون مدبراً عنده فصدر الاذن بذلك . فتوجهت صحبته . وهناك كانت تزداد محبتهم لي ومحبتي لهم حتى صار جميع عايلة الامراء يحتسبوني كأني واحد منهم . وعندما صممت على الاقامة الدايمة عندهم اعطوني اراضي متسعة في قضاء الحولة مالكاناتهم من خاص اراضيها تحت ماء نهر اللدان (المعروف قديماً بنهر مدينة دان) ورفعوا عني مال ميريها وجعلوها لي معافاً واعطوني قرية من اعمال القنيطره عليها اجرة وقف وللامراء حق وضع اليد . فأبطلت اشغالي الحريرية من دير القمر وحولتها للزراعة . فالامير سعد الدين وابن عمه الامير سليم لم يبق لهما معارض في حكومة بلادهم ثم القوا القبض على الشيخ ابو صعب شمس واولاده الشيخ امين والشيخ خليل لانه متزوج اخت الشيخ بشير جنبلاط واولاده اولادها . ولا بد كان له مداخلة مع قريبه في فتنة الجبل . فوضعوهم تحت الحفظ . واما ابناء اخيه الشيخ احمد والشيخ قاسم ابو سليم بك شمس الموجود الآن لم يتعرضوا لهما بشيء . واما مشايخ بيت قيس هؤلاء اصلهم من قرية كفرنبرخ تبع بيت عماد الذين هم من الرؤوس بفتنة الجبل فكانت عليهم دعوى المداخلة معهم . ولذلك نزحوا من اوطانهم . فدعوى بيت شمس قد توسطها محرره وتكلفوا لشيء جزوي وغب انطلاق سبيلهم كنت اشتهي سكوتهم حتى استجلب خاطر الامراء لنحوهم . اما هم بقيت خشية غدر الامراء فيهم توسوس ضمايرهم فنزحوا من اوطانهم . فتجدد غيظ (الامراء) وامروا بهدم دار الشيخ ابي صعب دون دار اولاد اخيه ودار الشيخ بشير قيس قاضي البلاد. وهذا كان بيته مضافة مجانية للغرباء فالتمست ابقاها لسكناي قاصداً حماية بيت يطعم خبزاً ويأوي الغريب فحصلت على مرغوبي وسكنت الدار المرقومة وبتلك السنة وقع على دروز حاصبيا اهانات متنوعة .

وسنة ١٨٢٨ حصل لمحرره مرض حمى الربع وبوقتها لم تكن الكينا مشهورة عند اطباء البلاد الشامية (١٠٣) فتوجهت لبيتي بدير القمر للمعالجة حيث كان اطباءها حينئذ يمتازون عن غيرهم من ابناء العرب. وبالجهد امكن التخلص من هذا المرض بمدة خمسة اشهر. فحتمت على نفسي بمطالعة صناعة الطب . وكان ذلك من الامور العسيرة حيث لا يوجد مدارس ولا مطابع للكتب ولا معلمون كفاية للتلقي عنهم . ومع ذلك ترجح في فكري انني بالجهد يمكنني تحصيل مرغوبي من مطالعة كتب هذا الفن الموضوعة للتعليم . وحيث هذه موجودة بلغتي فما يمنعني عن فهم مدلولها الا عدم جهدي . فاذاً بالجهد يمكن التحصيل .

فاقتنيت ما امكنني الوصول اليه من كتب الطب العربية وشرعت بمطالعتها وكنت اقدر على فهم معانيها الا انني اتوقف عن فهم الالفاظ التي هي من اصطلاحات الاطباء او مأخوذة من لغات اجنبية كالفارسية واليونانية خصوصاً اختلاف المؤلفين في الاصطلاح مثلا الواحد يقول حمى يوم والثاني يقول حمى كاتي ميروس والثالث يقول حمى كوتيدياتا والمقصود هو مرض واحد بعينه. فاضطربت للاستعانة بالاستفادة عن اختلافات كهذه من بعض الاطباء . ثم بعد مدة حضر لعندي من مصر خالي بطرس عنحوري المتقدم ذكره لتبديل الهواء كونه منحرف الصحة اقام عدة اشهر فحصلت لي الفرصة بالاستفادة منه عن معاني ما جهلته . ثم في تلك السنة حصل مرض لبعض الامراء فاحضرت له طبيب الامير بشير الدوقتور جوزيه كارليتي النابوليتاني فاستقام مدة حصلت منه على معرفة اشياء كثيرة اكتشفها المتأخرون . وكان زوج ابنته معه شاباً من ازمير فتركه عندنا لاتمام معالجة بعض امراض في عيلة الامراء . وعندما رأيته حاذقاً حسنت لهم ان يرتبوه طبيباً لهم دايماً . فأجابوا مرغوبي وهو لم يخالف رغبتي . واعطوه الامراء بيتاً لسكناه واحضر عياله وحصلت منه على افادات كثيرة وصرت اطبب مجاناً وقصدي الممارسة على العمل . ثم الطبيب المذكور بلغ خبر حسن صناعته لوالي الشام فطلبه من الامراء لمعالجة مريض فأبقاه عنده .

ولنرجع لاخبار ولاية صيدا . ان الاثقال بالمطاليب الميرية على فلاحي مصر مع خفتها على فلاحي ايالة صيدا اوجبت انتقال كثيرون من فلاحي مصر لبلاد غزه ويافه . فحرر محمد علي باشا لعبدالله باشا في ارجاعهم لمحلاتهم فصمم على عدم الاجابة . فابراهيم آغا الكردي اشار عليه بالامتثال لوالي مصر لانه كابيه وله سابقة المعروف. فزعل عليه وبلغ ذلك للامير . فارسل معتمداً يوضح لعبدالله باشا عدم موافقته ذلك لصوالحه وله عواقب يخشى غوايلها وانه لا يجب نسيان معروفه معنا . فكان الجواب انني اعرف شجاعة الامير فكيف اهملها الآن . فالدولة لم تسمح برفع الحصار عني الا بعد عجز عساكرها عن فتح عكا التي عجز عنها بونبارتي . وكانت محصنة بسور واحد فالآن محصنة بسورين بغاية المتانة لا يقدر ملوك الارض على تسخيرها . فماذا يقدر محمد علي ان يصنعه معي . هل هو اكثر من وزير. فاني وزير مثله . فليكن الامير شجاع كما اعهده. كذلك اخبر الامير بان لا يسمح بهذه السنة ان يوخذ من الجبل لمصر بزراً لدود الحرير. (انه لشدة الحر في بلاد مصر كان يفقس البزر قبل خروج ورق التوت فيضطرون لاخذ البزر من الجبل لكونه يتعوق عن الفقس لبرودة هواه . فهذا

التصرف ازعل خاطر والي مصر لانه كان يجب على عبدالله باشا ان يحتسب نفسه عتيق افضال محمد علي باشا عليه . وصار الجميع ينتظرون ظهورات جديدة من طرف والي مصر.

ثم في سنة ١٢٤٣ هجرية غدر الامير افندي بابن عمه الامير منصور اذ ارشى امراة من قرية ظهر الاحمر بان تراقب دخوله للمنامة في وقت لا تكون رجاله حوله وتأتيه بالخبر سراً لقرية بكيفا البعيدة عنه نحو ميلين. فعندما تيسرت لها هذه الفرصة توجهت واعلمت الامير افندي . فتوجه اليه بعد نصف الليل بجملة رجال واحاطوا في بيته وتسلقوا على سطح محل منامته ولم يجسروا على الدخول اليه فيعطب كثير منهم لانه من الشجعان (١٠٤) واسلحته لا تفارقه . فخرقوا السقف واطلقوا عليه الرصاص الكثير حتى اماتوه . ونهبوا كلما عنده من مال واسلحة وخيول . فقط تركوا لزوجته ما يخصها . وانفرد الامير افندي بحكومة بلاد راشيا ولم يبق له مقاوم . وعندما بلغ الامير بشير خبر قتل الامير منصور اغتاظ على الامير افندي لكونهما كانا تصالحا على يده . فحضر الامير افندي لحاصبيا طالباً من امرايها استجلاب رضى الامير عليه . فتوجه الامير سعدالدين لعند الامير بشير وما زال يستعطف خاطره حتى استحصل رضاه على الامير افندي الذي قابله فيما بعد بضد صنيعه معه. وذلك ان الامير افندي اخذ لعنده الامير احمد والامير بشير ولدي اخته من الامير حسن بديعه المقتول مع اخيه باذن الامير بشير لاتفاقهما مع التابرين عليه جنبلاط وعماد . وكان مرتباً لهما معاشاً من امراء حاصبيا باكثر من المرتب لامثالهم من بقية الامراء . في سنة ١٢٤٥ توفي الامير سليم ابن عم الامير سعدالدين وشريكه بحكومة حاصبيا وعمره ثلاثون سنة تاركاً ولده الامير محمد قاصراً تحت وصاية محرره . فالامير افندي احتال باخراج امر من الامير بمضاعفة معاش ابناء اخته ليتوصل الى ما عزم عليه . فدفع الامير سعدالدين الشهرية مضاعفة حسب امر الامير فهاجت عيلته عليه وطلبوا الزيادة بنسبة اوليك اعداؤه وهم حزبه . وحيث اجابته لمطلوبهم لا تبقي له شيئاً من ايراد البلاد ليعيش منه ولا يمكنه مقاومة حزبه فيخسره صمم ان يمتنع عن دفع الزيادة الصادر بها امر الامير بشير. فعملت جهدي بارجاعه عن عزمه لانه يغيظ الامير وهذا يضره وبرهنت له براهين كثيرة حتى اتصلت معه ان تدفع ذاك الشهر فتكون لنا الفرصة بالذهاب لعند الامير بشير ونقرر له الشكل الذي دفعنا فيه من طلب العيلة وجوب التسوية ونطلب منه حلة فلا بد ان يامر بالموافق ونرتاح من العواقب الردية التي لا بد ان تكون اذا بقيت على عزمك . فكلامي

جميعه لم يثني عزمه خلافاً لعادته معي . ثم دخل لدار الحريم وامرني انه متى حضر رسول الامير احمد ادفع له المعاش حسب القديم . فحضر الرسول ولم يرتضي ان ياخذ الا حسب الترتيب الجديد واذا لم نعطه الا كالقديم فلا ياخذ شيئاً . فافتكرت انه فيما بعد الجميع يحتسبون ان ذلك بتدبيري لاعتقادهم باستماع الامير لمشوراتي حال كونه يخالفني باكثرها . فحررت له تذكرة وادخلتها اليه لدار الحريم مضمونها انني كررت الرجاء لديكم مراراً بدفع معاش الامير احمد حسب امر سعادة والدكم الامير . والآن حضر الرسول لياخذه ولم يرتضي ان ياخذ الا ما صدر به امر سعادته . فارجوكم ان تسمحوا لي بدفع الزيادة ولو من مالي الخصوصي عن هذا الشهر الذي يمكنكم التوجه فيه لعند والدكم ونهاية الدعوى بامره . فارجع لي التذكرة وعليها الجواب بخطه وامضايه . انني لم اعهد كثرة مراجعاتكم لي سوى بهذه القضية وقد افهمتكم مراراً كوني لا يمكن اسمح بدفع الزيادة . فاذا لم يرضى الرسول باخذ المعاش القديم فالخاطر له ولا اريد المراجعة بهذه القضية . فاطلعت الرسول على خطابي والجواب فانصرف ولم ياخذ شيئاً . وبعد اربعة ايام حضر لي تحرير من اخي اندراوس يطلبني لمواجهة الامير. فتوجهت حالا وعرفت ان الطلب هو سبب ما تقدم شرحه . وعند مقابلتي الامير آمر لي بالجلوس والقهوة كالعادة ولكن بدون بشاشة . فقال لي لماذا فعلتم هكذا بمعاش الامير احمد . اجبته عبدكم خادم ليس لي عمل سوى امتثال امر مخدومي. فالسؤال يطلب جوابه من مخدومي . ولو عرفت السؤال قبل حضوري كنت اطلب جوابه من ولدكم الامير سعدالدين . فقال لي انني اعرف ان الامير سعدالدين يعتمد على رأيك وهكذا الامير افندي ينسب الواقع الى اعمالك . اجبته نعم ان الامير سعدالدين يعتمد رأيي ولكن اذا كانت القضية لا تمس كيسه . فسعادتك ان اعتبرتني (١٠٥) عادم العقل فليس علي لوم وان اعتبرتني تربيتك فلا يصح الظن بي بان ارتضي بعمل يخالف ارادتك ويضر على صوالح مخدومي . واما كون الامير افندي ينسب الواقع لاعمالي فلكونه من عايلتكم الشريفة فلا يليق بي ان اجاوبه باكثر من اعتماده على اراء وتقارير اشخاص ليسوا تربية سعادتكم نظيري فلا يفحصها ليظهر له الصدق من الكذب قبل ان يعرضها لسعادتكم ويضع امضاه وختمه على تهمة عبدكم .وحينئذ قدمت له تذكرتي للامير سعد الدين وجوابه عليها . فبعد ان قرأها قال لي ان تهمة الامير افندي لك احوجتني لاحضارك لكي اقف على الحقيقة لاجاوبه بما يقتضي . فانت ارجع لشغلك وافهم الامير سعد الدين انه اخطأ فيما عمله . ولا يحق لي معارضة خصمه

بما يسعى فيه لمصلحة نفسه بعد ان الامير سعد الدين حل رباط الخصم بيده .
ان الامير افندي ارسل معتمدين للشام يطلب بلاد حاصبيا باسم ابن اخته الامير احمد. فحضرت الى دمشق وما قدرت على تعطيل عملهم بالتمام اولا لتعهدهم بدفع مبلغ كبير لخزينة الوزير. ثانياً لان مشايخ بيت قيس النازحين انطبقوا معهم والدروز على ميلهم لانهم عقال وشيخ الخلوة والقاضي هما منهم . ثالثاً الامير بشير قد تخلى عن الامير سعد الدين . فبعد الجهد امكن ان يتركوا للامير سعدالدين نصف البلاد ويعطوا الامير احمد النصف الذي كان باسم الامير سليم المتوفي . وعندما الامير احمد عجز عن تادية ما تعهد به لخزينة الشام فالامير بشير جعل ثلثي البلاد للامير سعد الدين . والثلث للامير احمد بناء على ان ثلثي مطلوب الخزينة يدفعه الامير سعد الدين . ولولا ان الامير يعمل ذلك لكان والي الشام بعد مدة يطلب من الامير سعدالدين عن نصف البلاد مقدار الذي تعهد به الامير احمد . ثم قسمت البلاد بينها حسب استحسان الامير بشير. اما الامير احمد لم يتجاسر على سكنى حاصبيا فسكن قرية عين حرشا من بلاد راشيا القريبة من بلاد حاصبيا .

ودخلت سنة ١٢٤٦ . وبهذه السنة عصت بلاد نابلس على عبدالله باشا لانه كان سلخها بامر الدولة عن ايالة الشام وصيرها تبعاً لايالة صيدا . وتيسر له ذلك بسبب تشكي وزير الشام من عصيانها بان مطلوبه منها ستماية كيس فلا تتحصل منهم الا بتوجههاليهم بنفسه مصحوباً بالعساكر التي يصرف عليها اكثر مما يتحصل منهم . فعبدالله باشا تعهد للدولة بدفعه عنها سنوياً الفي كيس. فأعطوه اياها . وعندما اهاليها طلبت منهم الاموال الاميرية بنسبة باقي الرعايا وذلك اكثر مما كانوا يدفعونه لوزير الشام اظهروا العصيان. فأرسل عليهم العساكر بالمدافع والفرسان فقاتلوها وتحصنوا بالقلاع . فنزل العسكر تجاه قلعة سانور التي عجز الجزار عن تسخيرها وشدد عليها الحصار بدون طايل . فكانوا يخرجون اليه ويقاتلونه . كذلك اهالي القرايا بالخارج فينهبون الذخاير في الطرقات ويقاتلون محافظوها . فعندما ظهر لعبدالله باشا عدم اقتدار عسكره عليها طلب من الامير بشير الاسعاف بالرجال . فنهض بنفسه واصحب معه نحو الف وخمساية من خدامه ما بين فارس وراجل وندب لرفقته الشيخ ناصيف ابي نكد المشهور بالشجاعة واصحب معه خدامه ورجال دير القمر نحو الف نفس . واجتمع على الامير من امراء حاصبيا وراشيا وبعض مشايخ الجبل بالخيل والرجال نحو الفين نفس . فكان الجميع دون الخمسة آلاف . وبوصول الامير ورجاله نزل بحذا معسكر

الوزير تجاه قلعة سانور. ثم حرر كتابات تأمين وتطمين لجميع وجوه بلاد نابلس وللمحاصرين بالقلعة مع الانذار والتحذير من وخامة العصيان على ولاة الامور وانه اتخذ هذه الفرصة لنصحهم التي لا يملكها غير هذه المرة . فان رفضوا النصيحة يلتزم بانفاذ امر الوزير بتدمير العصاة . وامهلهم بالجواب ثلاثة ايام . فاطاع منهم جانباً واتوا لعند الامير (١٠٦) لوثقهم بامانه فطمنهم وارجعهم لينصحوا البقية بالتحذير من سوء العاقبة . فتوجهوا ولم يسمع للطاعة غير القليل كما ان الموجودين داخل القلعة لم يصغوا الى النصيحة . وتجمع الوف كثيرة في قرية عجة قريبة من المعسكر. فجماعة الامير التمسوا منه ضربهم قبل تكاثرهم فلم يسمح حيث قصده انهاء القضية بدون سفك الدماء . في احد الايام اذ كان بعض عسكر الامير يستقي من ماء قريب اتي عليهم رجال من جموع عجّة وفتكوا بهم. وكان من المقتولين اربعة شبان من اهالي دير القمر جماعة الشيخ ناصيف ابي نكد الذي عندما بلغه الخبر لم يعد يتوقف عند منع الامير عن القتال بل ساق رجاله امامه وهجم على جماهير عجّة فاطلقوا عليهم الرصاص كالمطر فلم يتوقف حتى دخل البلدة عنوة والقتال بينهم لا يفتر. فباقي عسكر الامير مع عسكر الوزير عندما نظروا اشتباك الحرب اسرعوا لمعونة الشيخ ناصيف وحينئذ حق الانكسار على العصاة وقتلاهم كانت كثيرة والعسكر استباح البلدة . وبهذه المعركة قتل احد اولاد حسين حمادى فالامير ارسل يعزيه وكتب له الاخ العزيز فبذلك رفع عايلته لرتبة المشايخ بعد ان كانت من وجوه الرعية . وبعد هذه النصرة اشتغلت المدافع والقنابر والهجومات المتواصلة على القلعة . فالذين داخلها من شدة المضايقة وانقطاع املهم من مساعدة بلادهم لهم سلموا انفسهم ليد الامير الذي عفى عنهم جميعهم . وصار هدم القلعة وتحصيل الاموال الميرية .وتصرفت العساكر لمحلاتها .

ثم دخلت سنة ١٢٤٧ وفيها كان ابتدا وقوع الحوادث المهمة في بلاد سوريا بانقلاب الاحكام وانتشار الحروب. فأهالي دمشق احدث عليهم واليها الصدر الاسبق سليم باشا ان يدفعوا شهرياً مالا طفيفاً لجانب الخزينة عن حوانيتهم داخل البلدة من المخازن والدكاكين وغيرها . ولم تسبق لهم العادة ان يعطوا شيئاً عن ذلك حتى ولا عن بساتينهم واراضيهم . فالحكومة ليس لها مطلوب عل دمشق سوى مال كمرك الداخل اليها من خارج ايالة الشام دون الخارج منها يبلغ نحو الفي كيس . ولها على النصارى واليهود مال جزية الراس يزيد وينقص بحسب عدد اشخاصهم ومال عنب وكنايس . فالذي احدثه على المسلمين صار سبباً لقيامهم

عليه . فتحصن الوزير بالقلعة وبقيت عساكره بالخارج لان القلعة لا يوجد بها علف لدوابهم ولا مأكولات لاشخاصهم. فاولاد البلد طردوا عساكره واحد ضباطه يسمى قاضي قران من الاتراك شديد الباس قاتل الثايرين قتالا شديداً حتى حصروه بجامع بمحلة مز القصب باطراف البلدة فاستامن منهم وخرج برجاله من دمشق . وبوقتها وقع الخوف على النصارى من تعديات جهلة المسلمين . ولكن (علي آغا) خزينه كاتبي من كبراء آغاوات دمشق وعقلايهم هو عديم التعصب وكان النصارى يميلون اليه كثيراً لمكارم اخلاقه ولطف معاشرته مع الجميع حال كونه من الشجعان الاشداء اصحاب السطوة بالسيف والقلم ويده اليسار فيها كاليمنى وقد شاهدت ذلك عياناً اذ التمست منه رؤية ذلك ولمحبته نحوي اجابني لمرغوبي. فقطع بكل يد قضيباً بضرب السيف وكتب سطراً بخط جميل نصفه باليد اليمنى والنصف الآخر باليسرى وهذه المشاهدة شجعتني الآن على الكتابة باليسرى بسبب شلل نصفي الايمن . فعلي آغا المذكور اعتنى بصيانته النصارى واليهود من تعديات الاسافل . ثم حضر من عكا الجريجي الداراني الذي (١٠٧) كان نازحاً اليها من وجه سليم باشا . والقول ان عبد الله باشا ارسله لاتمام ما جرى بعد ذلك لغاية ما لانه كان صاحب سطوة جسيمة بين كبراء دمشق .

فسليم باشا تضايق في القلعة من عدم المأكولات وطلب التامين من الثايرين عليه فأمنوه . فخرج الى بيت اعدوه له ولكنهم وضعوا عليه خفراء قالوا انهم وقفوا على دسايس يعملها للظفر باخصامه . ولذلك هجم عليه بعضهم فتحصن بمجلسه فاشعلوه بالنار فمات حريقاً . فاجتمع اعيان البلد ورتبوا حكماً موقتاً وصاروا مترقبين ورود عساكر الدولة للانتقام منهم . واذ ورد الخبر بخروج عساكر مصر لتاتي الى بر الشام فسكن روعهم نوعاً . والدولة عندما خرجت عساكر مصر صرفت النظر عما عمله اهالي دمشق وارسلت والياً عليهم اسمه علو باشا[١] .

ان عبدالله باشا والي صيدا عندما بلغه خروج عساكر مصر اسرع لتجهيز كلما يلزمه للحصار ونادى برفع اسعار المعاملة فزادها نحو عشرة بالماية . وحضر لعند الامير بشير عمدة بكتاب من الشيخ حسين عبد الهادي من معتبري مشايخ بلاد نابلس يخبره عن وصول عساكر مصر الى اراضي غزه صحبة ابراهيم باشا ابن واليها محمد علي باشا ويطلب خاطر الامير بسلوكه معه كيف يكون ان كان بالعصيان او بالاطاعة . فجاوبه بالاطاعة والموافق ان الشيخ يوافيه الى الطريق

(١) بفتح العين واللام وتشديد الواو . وهو تحريف شائع بين الاكراد للاسم علي .

ويمشي امامه ومتى وصلوا لامام عكة فهو ينزل لعندهم . فكنت قد حضرت لعند الامير للوقوف على خاطره كيف يريد ان يكون تصرف الامير سعدالدين بهذه الحادثة . فاجابني متى انتهى امر عكة فاعرّف الامير سعدالدين وغيره عما يجب عمله واما الآن فيجب ان يكون في طاعة والي الشام كعادته . فحررت له عما تجاوبت به ونزلت لبيروت بمصلحة تخصني . وبوصولي وجدت الخبر بوصول عساكر مصر لصحراء عكة وانه توجه الامر من ابراهيم باشا للامير بالنزول لعنده . فثاني يوم توجهت لعكا فوصلتها اذ كان اثنان وعشرون مركباً حربياً محيطة بها ثمانية من شماليها وثمانية من غربيها وستة من جنوبيها امام برج الدبان. ومن البر مدافع وقنابر على تل الفخار وجميعها تضرب على عكا باتصال وعكا تضربها وكانت لا تظهر من كثرة دخان البارود . وبقي الضرب من الصباح لقبل غروب الشمس بساعة ونصف. فقامت المراكب الى حيفا ولم ترجع للضرب فيما بعد . والذي فهمته ان المراكب بذاك اليوم حذفت على عكا اكثر من سبعين الف كرة وان المراكب اكثرها تعطلت من ضرب عكا عليها . وبقيت هناك نحو عشرين يوماً انظر الوقايع . فالمعسكر المصري في كل ثلاث او اربع ليالي يخرج منه نحو خمسة آلاف عسكري تحت الظلام لمكان بعيد ويرجع شروق الشمس ايهاماً لعسكر عكه بان عساكر مصر لم تزل تتوارد عليهم . فاشتغل العسكر المصري بفتح الخنادق المعوجة المسماة عندهم طريق الفار وعملوا متاريس قريبة لاسوار البلدة نصبوا عليها المدافع والقبوسات وهاون القنابر. واكملوا اعمالهم هذه في ظلام الليالي لوقاية انفسهم من نيران عكه . واشتعل الحرب بين المتاريس واسوار عكه ليلاً ونهاراً . وكان جل ضرب المصريين على برج علي القريب من باب المدينة . وهذا سماكته هناك مع السور ينيف عن ستين ذراع وزد على هذا انه لا يصاب منه غير الظاهر من اعلى السور نحو ثلاثة اذرع لانه مستور (١٠٨) بحايط الخندق العميق . والارض في خارج الخندق هي عالية وموازية لاعالي السور لقرب طيقان المدافع . وكنت ارى ان فتح عكا من البر يعجزهم الا اذا امكنهم ردم الخندق . وقررت ذلك للخواجه حنا بحري وجاوبني ان المهندسين معنا معتبرين جداً لا بد انهم يعملون الاوفق .

فكان داخل عكا من العسكر نحو ثلاثة آلاف من الشجعان المجربين بالوقايع وكانوا يخرجون للتحرش بعسكر مصر ليسحبونه الى امام مدافع الاسوار فلا ينسحب معهم لان ضباطه من اهل الدراية . وكانت الكتابات من الدولة وغيرها تدخل لعكا ليلا صحبة اناس يأتونها بالبحر سباحة في الظلام . وفي احدى

الليالي حصل بالعسكر قلق وضجيج ثم سمع طلقات بارود وصياح ثم اغاني فلاحية بمدح عبدالله باشا فظننا ذلك ما يسمونه كبسة للعساكر من اعداه الى ان تحقق الامر بان ستماية رجل من اهالي نابلس اتفقوا ان يخرقوا العسكر المصري ويدخلوا عكا لمساعدة وزيرها . فدخلوا المعسكر مشهرين السلاح يضربون من يعارضهم والعسكر لا يقدر ان يطلق عليهم الرصاص داخل المعسكر ليلا يصيب جماعته حتى نفذوا لجهة عكا . فاطلقوا عليهم الرصاص فالظلام منع اصابتهم ودخلوا عكا سالمين . وفي كل ليلة يسمع صراخهم على الاسوار يدعون بالانتصار لعبد الله باشا .

وحينئذ الخواجة يوحنا بحري المرسل من طرف محمد علي باشا صحبة ولده ابراهيم باشا معاوناً ومطلق التصرف بترتيب الملكية والمالية ومجالس الشورى قد باشر اتمام الترتيبات اللازمة بجميع الايالة على اكمل وجه لانه كان من افراد الرجال بالحذاقة وجودة العقل مع غاية الاستقامة بجميع اقواله واعماله سواء بحق مخدومه وحق الرعايا . فأتقن كلما هو لازم .

واما عكا فالضرب عليها ومنها بدون انقطاع ليلا ونهاراً . وبعد ان عرفت كلما امكنني معرفته حتى عدد العسكر بانه ثمانية الايات مشاة تبلغ انفارها ثمانية عشر الفاً وثمانية الايات خيل تبلغ رجالها اربعة آلاف و يوجد نحو الفي فارس من عرب الهنادي . والمدافع مع القبوسات وهاون القنبرة ثلاثون واربعون قطعة ومطبعة حجر . حينئذ رجعت لدير القمر وبعد مواجهتي للامير امين وكيل والده بالحكومة وتطمينه عن صحته وتخبيره عن حوادث العسكر توجهت لحاصبيا وقررت الوقايع للامير سعد الدين وعن استعدادات المصريين القوية ولكن لا يرجى فتحهم لعكا بمدة قصيرة حيث لم يتسهل لهم فتحها من جهة البحر فاسوارها من جهة البر بغاية المتانة والاستحكام ولا يمتلك المدفع سوى اعاليها لانها مستورة بالارض العالية المنفصلة عنها بحايط الخندق .

ان المشايخ النكدية قبل وصول عساكر مصر قاموا من البلاد ليتحدوا مع عسكر الدولة . فابراهيم (١٠٩) باشا ارسل لدير القمر يعقوب بك ميرالاي بعسكره ليكون محافظاً بغياب الامير في معسكر عكا . فبعد مدة ارسلت الدولة عثمان باشا اللبيب والياً على ايالة طرابلس الشام فدخلها . فتوجه اليه ابراهيم باشا بفرقة من عسكره فهرب من وجهه . وبعد ان رتب امور طرابلس توجه لحمص ومنها لمعلقة زحله ثم لمعسكر عكا . فالدولة وجهت عليه عسكراً تحت قيادة والي حلب إنجه بيرقدار باشا . فحضر بالعسكر لحمص ثم نقل معسكره الى تل النبي

مندو تحت قرية القصير على شاطئ نهر العاصي ينتظر قدوم العسكر النظامي لكي يمشي فيه لعكا عن طريق بعلبك والبقاع . فابراهيم باشا ارسل عسكراً مصحوباً بمدافع اقامه بطريقه في قرية معلقة زحله مالكانة اولاد الامير بشير . ولم يزل الحصار على عكا منذ بداية شهر جماد الثاني ذي الحجة . فارتدم الخندق وهجم ابراهيم باشا بالعساكر المصرية على سور عكا فارجعته رجالها ومدافعها . وفي ٢٨ من الشهر المرقوم سنة ١٢٤٧ خطب ابراهيم باشا في عسكره وعدد ثباتهم في حروب الموره والحجاز وانتصاراتهم السابقة على اقوام اشدا وليس ضعفا كالمحصورين في عكا وان رجوعهم عنها هو مجلب لاهانة اسم العسكر المصري الذي لا يقبله من بعد اشتهاره بالشجاعة في جهات العالم . ولذلك يهجم على سور عكة بهذا اليوم والمدافع تمشي خلفه تضرب العسكر الذي يرتجع بدون تملك السور . ثم ساق العسكر وفتحت جهنم ابوابها من الجانبين فكان اول الصاعدين على ظهر السور بخيوطم سليم بك اوتوزير ميرالاي الطوبجية وابراهيم آغا الرشماني معلم الخيالة من موارنة دير القمر وفي ظهرهم ابراهيم باشا . ولكن ابراهيم آغا قتل برصاص اصابه من سور عكا الجواني . وحينئذ كثرت العساكر المصرية على ظهر السور والتحم القتال مع جماعة عبدالله باشا الذين قل عديدهم من كثرة قتلاهم ومجاريحهم فالتجوا لداخل السور الجواني . فعبدالله باشا عندما شاهد امتلاك السور المتين وانه لم يبق عنده من رجال المقاتلة سوى ثلاثماية وخمسين شخصاً وضع نفسه بيد ابراهيم باشا وفتح له الابواب . فدخل العسكر المصري واستباح البلدة : واما عبدالله باشا فتعامل بالاكرام وارسل الى مصر ومحمد علي باشا احسن (مقابلته) ورتب له ما يقوم بمصاريفه اللايقة بمقامه فاقام مدة ثم طلب التوجه للاستانة فارسله اليها . فاقام مدة ثم التمس من السلطنة ان ينهي حياته الباقية بالحجاز فارسلوه ومات هناك . وبعد فتوح عكة ارتفع يوحنا بحري لمرتبة امير لواء وصار ينعت بحري بك .

ان ابراهيم باشا كان يمضي كتاباته الرسمية هكذا الحاج ابراهيم والي جدة والحبشة وسرعسكر عكة حالاً . ولكن بعد فتوح عكة وضع امضاه سرعسكر عربستان . وبعد ان رتب احوال عكة وصدر امره بترميم ما خرب منها ومن اسوارها وشحنها بالذخاير والمهمات الحربية ووضع بها العساكر والمدفعية اللازمة لمحافظتها واحضر عساكر كثيرين من مصر . ثم قام بالعساكر قاصداً مدينة دمشق وبمعيته الامير بشير الذي حرر لولده الامير امين ان يرسل له بعض اتباعه وحرر للامراء حاصبيا وراشيا ان يوافوه لدمشق . فتوجهت لدمشق صحبة الامير سعدالدين .

اما علو باشا والي الشام قد جمع عسكراً من الاكراد ومن اولاد البلد واخرجهم لمقاتلة ابراهيم باشا وصده عن الدخول الى دمشق . فخرجوا لمقابلته نحو عشرة آلاف فنظرهم من بعيد بالنظارة وعرف فريق خيول الاكراد من فريق الشوام فوجه خيل عرب الهنادي لمقاتلة الاكراد ونبّه على العسكر النظامي ان يقابل الشوام (١١٠) ولا يؤذيهم بل يطلق بواريده في الجو. فالتقى العسكران . فعندما سمع الشوام صوت النار الدايمة تهاربوا. اما الاكراد فقاتلوا جهدهم واخيراً انكسروا وفي اثرهم خيل الهنادي تقتل من لحقته منهم . ولما بلغ علو باشا انكسار عسكره فاز بالهرب من دمشق فدخلها ابراهيم باشا ولم يسمح لعسكره بالتعدي على احد وحالا اطلق المناداة بالآمان وان الجميع يكونوا باشغالهم مطمأنين . فاقام في دمشق لغاية ٤ صفر نهار الاثنين ونبّه على افندية دمشق ان يرافقوه وترك فيها المعلم بطرس كرامه لترتيب مجلس الشورى ونصب فيها حاكماً من خواصه احمد بك ربيب كورد يوسف باشا المتقدم ذكره احد ولاة الشام سابقاً . ونهار الثلاثاء في ٥ صفر خرج من دمشق الى القطينة والامير بشير وامراء حاصبيا وراشيا الى قرية عذرا . وبذاك اليوم وقفت على عدد العسكر فكان المشاة احد عشر الفاً وخيل النظام الفين وخيل الهنادي ثلاثة آلاف والمدافع ثلاثة واربعين والجمال الحاملة للذخاير والمهمات ثلاثة آلاف . وكان برفقة ابراهيم باشا عباس باشا ابن اخيه المتوفي طوسون باشا وابن عمته يكن احمد باشا[١] . ثم نهار الاربعاء قام بالعساكر الى النبك وجماعة الامراء نزلوا بقرية دير عطيه . وهناك توسط الامير برجوع اعيان دمشق لاوطانهم فرجعوا . ويوم الخميس قام الى حسيه .ثم يوم الجمعة انعطف عن طريق حمص الى طريق القصير ونزلت العساكر على شاطئ نهر العاصي عند تل النبي مندو حيثما كان نازلا العسكر العثماني . لانه حينما بلغه فتوح عكا ارتجع لحمص التي تبعد عن المحل المرقوم خمسة عشر ميلا . وكان يقوم ابراهيم باشا بالعساكر من مراحله قبل النهار بثلاث ساعات وعند الضحى يبلغ المنزلة . فبذاك اليوم ساعة وصوله للنبي مندو وصلت بقية العساكر القادمة من طرابلس ومعلقة زحله نحوستة آلاف. فتكاملت العساكر بما فيه جماعة الامير على العشرين الفاً . وكان المسموع ان العسكر في حمص اثني عشر الفاً لا غير. ثم اجتمع ابراهيم باشا مع امراء العسكر وعملوا الترتيب اللازم لمقابلتهم مع اعداهم . وفي نصف الليل توجه فرسان الهنادي على حمص لمناوشة العساكر هناك . ثم ابراهيم باشا لم يقم بالعساكر باكراً كعادته بل عند طلوع النهار. يوم السبت

(١) بفتح الياء وفتح الكاف وتخفيفها على الطريقة التركية .

في ٩ صفر سنة ١٢٤٨ رتب عسكر المشاة ثلاثة اقسام جعل البعد بين القسم والذي يليه نحو ميلين. وفي كل قسم منها كل يوزباشي رجاله امامه ثلاثة صفوف . ويليه الثاني نظيره بعيداً عنه مقدار طول الصف الذي قبله وهكذا جميع العساكر . فالصف الاوسط في ساقته الامير بشير وبقية الامراء ورجالهم والجمال الحاملة للذخاير والمهمات خلف الامراء . ثم الصف الايمن في ساقته عباس باشا ونصف خيل عسكر النظام مع نصف المدافع. والنصف الايسر في ساقته يكن احمد باشا المذكور وبقية خيل النظام والمدافع . واما ابراهيم باشا على ظهر جواده متردداً بين الصفوف ثم ضربت الموسيقات (١١١) العسكرية ومشت صفوف العساكر في تلك السهول الفسيحة والرايات تخفق على رؤوسها . فكان منظراً شهياً جداً . وكان كلما مشى العسكر اقل من ساعة ياخذ راحة . والساعة ستة وربع عربية وصل لقرية قطينة البعيدة عن مدينة حمص ثلاثة اميال. فامتد العسكر منها لجهة نهر العاصي الشمالي الغربي ومنها الى الجنوب الشرقي . فكان امتداد العسكر نحو خمسة اميال وعباس باشا بالخيول والمدافع عن يمين العسكر وهكذا احمد باشا عن شماله . واما ابراهيم باشا فجعل مركزه في منتصف صفوف العسكر على تل قطينه وصدر امره للامير بان يقيم بمن معه من الامراء والرجال عن شمال العساكر قرب نهر العاصي ولا يدخلوا ميدان الحرب . فنزل بقرب تل عال مخروطي الشكل والعساكر سندت اسلحتها لتأكل وترتاح . فتواردت فرسان المنادي على ابراهيم باشا بالرؤوس التي قطعوها وبالاسرى التي استاسروها من عساكر الترك . فانعم عليهم واثنى على شجاعتهم . وكان معسكر الترك عند تل باب عمر بعيداً عنا مسافة ميلين وكان منصوباً على التل جملة مدافع وكان بذلك النهار ريحاً شديدة ثايرة من الغرب الشمالي في ظهرنا تنسف الغبار في وجه عسكر الاتراك . وحال كون الارض سهولا ترابية وناعمة والوقت صيفاً فمن دوس حوافر الخيل زادت نعومة فكان الغبار مالئ الجو يعسر على الانسان والخيل مقابلته . وصار ذلك معونة كبرى لعسكر ابراهيم باشا ومصيبة عظمى على عسكر اخصامه . فتسلقت لراس التل مع البعض لرؤية الحرب . فكان المنادي يهجمون على خيول الترك كالضواري ويخطفونهم من بين جماهيرهم الكثيرة . فالعشرة منهم تقاتل المائة واذا تكاثرت عليهم الرجال فلا يتقهقرون الى الخلف بل يذهب بعضهم او كلهم عرضاً وياتي بمساعدين من ارفاقهم فيهجمون على اخصامهم ويقهقرونهم عن مراكزهم . فقبل الغروب بثلاث ساعات نظرنا فارساً جاء مسرعاً من ساحة القتال لعند ابراهيم باشا الذي حالا ركب بمفرده لعند

المنادي فارسلت خبراً بذلك لسعادة الامير كونه ضمن خيمته لسبب شدة الرياح وكثرة الغبار . فصعد حالاً الى قمة التل واخذ النظارة لينظر الحاصل في ساحة القتال . فتجاسرت بقولي له هولاء هم الاثني عشر الفاً الاعداء الذين قلتم عنهم بدمشق . فاجابني قلنا هذا ولم يصل معنا لهنا نصف الذين كانوا معنا فكيف لو قلنا انهم ستون او سبعون الفاً فلا يصل معنا احد . فلا توهمك كثرتهم لانهم عندما يسمعون تخزيق الفرسي يتهاربون . (يريد صوت بارود العسكر النظامي عندما يطلق عليهم النار الدايمة . ولفظة الفرسي بلغة اهل الجبل تفيد قماش القطن المعروف بالخام) . وفيما نحن بالكلام وصل رصاص الاتراك لعندنا لان عسكرهم من جهتنا تقدم عن غيره . فخشيت من اصابة الامير وان لا يكون ذلك بالصدفة بل تعمداً فترجيته بالنزول لخيمته من الارياح والغبار .. فاجابني لا بل انك خفت من الرصاص بخلاف طبيعة اولاد بلدك . اجبته اذا كنت اخاف فلا يكون خوفي الا على شخص سعادتك لانك روحنا الثمينة عندنا فاذا سعادتك نزلت لخيمتك ونزل عبدك فيكون خوفي هو على نفسي فارجوك (١١٢) تختبرني وتنزل . وغايتي الوحيدة نزوله . فاجابني ان الانسان يجب عليه توقي الاخطار عندما لا يضطر اليها . فلو بقينا هنا تحت الخطر فذلك غير ممدوح . وكنت احتم على جميع الموجودين حولي بالنزول ولكن لا خطر علينا لان الرصاص الواقع هنا لا عزم له لانه سقط سقوطاً من فروغ عزمه فلذلك لم يغرس في الارض فتراه على وجه الارض . ثم المنادي الذين بجهتنا لا زالوا بالرجوع الى الخلف وعدوهم يهجم عليهم ويقهقرهم . فقال الامير لا اشك بان المشايخ النكدية مع هولاء القوم لان هذه الهجمات هي هجماتهم . (ثم فيما بعد تحقق الامير بانهم النكدية مع عسكر مرعش) . ثم نظرت لجهة العدو فلمحت عن بعد عسكر نظام . فاحدقت نظري جيداً والغبار الثاير لا يمكنني من التحقيق جيداً لبعد المسافة فاخبرت الامير قال لحد هذا الصباح حضر الجاسوس من معسكرهم بانهم خمسة وخمسين الفاً وليس بينهم عساكر نظامية وتحقق بالنظارة فلم يرَ احداً . ثم ظهرت لبصري صفوف طرابيشهم الحمراء ولمعان اسلحتهم لمقابلة ضياء الشمس وكثرة بيارقهم . فراجعت الامير ان قولي هو اكيد وهم اكثر من عسكرنا واشرت له على مكانهم . فاعاد النظر اليهم بالنظارة فتحققهم وقال هولاء العساكر لا بد انهم الآن حضروا الى المعسكر وكان باقياً لغروب الشمس ساعتين وربع . فبذاك الوقت حضر فارس رامح من عند ابراهيم باشا لعند العساكر وبالحال اصطفت حايطاً واحداً في طرفيه الخيول والمدافع وعباس باشا مع خيول الميمنة

واحمد باشا مع خيول الميسرة وضربت الموسيقات العسكرية ومشوا لمقابلة اخصامهم.
فالذين كانوا امامنا من الاعداء هربوا من وجه العسكر فتبعتهم خيول المنادي
تنهشهم . واما ميمنة العسكر فهجم عليها نحو خمسة آلاف من خيل الاتراك فردهم
عباس باشا بنار المدافع وبقي سايراً . فتجمع عليه ربما خمسة عشر الفاً من خيل
الاتراك وهجموا دفعة واحدة فتلقاهم بمدافع الرش فانكسروا وتركوا من قتلاهم
نيف عن الفي قتيل . فعند وصول عسكر مصر النظامي لساحة الحرب قابله
العسكر النظامي التركي وهو اكثر عدداً . وقبل الغروب بساعة واحدة اشتعلت
نار الحرب بين الفريقين فكانت النار الدايمة بالبواريد وبالمدافع من الجهتين .
كذلك المتاريس في تل بابا عمرو تضرب المدافع وتحدف القنابر على المصريين.
وكانت ساعة شديدة الهول تفتحت فيها ابواب جهنم . فعند غروب الشمس
سكت صوت البواريد وبقي ضرب المدافع فقط لبعد الغروب بساعة ونصف
وصار الهدوء التام . فحضرت البشارة للامير بتمام النصرة وان إنجه بيرقدار باشا
ومن بمعيته من الوزراء هربوا وفازوا بأرواحهم وان عساكر الترك بعضها قتيل
وجريح وبعضها اسير وبعضها تشتت.

فصباح يوم الاحد دخل الامير لحمص وكانت الخيل تدوس على القتلاء
مسافة ميل في سهل بابا عمرو. وتسلم الامير احكامها ووجد بين الاسرى (١١٣)
ثمانماية ارمنياً كانوا في خدمة العسكر فأطلقهم وارسلهم لعند مطران الروم .
والاسرى من العسكر كانوا الآياً بتمامه غير المفردات فارسله لعكا صحبة الشيخ
حسين تلحوق المذكور آنفاً . ومجاريح الاتراك نحو ستماية وخمسين مع مجاريح
العسكر تسلموا للاطباء . وامر قاضي البلد ومفتيها بدفن القتلى فدفنوهم . ووكل
محرره بضبط متروكات الوزراء الهاربين وكان منزلهم على نهر العاصي قرب
جسر المياس فوجدتهم تركوا خيامهم بفرشها حتى ان الافندي كاتب الديوان
ترك دواته الفضية واقلامه مع الاوراق على الارض والطبايخ باقية محروقة على
النار وصناديق الادوية ونسالة الكتان وقماش الاكفان وعدد وافر من الفراوي
والبنشات للتلبيس ومهمات كثيرة . حتى انه وجد مخزناً في محلة سيدي خالد مملواً
من البن الحجازي ما يكفي لمونة مدينة . فاكملت ماموريتي وصار وضع كل
شيء بمحله .

اما مدينة حمص فهي جيدة التربة معتدلة الهواء متسعة الاراضي محاطة
بقرايا كثيرة . ولكن لعدم الاعتناء بها ترى اكثرها خراباً من تعدي عرب البرية
عليها . ثم اهالي المدينة عددهم نحو عشرين الف نفس ربعهم نصارى اكثرهم

من طايفة الروم والقليل منهم كاثوليك مع سريان يعقوبية لهم فيها مطران وثلاثة اربباع اهاليها مسلمون. ولم ارى فيها نصرانياً غير مولع بالسكر. ولكن كثير منهم يكتب خطاً جميلا.ويخرج منهم افراد رجال مشهورين بالعقل والذكاء حال كون العموم تتغلب عليه السذاجة. وقد حكي عن سذاجتهم قصص كثيرة لا يسعني شرحها وانما اذكر منها ما شاهدته بعيني. انه في ثاني يوم دخولنا لحمص تقدم اعراض للامير بانه موجود قتلى ومجاريح من اولاد البلد نحو تل بابا عمرو يلتمسون الكشف عليهم فارسلني لذلك. فوجدتهم ثمانية رجال مطروحين اربعة منهم قتلى واربعة مجروحين. فسالتهم عمن فعل فيهم ذلك. اجابوا اننا حضرنا لهنا للتفرجة على مكان العسكر فوجدنا كرة قنبرة محشوة وفتيلها ظاهر فاغتنمنا الفرصة لمشاهدة صعودها وهبوطها فاشعلنا الفتيل ووقفنا حولها ننتظر صعودها فلا نعرف ماذا اعاقها عن الصعود ففقعت واصابنا منها ما تراه. فآذنت بدفن الموتى ومعالجة الجرحى ثم رجعت واعرضت صورة الواقعة للامير. فقال لي اكتب عندك صورتها ليقف منها المعلم بطرس كرامه على درجة معارف اهل بلدته. وفيما بعد في احد اجتماعاتي مع بحري بك سالني عما نظرته من احوال مدينة حمص فمدحت حسن هواها وماءها وقلت انني وجدت لاهاليها دعوى على سعادتك والمعلم بطرس كرامه قال بماذا اجبته بانكم سلبتم لانفسكم حصتهم من العقل وتركتموهم مفتقرين اليه. فقال ما الدليل فاوردت له قصة القنبرة.

ان مرض الريح الاصفر كان ظهر في حمص وانتهى قبل وصول العسكر المصري اليها. ولكن بعد المحاربة بايام تظاهر بها اخذاً بالازدياد. وكنت اعتقد عدواه وغلط منكريها بذاك الوقت لما ثبت عندي من الادلة بالامتحان. فامتنعت عن المأكولات عدا الخبز والصعتر ومربى الكرز. وحملت في عبي قطعة من الكافور واشرت بذلك على الامراء وجماعتهم فالنصارى بينهم اطاعوني واما المسلمون والدروز لاعتقادهم بالمقدر على غير وجه الشرعي اكثرهم لم يستمع للنصيحة فمات اكثر من نصفهم واما النصارى فلم يصب منهم الا القليل جداً ممن لم يحفظ الوصية. واشتد المرض بالبلدة وكان مهلكاً جداً. فكان يموت من الخمسة مرضى اربعة. وفي احد الايام بلغ عدد الموتى به مايتين وثمانية واربعين نفساً مع انها مدينة صغيرة. وقد عالجت فيه كثيرين فلم ينجح العلاج سوى بالذين مرضهم خفيفاً وربما كانوا يشفون بدونه.وبعد اقامتي شهراً ونصفاً رجعت (١١٤) لبيتي. وفي تلك السنة توفي والدي جرجس مشاقه الذي بقي مدة عاجزاً في بيته. واعطيت وظيفته لولده اندراوس قبل وفاته.

ان ابراهيم باشا قد اقام في حمص يوماً واحداً . ويوم الاثنين في عاشر صفر سنة ١٢٤٨ خرج بالعساكر في طريق حلب . وقبل وصوله اليها تلاقى بحسين باشا قادماً لمقاومته وصحبته اربعون الفاً من العساكر فحاربه وانكسر حسين باشا وبقي ابراهيم باشا في مسيره . فمدينة حلب فتحت ابوابها فرتب احكامها وارسل حاكماً لايالة اورفه وسار نحو بلاد الترك واستولى على ايالة ادنه بدون حرب لان الخوف من سطوته قد شمل كافة البلاد . فسار الى قونيه فهرب محافظوها ودخلها بعساكره التي لم يبق صحبته منها غير اثني عشر الفاً حيث ابقى بعضها لمحافظة البلاد التي افتتحها والبعض مات بحروبه وبالريح الاصفر . وبلغه حينئذ وصول الصدر الاعظم لقرب قونيه وصحبته ماية وخمسون الف عسكري بالمدافع والمهمات الحربية الكثيرة . وكان يوماً بارداً كثير الثلوج والغيوم الكثيفة . فخرج اليه ابراهيم باشا بعساكره القليلة وكان رئيسها سليمان باشا الفرنساوي (الذي حضر حروباً كثيرة في زمانه صحبة بونابارته نابوليون الاول وكان معه بعكة بوظيفة ملازم) فتقابل الجيشان واشتد القتال بينهما وكان الصدر الاعظم من الشجعان راكباً جواده يجول بين العساكر يحرضهم ويشجعهم على القتال . وكان الضباب الثقيل ودخان البارود يمنع رؤية العسكرين لبعضهما . ودخل ظلام الليل عليهما . وعندما نظر ابراهيم باشا هذا الحال مع كثرة رجال اخصامه وقلة رجاله آيس من الخلاص وانه سيكون مع عسكره فريسة لاعدايه . وفيما هو بهذا الياس مر عليه سليمان باشا المذكور وفهم منه انقطاع امله من الخلاص فجاوبه بكل قساوة بانك للان جاهل بفنون الحرب لا تعرف الغالب من المغلوب لان خصمنا ترتيبه صار مختلا قريب السقوط وترتيب عساكرنا باحسن حال . فتشجع ولا تجبن عن المقـاومة لاني اعتقد بان عسكرنا هذا القليل يكفي لقهر ضعف عساكر الخصم . فتشدد ابراهيم باشا بهذا الكلام وزاد تحريضه لرجاله وهكذا الصدر الاعظم كان يجول في اول صفوف عساكره يحرضهم ومن شدة الضباب وتراكم الثلوج وقرب عساكره من عساكر مصر فبانفراده حاق عليه عسكر المصريين واخذوه اسيراً لعند ابراهيم باشا الذي حالا تقدم للقاه واستقبله بالاحترام اللايق برتبته واطلق المناداة على عساكر الترك بان الوزير الاعظم صار اسيراً عند ابراهيم باشا . فتبددت تلك الجيوش تاركة مهماتها غنيمة للمصريين . اما ابراهيم باشا فتوجه بوزير الصدارة الى مدينة قونيه ثم ارسله لعند ابيه بالاسكندرية وارسل بشاير انتصاره لجميع البلاد الشامية وبلاد الترك التي اخضعها لسطوته . وبعد ان ارتاح عسكره نهض به قاصداً ايالة كوتاهيه الى ان وصلها . فتهارب الحكام من وجهه وما عاد له ممانع يعارضه

(١١٥) في طريقه لان الرعب ملأ قلوب جميع البلاد من شدة سطوته . فدخل كوتاهيه بكل راحة . وكانت خيول المنادي تتوجه لمدينة ازمير ببعض مصالحها حال كونها لم تزل محكومة من طرف السلطنة فلا تجد من يعارضها . حينئذ ورد له تحارير من سفارات انكلترا وفرنسا بالوقوف عن التقدم حتى يأتيه امر والده لانه حاصل مكالمة من السلطنة بتسوية الخلاف. فتوقف الى ان انتهى القرار بان يبقى بيد والي مصر ايالات صيدا وطرابلس الشام وحلب مع ايالة ادنه من بر الترك ويترك للدولة بقية فتوحاته. وحينئذ رجع بعساكره الى سوريا . ثم حضر لدمشق شريف بك من اقرباء والي مصر بوظيفة حكمدار على بر الشام من حلب الى غزه . وبعد مدة اعطته الدولة رتبة ميرميران ولقب باشا . وكان من ذوي العقول نبيهاً حاذقاً ولكنه كلي القساوة على المذنبين لا يشفق ولا يرحم المذنب. فامات كثيرين بضرب الكرباج . فالذي يستحق ذنبه عشرين عصا يضربه خمساية كرباج كل كرباج يساوي العشرين عصا ويكون اكثر الضرب امامه . وعنده لوظيفة الضرب شاباً مصرياً كلي الرداءة والقساوة اسمه علي يتفاخر بانه يخرج الدم من ارجل المضروب في رابع جلدة . وقد شاهدته يضرب انساناً مغشى عليه والدم ينزف من ارجله برأي الباشا مع انه كلي العدالة والصدق في كلامه ومواعيده . فصار ترتيب الولاية والمجالس على احسن وجه . وكان المتشكي من حكم مجالس الولاية يستأنف دعواه لمجلس دمشق . واعمال المجالس وتقارير اصحاب الدعوى واعضاء المجالس بمفرداتهم تحت امضاواتهم واختامهم تتسجل حرفياً . ولم يكن فيه سلطة لاحد من رجال الحكم كما هو جاري الان حتى الباشا حكمدار الايالة لا يقدر على المعارضة بشيء واذا اقتضى له عمل في المجلس فيحضر فيه كمن له دعوى والمجلس يحكم بما يراه مطابقاً للعدالة . ثم اعمال المجلس بمفردات تقاريرها تتقدم ليوحنا بحري بك لكي ينقحها حسب ماموريته من محمد علي باشا . فاذا وجد تقريراً لاحد اعضاء المجلس او حكماً لا يوافق العدالة فيكتب عليه مناقضة يوضح فيها الخطا ويرسلها الى المجلس . فان كان الخطا بمحله اصلحوه والا فيناقضوا بحري بك . ويمكن ان تتكرر المناقضات حتى يحق الحق . وهذا العمل يمنع وقوع المغدورية على احد . ويلزم اعضاء المجلس بالاعتناء والجد بمعرفة الاحكام الصوابية وليس كما نرى الان ما قاله الاديب الفاضل :

نزلت السوق ابغي لي اتاناً ... فقال لي الاتاني وهو عابس
الا ترى بان الكل صاروا ... بباب الحكم اعضاء مجالس

ثم ان المصريين احدثوا على الرعايا مالا سنوياً سموه اعانة على رؤوس الرجال حسب اقتدار الانسان فالغني يدفع بكل سنة خمساية غرش والدون بدونه لحد الخمسة عشر غرش بحيث يكون المجموع عن كل شخص ماية غرش فصاعداً. وكان وقتئذ الريال العمود بخمسة عشر غرشاً. فهذا الطلب كان صعباً على المسلمين والنصارى وخصوصاً اهالي القرايا المرتب مالا على اراضيهم وغراسهم ومال عداد على مواشيهم ونحل عسلهم ومال رقاب على اشخاصهم وزاد على النصارى منهم مال جزية رقابهم كاهالي بلاد حاصبيا. فالامير سعد الدين وقع في ارتباك لان اطاعة اولياء الامر وجوبية وحالة رعايا بلاده لا تحتمل ثقل هذا الطلب. فامرني بالنزول لدمشق ومعي ورق بياض عليه ختمه (١١٦) لكي اكتب عليه باسمه ما يلزمني بالحكومة والمجلس. فحضرت لدمشق وكان كاتب المجلس مستعداً جداً وبيننا قرابة وصداقة. فقدمت من الامير جواباً لشريف باشا على امره وانه ارسلني وكيلا لترتيب مال اعانة بلاد حاصبيا بمجلس الشورى. فالباشا احال هذا الجواب للمجلس. فاخذته الى الكاتب. فاوعدني بسرعة الخلاص. فالتمست تأخيري عن الجميع لان ذلك اوفق لمصلحتي. فحركت وكلاء البلاد لزيادة الشكوى من ثقل هذا الحمل فتشكوا وطلبوا المرحمة. ان المعلم بطرس كرامه اجتهد بتنزيل فيئة اعانة لبنان الى الخمسين غرشاً. ثم جعل عدد رجاله اربعين الفاً مستثنياً عدد الامراء والمشايخ وامناء الدين من مشايخ وخطباء اسلام ومطارين وخوارنة ورهبان ومشايخ عقل وخلواتيه وخطباء دروز. فكانت جملة الاعانة المرتبة على رجال جبل لبنان اربعة آلاف كيس. وبالتبعية صار ترتيب فيئات البلاد بأكثر واقل من ذلك. فكان البقاع اقلها خمسة وثلاثين غرشاً. حينئذ سعيت بنهاية بلاد حاصبيا فانتهت معي بثلاثين غرشاً. واما دمشق فلم يحسنوا التصرف بترتيب فيئاتها. فوقعت فيئتها نحو ماية وعشرة غروش. فكان كافة المتوجب عليها سنوي اربعة آلاف كيس وكسور ولكون اهاليها غالبهم من الصنايعية الفقراء واذا وجد القليل بينهم من الاغنياء فلا يمكن ان يضعوا عليه اكثر من خمساية غرش التي عينها الحكم الاعلى. ولذلك حصل الضنك على الاصناف. وكان يقل عدد الاهالي فيرجع النقص كسوراً على البلد.

واما الامير بشير غب رجوعه من حمص امر بهدم بيوت المشايخ النكدية وضبط ارزاقهم. فالبيوت هدمت واما ارزاقهم فارتفع عنها الضبط بواسطة بيت مشاقه بدعوى الدين الذي لهم عليهم. والمشايخ قر حالهم منفيين الى مصر مع مشايخ جنبلاط وعماد عدا عن الشيخ سعيد جنبلاط صار ادخاله في العسكرية.

ثم شرعت الحكومة المصرية بمنع الامراء والمشايخ المستقلين في احكام بلادهم عن استقلالهم حيث كانوا يدفعوا عنها مالاً معلوماً للخزينة . فحررت اموال البلاد بمفرداتها لجانب الخزينة وجعلت اوليك الامراء مامورين من طرفها بمعاش معلوم من جانب الخزينة لا يساوي عشر ايراد بلادهم . وتدرجوا لعزلهم عن بلادهم ونصب الاجانب مكانهم . واما الامير بشير فاحضر من والي مصر امراً جازماً بخصوصه لشريف باشا بان لا يتعرض له بشيء بل يتركه ان يتصرف في لبنان مستقلا كعادته فهذا الامتياز صار ثقيلا على شريف باشا وصار يترقب فرصة ليهين بها شرف الامير . فرفع اولا استقلالية امراء حرفوش في بلاد بعلبك ورتب لهم معاشاً . ثم فعل ذلك في امراء حاصبيا وراشيا وذلك في بداية سنة ١٢٥٠ . وعند ذلك صممت على سكنى دمشق فحضرت اليها ثم تزوجت بها واشتريت بيتاً لسكناي وبقيت الاحظ اشغال الامير سعد الدين عند الحكومة ومجلس الشورى وعندي ختمه على ورق ابيض . ان المصريين عندما شرعوا بتغيير عوايد العشاير واحداث طلب اموال من الاهالي زايدة عما اعتادوا على دفعه للحكومة نفرت قلوب الاهالي منهم وصاروا يتمنوا رجوع حكم الاتراك وابتدا ظهور العصيان عليهم . واضطر المصريون لتكثير العساكر لحفظ مركزهم الجديد . فعصت عليهم طايفة النصيرية في جبال اللادقية . فارسل الحاكم لقتالهم عسكراً من لبنان وحاصبيا وراشيا يقودوه الامراء الذين دخلوا في تلك الجبال وامتلكوا جملة محلات وكان يرافقهم النصر في حروبهم. ولعدم ضبطهم الترتيب اللازم واستخفافهم بالخصم آل الحال الى غلبهم وقتل كثيرين من رجالهم وخسارة فتوحاتهم . ورجعوا الى اللاذقية مخجولين الى ان جردت الحكومة على الجبال المذكورة عساكر كثير وقهرتها . ثم الحكومة شرعت باخذ انفار للعسكرية من الرعايا . وكان اخذها لهم بدون ترتيب. والعسكري ليس له مدة معلومة للتخلص والرجوع لعند اهله بل خدمته كابدية جهنم . ولذلك الشبان كانت تتهارب لمحلات تعصمها . فعندما طلبت الحكومة انفار للعسكرية من الامير بشير لم يجعل سبباً (١١٧) لتهارب الشبان بل وزع الانفار المطلوبة على مسلمين ودروز لبنان من كل قرية بحسب عدد رجالها . واصدر امره بانه لا يقبل شخصاً بدون ارادته . فكانت القرايا ترضي الشخص بالمال وتحضره لدار الحكومة فيسال منه هل انه حضر باختياره ام غصباً فان اجاب باختياره قبلوه والا فيطلقون سبيله . وبهذا العمل لم ينزح احد من شبان الجبل . واما في المدن كدمشق مثلا تنفرد العساكر بالبلد بغتة والناس مشتغلة باعمالها وتلقي القبض على جميع الشبان الذين يصادفونهم . ومن وجده

الطبيب صحيح الجسم ادخلوه في العسكرية ولو كان وحيداً لوالديه العاجزين . لا بل اذا كان ممسوكاً من له اخ بالعسكرية ولم يبقَ غيره ليعول والديه فلا يتركونه .

ان بلاد نابلس عندما اشعرت بثقل ما تحمل عليها من حكومة المصريين مما لم تعتاد على حمله اظهرت العصيان . فتوجه اليها ابراهيم باشا بالعساكر فحاربه الاهالي ولكن عساكره لم تكن كثيرة تكفي لاخضاعهم . وخلا كثرتهم فانهم من اشد رجال سوريا ممارسين الحروب الدايمة مع بعضهم ولكنهم يصيرون يداً واحدة على العدو الذي ياتي ضد احدهم. فابراهيم باشا تضايق جداً من حربهم وكاد يقع في ايديهم . وبلغ خبر ضيقته لوالده بالاسكندرية فحالا حضر بنفسه بحراً لاسكلة يافا . وبوصوله وجد ابنه تخلص من مضايقة اخصامه له بخسارة كثير من عسكره ومن ثم احتال على تقديمهم الطاعة له . وبعد مدة احضر بعض كبرايهم وصار قطع رؤوسهم امام باب سرايا دمشق . واما محمد علي باشا عندما شاهد خلاص ولده رجع للاسكندرية .

ثم في سنة ١٢٥٣ عصت دروز جبل حوران على الحكومة بسبب احداث المطاليب . وكان ابراهيم باشا غايباً في بلاد شمال متحذراً من شيء يحدث عليه من طرف السلطنة فلا يمكنه الحضور. فشريف باشا الحكمدار ارسل عليهم اربعماية وخمسين فارساً من عسكر الهواره ظناً منه انهم كافون لاخضاع الدروز لان جبالهم سهلة على عسكر الخيل وهم لا يزيدون عن الف وستماية رجل جميعهم فلاحون في قرايا شيوخهم. فعندما بات العسكر بالقرب منهم اتوا عليه ليلاً وذبحوه واخذوا خيله وسلاحه ولم ينجوا منه الا القليل هرباً تحت الظلام . وعندما بلغ الخبر لشريف باشا ارسل عليهم عسكر النظام نحو ستة آلاف بالمدافع مشاة وفرسان . اما الدروز بعد ذبحهم الهواره اتفقوا مع عرب السلوط ودخلوا بعيالهم الى اللجاه . فعندما وصل العسكر اليهم تحاربوا فانكسر العسكر . وكان ذلك سبباً لخوف العساكر عندما تبلغها اخبارهم وتشجيعاً للدروز في الخارج لياتوا لمعونة جماعتهم لا سيما وان اللجاه عسرة المسالك واسعة الانحاء طولها مسافة عشرين ميلا وعرضها خمسة عشر ميلا كثيرة الصخور والمغاير وشقوق الارض لا يدري الغريب كيفية السلوك ضمنها ولذلك كثرة المحاربات فيها ودايماً تقع الخسارة على العساكر بالقتل والتجريح فيأتيها الاسعاف بعساكر جديدة فتضعف عن القتال قبل وقوع الحرب لان العسكر الاول يقطع عزمها باخبار انكساره الذي ينسب اسبابه لكثرة الاعداء وشدة باسهم مع انهم اقل من ربع العسكر وان الاراضي لا يمكن سلوكها ولا ينسب شيئاً لرداءة تدبير القواد واستيلاء الجبانة على جميعهم.

فتكاثرت العساكر كما ان الدروز حضروا لاسعافهم بجملة اشخاص من دروز لبنان وحاصبيا وراشيا التي كان منها الشيخ شبلي العريان (الذي هو الان شبلي باشا بخدمة الدولة) وهو شاباً شجاعاً تربى بخدمة الامير افندي قد ظهر منه اقدامات كلية في الحروب المصرية وبعدها اوجبت تقدمه في خدمة المصريين ثم بعدهم في خدمة السلطنة . وقبل حضوره الى اللجاه قتلوا الحاكم في راشيا من طرف ابراهيم باشا وتوجه لحاصبيا بجمهور وبالامير بشير والامير علي اولاد الامراء بديعة المقتولين لياخذوا الثار من الامير سعد الدين . وكان وقتئذ عنده الامير محمود ابن الامير خليل ابن الامير بشير الكبير ببعض خدامه . وكان جبرائيل مشاقه بالصدفه هناك لشغل له . فالامير سعد الدين جمع الامراء واتباعهم مع اتباعه والامير محمود ضمن سرايته وارسل خبراً للامير بشير الكبير بالمتوقع . فوصل شبلي العريان بجمهوره الى حاصبيا واعتمد على دخول السرايا (١١٨) عنوة . فصدوه بضرب الرصاص فارتفع عنها وشغل الضرب على طيقان السرايا . فالامير محمد اخو الامير سعد الدين كان يحارب من الجهة الجنوبية جهة داره مع بعض الامراء ويحمي باب السرايا من الجهة الغربية . واخوه الامير بشير يحمي الجهة الشمالية لان داره فيها ومعه بعض الامراء . واما الجهة الشرقية ومنها دار الامير سعد الدين هي المقابلة لمراكز الاخصام كان فيها جبرائيل مشاقه وبعض اتباع الامير . واشتد القتال والهجومات كانت متواصلة ويخرج منها رجال للمدافعة وبارود السرايا الشرقي يحميها الى انه قتل كثيرين من جماعة العريان . واما من جماعة الامير لم يقتل سوى اخيه الامير محمد برصاص اصاب دماغه وهو كان القاتل بيده للامير حسين بديعة فيما سبق . والان ولده الامير علي حضر مع العريان للاخذ بثأره من قاتل ابيه . فثاني يوم بلغ العريان ان الامير خليل قادم لانقاذ ولده الامير محمود وضرب المتجمهرين . فانسحب بجمهوره وتوجه الى اللجاه ولولا يكون معه اميران شهابيان لم يتجاسر على محاربة الامير سعد الدين لانه من الرسوم المقررة في بلاد الدروز انه لا يقدر احد يرفع سلاحه في وجه امير شهابي الا اذا كان بمعيته امير منهم . فحضر الامير خليل لحاصبيا وكانت الجموع تفللت فاخذ ابنه ورجع لمحله . واما الحرب على اللجاه فاشتدت جداً ودايماً يكون الانتصار للدروز . فالدواب تتوجه من دمشق باتصال حاملة المهات للعسكر وترجع حاملة المجاريح . اقتضى حضور مير اللواء كلوت بك الفرنساوي ناظر عموم الصحة من مصر وصحبته بعض الاطباء لمساعدة اطباء العسكرية حيث لم يكفوا للقيام بمعالجة المجاريح والمرضى لكثرتهم . فعندما اشتدت نكاية الدروز بالعسكر

المصري نهض اليهم شريف باشا بنفسه وجهز عسكر عظيماً ونزل بجانب اللجاه واقام عليهم الحرب الشديدة الى ان تقهقروا امامه ودخل شريف باشا بنفسه مع العساكر في اللجاه تابعاً عسكر الدروز. وعند توسطه اللجاه في مكان عسر المسالك وكان آخر النهار رجعت الدروز التي كانت تتقهقر امامه مع الكامن منهم خلف الصخور وفي المغاير انطبقوا على المصريين الذي انتهكت عزايمه بالمحاربة والمشي بالوعور طول النهار وصاروا يذبحونه كالغنم. واما شريف باشا فبالجهد امكنه الفوز بنفسه هارباً لخارج اللجاه. وهلك اكثر عسكره بهذه المحاربة واستولى الدروز على كثير من الاسلحة والمهات واستحوذ الرعب على قلوب العسكر المصري من سطوة الدروز. اما هم فتشددت عزايمهم وكثرت جموعهم بالواردين من الخارج لاسعافهم. فكانوا يبثون السرايا ويستولون على الذخاير الواردة للعسكر وعلى المهات الحربية الواردة له من طريق عكا.

فابراهيم باشا عندما بلغه حال عسكره وما جرى على شريف باشا حضر لدمشق فجهز عسكراً وخرج لمقاتلة الدروز فقاتلهم مراراً من محل اقامة العسكر فلم ينال الظفر لانه استولى الخوف على عساكره. فقاتلهم من جهة صلخد حيث يتصل منها لسهول دامه داخل اللجاه حيث توافق لحركات العسكرية. فادخل امامه خيول (١١٩) عسكر الاكراد. فحاربهم الدروز قليلا وتفرقوا من امامهم. فدخلت خيل الاكراد وتبعها ابراهيم باشا بعسكر النظام. وبوصول الاكراد لارض دامه انطبق عليهم رجال الدروز فكسروهم كسرة هايلة. فدافع عنهم ابراهيم باشا بالعساكر النظامية. بلا فايدة لان عساكره جميعها خافت سطوة الدروز فانكسرت امامهم وهم يتبعونها ويهلكون رجالها ويربطون عليها مضايق الطرقات وبالجهد حتى امكن ابراهيم باشا التخلص بمن بقي من رجاله لخارج اللجاه. ولا يسع شرح مفردات الوقايع لكثرتها. وتحرير ذكر المهم منها. وفي جميعها لم يفز العسكر المصري بواحدة. فعمد ابراهيم باشا لمضايقتهم بالعطش حيث لا يوجد ينابيع داخل اللجاه ففي فصل الشتاء يستقون من متحصلات الامطار وفي الصيف من ينابيع في لحف اللجاه. فصمم ابراهيم باشا على تسميم هذه المياه بمحلول السليماني وطلب من كلوت بك تحليله أجابه وظيفتي هي محافظة الصحة وليست قتل البشر. ومع هذا لا يجوز لمثلك الاستعانة على الرعية باعمال الغش خصوصاً ان النساء والاطفال يشربون لهذا الماء ايجوز اهلاكهم بذنب رجالهم. فقال انني لا اغشهم واخبرهم فيما اصنعه. فاجابه ولا هذا يجوز لان يهلك الغير مذنبين بالعطش فلا اجاوز عليه. ولكن ابراهيم باشا لم يرجع عما

عزم عليه فالزم معلمين الكيمياء الذين في معسكره من المصريين بعمله واشترى جميع السلياني الموجود بدمشق وحللوه حسب امره ووضعوه بالمياه لان عساكره ومدافعه لم تقدر تحميها منهم فكانوا يهجمون عليها ويهزمون العساكر ويستقون . ومع ذلك ما قدروا على استحصال ما يكفيهم ومات منهم اناس بالعطش . ومن بعد تسميم المياه اضطروا لترك اللجاه وان يعملوا مركزهم بلاد راشيا وعرقوب بلاد حاصبيا . وكان الحكم قد وضع طابوراً من عسكره في سرايا الامير افندي براشيا . فحاصره الدروز وليس عنده ماء ولا ذخيرة كافية . فاضطر للتسليم والرجوع لدمشق . فعندما خرج من البلد لحقوه لقرية الضهر الاحمر التي تبعد ثلاثة اميال وهناك ذبحوه جميعه . ولم ينجوا منه ولا واحد. فعندما بلغ ذلك لابراهيم باشا حرر للامير بشير ان يرسل عسكراً لحاصبيا مع ابنه الامير خليل يقيم بها تحت امره . فارسله وصحبته ثلاثة آلاف فارس وراجل فاقاموا بحاصبيا . ثم نهض ابراهيم باشا من دمشق بالعساكر قاصداً راشيا من طريق الديماس لسهولته . فعندما بلغ راس وادي بكّا صادف الشيخ ناصر الدين عماد قادماً من لبنان بالف رجل متسلحة من دروز الجبل لمساعدة العصاة في راشيا . فوقع القتال فعساكر المصريين زاحمت الدروز واشتد الحرب والشيخ ناصر الدين يحرض رجاله وكان من الابطال الشجعان افراد عصره في لبنان . فلسوء حظ رجاله اصيب برصاص قاتل فخر صريعاً . حينئذ التجت رجاله الى ربوة محصنة بالصخور والاشجار البرية لا ماء فيها فاحتاطت بهم العساكر من جميع الجهات وما زالوا بالمدافعة عن انفسهم لا يطلبون الامان محتملين شدة العطش حتى فرغ بارودهم والهجمات عليهم (١٢٠) متواصلة من كل جهة وصاروا يقاتلون بما وجد معهم من الاسلحة الحادة ورشق الحجارة . واما العساكر لم تفتر عن اطلاق الرصاص عليهم حتى قتلوا جميعهم . فابراهيم باشا في كتابته لشريف باشا يقول انه خلص منهم واحد فقط نظره هارباً لم يلتجي مع جماعته الى الربوة . واما الذي فهمته فيما بعد من اهالي ينطا جيرة مكان الواقعة ان الذين تخلصوا اكثر من اربعين. فربما ان ابراهيم باشا لم ير غير الذي اخبر عنه . وعندما بلغ الدروز في راشيا خبر قدوم ابراهيم باشا اليهم هربوا الى ارض جنعم من بلاد حاصبيا بالقرب من قرية شبعا التي جميع اهاليها من المسلمين والنصارى. واراضي جنعم من شرقيها جبل الشيخ ومن غربيها الجبل الوسطاني عسر الصعود اليه. وهو يفصل حاصبيا وبعض قراياها عن ارض جنعم .

ان ابراهيم باشا بعد نهاية حرب بكّا حضر الى راشيا فوجد الدروز قد

نزحوا منها الى جنعم حيث كثرت جماهيرهم هناك من حاصبيا وبلادها وبلاد راشيا واقليم البلان . وحضر لعندهم شبلي العريان من اللجاه وصحبته الامير بشير والامير علي بديعه الذين كانوا معه في حصار سراية حاصبيا مع جملة رجال . فابراهيم باشا ارسل امراً للامير خليل بحاصبيا ان يوافيه برجاله الى جنعم محدداً له اليوم والساعة . فصعد بالرجال الى قرية شويّا في ذيل الجبل الوسطاني حيث جموع الدروز خلفه ويلزمه للوصول اليهم ان يصعد بالرجال لراس الجبل الكاين عليه محافظون من الدروز والطريق اليه واقف وضيق وعسر جداً على الافراد فضلا عن الجماهير . فوقع منه غلط مضاعف اولا بصعوده قبل الساعة المحددة له ثانياً كان يجب ان يبقى رابضاً بعسكره في ذيل الجبل ويرسل فريقاً يطرد الدروز المحافظين في راسه . ومتى امتلك راس الجبل يصعد اليه بباقي العسكر . فاستخف بالمقام وقبل الميعاد بساعتين صعد بجميع العسكر دفعة واحدة . فالمحافظون حالاً استحضروا رجالاً من جماعتهم واطلقوا الرصاص نحو الصاعدين وهجموا عليهم فكسروهم وارجعوهم لحاصبيا . وقتلوا منهم جملة رجال . وبعد ذلك سمع لحاصبيا صوت مدافع ابراهيم باشا في اراضي جنعم . فركب الامير خليل وجماعته وامراء حاصبيا وتوجهوا لعنده . وبوصولهم كان حق الغلب على الدروز. فارسلوا حسن البيطار من عقال راشيا لعند ابراهيم باشا يلتمس لهم الامان . وكانت عباته مخرقة من الرصاص وكان ابراهيم باشا يجتمع معه مراراً وينشرح لكلامه . فقال له لم تزل بالحياة . اجابه انظر سعادتك خروق عباتي بالرصاص والباري تعالى لم يسمح بقتلي . فاذا شئت موتي فانا بين يديك. فقال له انا لا اريد موت احد من الرعايا ولكن جماعتك يسعون في قتل انفسهم . فاجابه انهم الان انتبهوا من غفلتهم يطلبون الامان والعفو عما سبق من خطاياهم . قال لهم ذلك بشرط تقديم سلاحهم فقط. اجاب حسن البيطار انهم خاضعون لكلما تامرهم به فليصدر امرك بمرسوم الامان ويتوجه معي مأمور لكي يجمع السلاح ونسلّمه له. فحرر المرسوم وتوجه المأمور فاعطوه السلاح (١٢١) وعندهم غيره.

اما ابراهيم باشا من بعد اعطايه الامان لجماهير الدروز وصدر لهم امره بجمع السلاح ترك الامير خليل وامراء حاصبيا امامهم لحينما يتم جمع السلاح وتنصرف الجموع ورجع بالعساكر لدمشق . فعند انصراف الجموع وبينهم الامير بشير والامير علي بديعه تبعهم اخوة الامير سعد الدين الامير بشير والامير خليل وهجما على الاميرين المرقومين وقتلاهما ورفعا روسهما على رمحيهما وتوجها بهما الى حاصبيا . وبهذه الوقايع انتهبت خلوات العقال في البياضة نحو خمسين خلوة مجتمعة فوق

حاصبيا يسكنها العقال الاتقياء لا تدخلها النساء . وهي بمنزلة اديرة الرهبان النصارى لا يوجد مثلها في بلاد الدروز وهؤلاء العقال بعضهم متزوج وبعضهم غير متزوج ولكن زوجته واولاده يقطنون في احدى القراياوعندما يريد فيتوجه لزيارتهم (واريد ان اذكر ملخص احوال هذه الطايفة لاني اطلعت على جميع عقايدهم واطوارهم وقرأت المابة واحد عشر رسالة مع شروحات الامير السيد (الامير السيد هو الامير عبدالله التنوخي مدفون بقرية عبيه وهو من اعاظم قديسي الدروز) وغيره من الجهد بتحصيل معانيها لانها مملوة من الرموز . فالذي تحقق ان كلما هو شايع عنهم من الامور المخلة بالناموس الانساني فهو محض اكاذيب لا صحة لها . ولكن كتمانهم لقواعد ديانتهم صار سبباً لاتهامهم بالامور المنكرة التي هم بعيدون عنها . وهم معذورون بالكتمان لكونهم تحت احكام لا تجيز تأمين غير النصارى واليهود والمجوس بان يسكنوا بلادها بدفع الجزية عن روؤسهم وما عداهم يستباح ماله ودمه وعرضه . ولا تقبل توبته على اصح الاقوال عندهم . ولذلك قد تحتم عليهم في كتب ديانتهم بكتمانها وان المكالمة بامور دينهم مع الاجنبي هو الزناء الروحي حتى ان الجاهل منهم الذي يستبيح المحذورات فلا يرخصون له الاطلاع على كتبهم ولا المكالمة معه بامور الدين حتى اذا تاب وكان سبق منه ارتكاب قتل النفس ظلماً او خطية الزنا فيامرونه بالتوبة الحارة والندامة الكاملة بالبكاء على ما فرط منه والجولان على العقال الاجاويد يستسمح منهم ومع كل هذا لا يسمحون له بمطالعة كتبهم المعتبرة عندهم كاعتبارنا للانجيل بل يسلمونه كتب الشروحات فقط . ويلتزم بالامتناع التام عن شرب المسكرات والنركيله والتوتون وعن اكل الحرام بان لا ياكل من عند اتباع الحكام والداينين بالربا والحوارنه لانهم يزاحمون الورثا على مال الموتى وان يلبس ملابس العقال المحتشمة وهي ثوب من الخام المصبوغ بلون قاتم او ابيض واكمامه مستديرة غير مشقوقة فوهاتها . وفوق الثوب عباة وعلى راسه طابيه او عمامة بيضاء اللون) ولا يسمح له بلبس الاقمشة الحريرية المبهرجة الا لسكان المدن منهم بين المسلمين تستراً . ويلتزم العاقل بصيانة لسانه عن الحلف والشتايم وعن الكلام السفيه وكل لفظ ينافي الحشمة (١٢٢) والادب المألوف كالغايط يقولون عنه حزا بالحاء المهملة والزاي وليس بالخاء المعجمة والراء . والقرون يقولونها سوالح . والقط يقولون له بسين او بس . وهكذا كل لفظة تشير لمعنى غير لايق يجتنبونها حتى لو اراد المبالغة بقوله مثلا لو دفعت لي الف غرش لا افعل كذا مع انه يفعل ذلك بعشرة غروش فيحترز بقوله لو دفعت لي الف غرش حصة منها لا افعل فالحصة

تحتمل ان تكون اقل من العشرة وقيس على ذلك . واما زيجتهم فليست هي كما يتهمونهم بان الاخ يتزوج باخته والاب بابنته فهذا كذب صريح . (فانهم لا يجيزون الاقتران باقرب من ابنة العم والخال ولا باكثر من زوجة واحدة التي يجوز له طلاقها ولا يجوز له ارجاعها مدة الحيوة ولا النظر اليها . ثم ان كان طلاقها لسبب منها فيحكم امناء دينهم لرجلها ان ياخذ منها نصف ما تملكه هي وان كان السبب منه فتاخذ هي نصف ما يملكه زوجها . اما مواريثهم فتصح عندهم بموجب الوصية من المورث . فيورث ماله لمن يختار كالافرنج . وهذه الطريقة تجعل الاولاد يحسنون التصرف مع الوالدين ليلا يوصوا بمتروكاتهم للغير او للواحد منهم دون الآخر . فرجال الدروز العقال منهم نحو نصفهم . واما الذين يعرفون القراءة غالباً فهم عشرهم . والآن بواسطة تجديد المدارس في لبنان سيزيد عددهم . واما نساء الدروز فقلما يوجد بينهم من الجاهلات او من لا تعرف القراءة . والسبب في ذلك دوام وجود البنات عند امهاتهن فتصير لهن فرصة للتعليم . واما الذكور فيكونون مع والديهم في مساعدتهم على اشغال المعيشة فلا يمتلكون وقتاً يتعلمون فيه الا نادراً . هذا وان الدروز يتجنبون فحش الكلام اكثر من جميع الطوايف . وعندهم مزيد القناعة في معيشتهم وعدم الشراهة مع الاحتشام في ملابسهم ومعاشرتهم ويراعون حق الجوار لمن يسلك معهم بالاستقامة . ويصبرون على الضيم عندما يرون عدم مقدرتهم على دفعه عن انفسهم . وعندهم من عزة النفس ما لا يقاس به غيرهم) . فضربك احدهم بالسلاح مع كلامك معه بالاحتشام مقبول عنده اكثر من هدية سنية مع كلام مهين . هذا وانهم لا يقبلون دخول احد في دياناتهم من الخارجين عنهم . ويعتبرون الاربعة الانجيليين باكثر من اعتبارهم عند النصارى . ويعتبرون سلمان الفارسي والمقداد وابا ذر الغفاري وعمّار ابن ياسر وعثمان النجاشي من الصحابة (١٢٣) باكثر من اعتبارهم عند المسلمين . ويعتمدون صدق كثير من آيات الانجيل والقرآن . ويعتبرون جميع فلاسفة اليونان وبالاخص اسكولوبيوس فيسمونه اشقليبوس منتقلا الى فيثاغورس الحكيم ثم الى يثرون كاهن مديان ثم الى يسّوع بالتشديد وهو مسيح الحق ثم وثم . وثم الى فيثاغورس الحكيم وهو الذي قرر عقيدة انتقال الارواح ولكنهم لا يوافقونه بامتناعه مع تلامذته عن اكل اللحوم فلا يمتنع منهم عن اكلها الا المتشددون بالورع كما انهم يمتنعون عن استعمال كثير من الملذات الجايز استعمالها . ولا يقتضي اكثر بيان مما هي عليه هذه الطايفة من المزايا الحميدة التي تقود اصحاب الادراك لمصادقتهم . واما الذي تراه من بعض افراد اصحاب

المذاهب المختلفة بان الواحد يبغض الآخر لمخالفة له بالعقايد فهذا لا يجيزه العقل لان العقيدة نفعها وضررها يعود على صاحبها ولا تتعدى لغيره لانها تتعلق بالمعاد. فاذا اختار زيد لآخرته طريقاً يعتقده الاحسن لمعاده فماذا يخص عمر اذا كان في طريق آخر يعتقده الافضل . وهذا البحث يحتمل كلاماً لا يسعه هذا المحل فقط اقول ان اللازم لنا في الامور الدنيوية ان نعتبر الملل بحسب تصرفهم معنا في امورها ولا يلزمنا ننظر اليهم بعين الغضب لمخالفتهم لنا في امور الاخرة لان ذلك لا ياتينا بمضرة ولا بمنفعة فيلزمنا نتكاتف معهم على كلما يعود لخير العموم ونقدم لهم وسايل المحبة والاحترام ونحتسبهم معنا كعيلة واحدة وكفاهم ما وصلوا اليه من نتيجة اختلافهم . ولا يلايم صالح الفريقين الا الاتفاق . وشرايعهما مبنية على افضل الاداب . وكلاهما موجود تحت احكام شريعة تامر باذلال الواحد واهلاك الثاني . وكل منهما لا يجد ملائماً له اكثر من الاخر. فالدرزي يعاشر الناس بالمالوف عندهم فيلزمنا ان نسلك معهم بالمالوف عندهم . وبذلك تدوم راحتنا بينهم ويكونون لنا عضداً. وقد ذكرت آنفاً عما صار من تحريك الدروز لمقاومة النصارى ثم ابطال صيرورة هذه الفتنة بحسن سياسة الشيخ نجم العقيلي الشهير بجودة العقل واصابة الراي والاستقامة .

ولنرجع لذكر ابراهيم باشا . فعندما بلغه قتل الاميرين المستامنين ونفور شبلي العريان بعد استئمانه فبسبب ذلك صدر امره بتوقيف الامير سعد الدين عند الامير بشير في لبنان وربط اخوته القاتلين . وركب بنفسه مع عسكر الى اقليم البلان في طلب شبلي العريان فوجده قد فر الى جرد بعلبك الشرقي فرجع في طلبه لمحل وجوده (١٢٤) . فشبلي المذكور طلب الامان معتذراً في غدر الاميرين وقتلهما بعد تامينهما . فاعطاه الامان . فطرح سلاحه وسلم نفسه . فابراهيم باشا امره بنقل سلاحه واحضره صحبته لدمشق ثم وظفه ضابطاً على ثلثماية فارس . وعين حاكماً على حاصبيا محمد آغا سويدان صاحب مقاطعة ايكي قبولى المسماة حسيه وتوابعها . وهو من الانام العقلاء المتدينين ذوي الاطلاع على التواريخ والحوادث وافر المروه حسن الاخلاق وله فضل عظيم على المسيحيين خصوصاً في حادثة دمشق سنة ١٨٦٠ فانه قد صان نصارى بلاده ونصارى مدينة حمص القريبة لبلاده مع الملتجين اليه من الخارج نحو ثلاثة آلاف نفس حتى ان البلاد القريبة اليه لم يحصل فيها امراً مكدراً خشية منه . وهو للان بحالة العجز في بيته بقرية قاره .

واما الامير بشير والامير خليل القاتلان قد فرا من وجه الحكومة واختفيا مدة

كل واحد في جهة . فصودف ان حسين الطرابلسي من متاولة بلاد بشاره الشهير بالشجاعة وله احد عشر ولداً شاباً قد وقع منه تعديات كثيرة على الاهالي وابناء السبيل بالسلب والقتل . ولذلك صدر امر ابراهيم باشا بالقبض عليه ولم يقع باليد . فكان حسين المذكور في ذات يوم ماراً بارض مرج عيون صاعداً من الحولة بعد قبضه الجريمة منها فصادفه الامير خليل وعزم على مسكه واحتال عليه بلين الكلام . اما هو فاطلق عليه الرصاص فاخطاه . حينئذ هجم عليه الامير خليل قبل ان يتمكن من حشو بارودته وبمساعدة خادمه امكنه القبض عليه .. فنزع سلاحه واحكم وثاقه وحضر به لخارج حاصبيا . وارسله مع خادمه مكتوفاً وسلمه لمحمد اغا سويدان حاكمها المتقدم ذكره. واعرضت صورة الواقعة لابراهيم باشا فقال من الغريب ان الهاربين من وجه الحكومة بخيانة القتل يمسك احدهما الآخر ويرسله لحبسها . فواحد من الحاضرين اجاب ان الممسوك كان يقتل لاجل الطمع بسلب المال ولم يخش سطوة الحكم . واما الماسك لم يقتل سوى قاتلي اخيه اخذاً بثاره . وفراره كان اختشاء من سطوة الحكم منتظراً صفاوة خاطره عليه لا يسلب راحة ابناء السبيل ويتعب سر الحكومة ولهذا اظهر حبه وصداقته بخدمتها بمسكه من تطلبه وقدمه لها . فقال ابراهيم باشا انني لا اشك باستقامة الامراء آل شهاب بخدمتي ولكن اخذهم تار اخيهم كان بوقت يشين اماني ولكنني قد سمحت بجنايتهم لصدق خدامتهم . وامر باطلاق الامير سعد الدين وتأمين اخوته وصرف معاشاتهم وبشنق حسين الطرابلسي . فشنقوه (١٢٥) في حاصبيا. وبعده ارجع الحكومة في حاصبيا وراشيا للامراء الشهابيين.

وبهذه الحروب والحركات قد وقع على كاتبه اضرار كثيرة كادت تفقرني لانه كان لي قرية أيّب في اللجاه اخذتها من الحكومة بوجه التعهد بعمارها . فعمرتها وجلبت لها فلاحين. في ثاني سنة من عمارها نهبها العصاة وخربوها . كذلك كان لي في الحولة قريتي الخريبه والمنصورة . في طلوع البيادر نهبوا الغلال والمواشي وكانت جسيمة . وزاد على ذلك كان بيدي التزامات ميرية لمدة ثلاثة سنوات . فمن الحروب وتعطيل الطرقات وقع النقص في ايرادها وخسرت ما معي. وعندما تراكمت علي المصايب في اسباب معيشتي وكنت اطبب مجاناً فصرت اطبب بالاجرة . واقامة كلوت بك بدمشق مدة طويلة افادتني كثيراً لانه احبني وكان يدعوني لمرافقته في عملياته واهداني جميع الكتب الطبية مما ترجم الى العربية وطبع في مصر مع عدة جراحة ثم الحكومة نصبتني رئيساً على اطباء دمشق حال كوني لست كفاية لوظيفة كهذه . وبتلك المدة درست الإيساغوجي بالمنطق على الخوري

يوسف حداد الارثوذكسي . ثم قرأت شرحه على حضرة السيد الشريف محمود افندي الحمزاوي الشهير بالعلم والعقل ورقة الطبع ومكارم الاخلاق وهو الان مفتي الشام . ويصح القول عنه بانه اول انسان في سوريا . فحصلت مبادئ هذا العلم ولم اجتهد باتقانه .

ثم وقع حوادث كثيرة بمدة حكومة المصريين غير مهمة لا تستحق الذكر . ولكن في سنة ١٢٥٥ وقعت حادثة فقد البادري توما الكبوشي السرديني الاصل وخادمه . فحصل التفتيش عليهما . فاولا دخلوا لديره ووجدوا الطبخ على النار محروقاً وان حوايجه وحوايج خادمه مع مبلغ نقود في صناديقهما باقية كما هي . فحصل (الفحص) المدقق عنهما فتحقق دخول البادري توما لحارة اليهود في اواخر النهار ولم يره احد بعد ذلك . وبما انه كان يتعاطى الطب وتطعيم الجدري كان كثير الجولان بالبلدة . ولكنه يقسم اوقاته على المحلات بالترتيب . ففي الصباح يتوجه لمحلات المسلمين البعيدة ثم يرجع لمحلات النصارى ومنها يدخل لديره يتغدا وينام نحو ساعة للراحة . ثم يدور في حارة النصارى ويدخل الى محلة اليهود آخر النهار . ويرجع لديره عند المساء . وهذا الترتيب لا يتغير الا اذا اقتضت الضرورة بوقت ما . وصودف ان البادري كان عنده حوايج صيف يريد بيعها بالمزاد فكتب البادري اعلانات ليلصقها على محلات كنايس النصارى واليهود . وكان ذلك باليوم الذي فقد فيه . فوجد (١٢٦) ملصوقاً منها على جميع الكنايس خلا اليهود والروم الارثوذكسيين وحيث البادري شوهد دخوله لحارة اليهود قبل وصوله لجهة كنيسة الروم صار الفكر ان البادري دخل ليلصق ورقة حارة اليهود وبعدها يمر على كنيسة الروم وان اليهود اغتالوه قبل وصوله اليها ورفعوا الورقة التي لصقها عندهم ليمحوا الاثر . وعندما قيل ذلك فثاني يوم وجدت الورقة ملصوقة في المكان الذي جرت العادة ان يلصقوا فيه الاعلانات بجانب حانوت سلوم الحلاق الاسرائيلي . فالفاحصون قبلا لم يروا ورقة بهذا المكان فسألوا سلوم عن من لصقها فقال رجل نصراني لا اعرفه . سألوه بماذا لصقها قال ببرشانتين حمر . فرفعوها ووجدت كما قال مع ان باقي الاوراق التي على الكنايس ملصوقة باربعة اطرافها بالبرشان الابيض من الذي يقدس عليه البادري . فترجحت الشبهة عليه بقتل البادري وان الورقة الملصوقة في حارة اليهود اولا اعدمها المذكور ليخفي الخبر . وعندما صار السؤال عنها لصق مكانها الورقة التي كانت باقية مع البادري لكي يلصقها على كنيسة الروم . فقبضوا عليه ثم صاروا يوقعون على زيد وعمر من اليهود الشبهة بعضهم من اطرافهم وبعضهم من معتبريهم . وقد سبق الكلام على قساوة الحكمدار

شريف باشا فعاملهم بالوضع تحت العذابات المتنوعة وبذلك مات منهم جملة اشخاص . وكان مسيو دبراتي مانتون قنصل فرنسا كثير الاجتهاد بهذه القضية . واعتبروها من الامور الدينية عند اليهود بانهم ياخذون دم المسيحي يضعونه في فطيرهم الذي ياكلونه في عيد الفصح ولاستعماله ايضاً في امور اخرى لا لزوم لشرحها مع ان الدم في شريعة اليهود لا يجوز اكله مطلقاً . نعم ان شريعتهم تبيح لهم معاملة الاجنبي بما لا يجوز لهم ان يعاملوا به ابناء دينهم كاخذ مال الربا الذي يحرم عليهم اخذه من الاسرائيلي ويجوز لهم اخذه من الاجنبي. وهكذا الطبيب الجاهل يجوز له ان يطبب الاجنبي ويحرم عليه ان يطبب اسرائيلي . وهذا لا يستطاع انكاره . واما الحكم بالقتل لا يكون بدون سنهدرين (اي مجمع) يحكم به . وهذا لم يعد موجوداً عندهم بعد خراب الهيكل وزوال دولتهم . وبالجملة ان كبرايهم الذين تعذبوا والتزموا ان يعترفوا بصدق الدعوى فما كان ذلك الا ليقتلوا ويخلصوا من العذاب. والذي اوقع عليهم هذه المصيبة كثرة تعصبهم بالمدافعة عن كل يهودي ليبرروه من الدعوى المقامة عليه ولو كانت صحيحة وبنوع اولى اذا سئلوا عن مذنب منهم وكانوا يعرفونه فلا يمكن ان يقروا عنه . واقدر ان (١٢٧) اؤكد ان كبراء اليهود المحبوسين بهذه الدعوى هم ابرياء منها كأولاد الحراري الثلاثة هارون واسحق وداود وموسى ابو العافية وموسى سلانكلي والحاخام يعقوب العينتابي فيبعد عن العقل هجومهم على امر عظيم كهذا ولا يلوح بفكر كل عاقل يعرفهم ان لهم جسارة على ذبح ديك فضلا عن انسان . وبعد عذابات شديدة واعترافهم الا موسى السلانكلي دام على الانكار مع انه قاسى عذاباً اكثر من جميعهم . وفي ذات يوم كنت بمصلحة عند شريف باشا فاحضروه لكي يعترف بحقيقة الدعوى فانكرها وصدر الامر بتعذيبه امام الباشا . فما عذبوه به غرز مسامير من القصب تحت اظافر كفيه وبقي مصراً على الانكار. واما موسى ابو العافية فبعد ان تعذب كثيراً قال اني ما دمت في دين اليهود لا يجوز لي اقر باعمالهم ولكن متى خرجت منه فاقدر على الاقرار. حينئذ اسلم فالبسوه عمامة المسلمين وتسمى محمد افندي فابتدا يقرر عن جواز قتل الاجانب عند اليهود وعن قتلهم البادري توما واخذهم دمه ولا يتاخر عن تقرير كلما يرضي الخصم. فشريف باشا طلب منهم الدم الذي حفظوه من دم البادري فجميعهم ادعوا بانه تسلم ليد موسى سلانكلي. فزيدت عليه العذابات القاسية وهو لم يزل ينكر الدعوى من اصلها . فبقيوا محبوسين اشهراً حتى حضر مونتي فوري الاسرائيلي الشهير من انكلترا للاسكندرية واستحصل من محمد علي باشا مرسوماً لشريف

باشا بالعفو عن المذكورين وليس تبريرهم . وشاع انه تكلف على ذلك ستين الف كيس لمحمد علي وثلاثة آلاف كيس لدايرته . ولم نقف على الحقيقة . وحينئذ صار اطلاقهم .

واما خادم البادري فاتهموا بقتله فرقة أخرى من اليهود التي اختفت عن وجه الحكومة حتى صدر الامر بالعفو .

اما صورة ما اثبتوه على المحبوسين بالدعوى ليست هي الاكتفاء باقرارهم لانهم كانوا تحت العذاب فلا يعتبر. وانما اعتبروا وجود آثار اعضاء وملابس البادري بنفس حارة اليهود دل عليها بعض المدعى عليهم . وتحقيق هذه الدعوى من اولها الى نهايتها لم يحضره احد من المسلمين والنصارى بل تعاطاه شريف باشا بنفسه وحده مع كاتب لكتابة التقارير. فبعد وقوع الحادثة باثنين وعشرين يوماً استحضر ليلاً سلوم الحلاق لعنده وكان محبوساً بالانفراد عن رفقايه وصار منهوكاً من شدة العذاب فخاطبه بلطف انني ارغب خلاصك وعدم موتك تحت العذاب الذي لا يمكنني رفعه عنك ما دمت لا اعرف حقايق الدعوى ووجود جسد البادري (١٢٨) توما فاذا انت افدتني الحقيقة ووجدتك صادقاً فلك الامان على نفسك ولو كنت القاتل بيدك . واذا لم تتكلم بالصدق فتموت تحت العذاب. فقرر انهم بعد قتل البادري في بيت داود الهراري حضر خادمه ودعاني لمساعدته في ترحيل جسده . فتوجهت معه وجردنا لحمه بسكين كبيرة من عندهم والعظام الكبيرة كسرناها ورميناها في (سياق) ماء قليط الذي يمر في قبو تحت سوق الجمعة . وهكذا مزقنا كساوي البادري والقيناها مع لحومه في المحل المرقوم . وهذا هو الصحيح. فارجعه الباشا لمكانه واحضر خادم داود الهراري وخاطبه كالاول . وقال له انني استحضرت الحلاق واعطيته الامان اذا اقر بالصحيح واخذت تقريره وانك شريكه بترحيل جسد البادري. فالان اذا اتفق تقريركما فالامان يشملكما والا فتعاقبان حتى تهلكان فقرر المذكور طبق ما قرره الحلاق وارجع لمكانه . وعند الصباح ركب الباشا بنفسه واخذ صحبته احدهما لحارة اليهود ليدل على المكان الذي طرحوا منه اعضاء البادري وحوايجه . فدل عليه بان يحفروا قليلا بالارض فتظهر الطاقة التي القوا منها اعضاء البادري . فارسله الباشا لمكان منفرد . ثم رجع من المكان واحضر الثاني بدون اخباره عن المحل الذي اشار عنه الاول فدل على المحل ذاته . فاخذه لبيت داود الهراري واحضر له خمس سكاكين الموجودة ليدلهم على التي اشتغلوا بها فدلهم على واحدة منها . حينئذ امر بترجيعه الى محبسه واستحضر الاول فدل على السكين التي دل عليها

رفيقه فارجعه لحبسه . ولم يكن عنده شكاً بصدق ما قرراه. وامر بفتح الطاقة ونزول اناس الى القناة المقبية ليستخرجوا منها ما يجدوا من عظام واقمشة. فحفروا على الطاقة فظهر لهم على حوافيها اثر الدم . ثم نزلوا ال القناة وابتدوا بالتقاط العظام واذا بمايها قد طاف علهم بغزارة وكاد يخنقهم كما قالوا وان ذلك كان يقول البعض ان جميع بيوت اليهود في ساعة فتح الطاقة اطلقوا حياض الماء الكاينة في بيوتهم لاجل ذهاب اثار البادري بقوة جريان الماء . ولم اتحقق هذه الدعوى . ولكنهم اخرجوا جملة عظام وبعض قطع كساوي اخذوها للباشا . فارسلها الى قنصل فرنسا. فصدر امره بفحصها بمعرفة الاطباء والجراحين من اطباء العسكرية واطباء البلدة . وكنت من جملة المدعوين للفحص . وكان ذلك بحضور القنصل الفرنساوي وقنصل النمسا السنيور مرلاتو. فصار فحص العظام وكان بينها عظام حيوانات فافرز منها ما تحقق انه عظم انساني . ووجد قطعة من الفك الاعلى ولم يزل عليه خصلة من شعر اللحية . وبعد الفراغ من فحص العظام صار فحص الاقمشة وهي ممزقة لا تعرف ولكنه وجد طربوشاً اسود من ملابس البادرية . فالسنيور مرلاتو حرر شهادته بان البادري توما كان معلم ذمته ويعرف بتحقيق ان هذا هو طربوشه . ثم وجد قطعة جوخ من ذيل كسوة فعند تاملي فيها لم اشكك بانها من كسوة البادري توما ثم وجد قطعة ثانية من الجوخ ذاته من كتف الكسوة ملصق فيها قطعة من اسفل القبع الذي يرفعه البادرية على رووسهم باوقات البرد فزاد يقيني بذلك لسبب اذكره (١٢٩). وهو اني قبل فقد البادري بأشهر مريت على حانوت جوخي اشتريت منه لزوم الشتاء لعيلتي . فاعرض علي قطعة جوخ عنده سميكه كاللباد على انها حضرت له صحبة الاجواخ . وبما انه لم يصر راغب لمشتراها قصد ان يرجعها واذا اردتها فيراعيني بالثمن . فافتكرت انها توافق لكسوة السفر تحت الثلوج فاخذت منها عشرة اذرع ونصف لزوم شروال وكاكولة بثمن بخس . وعند قطعها مر البادري توما وسالني ماذا تعمل فاخبرته وقال هذه تناسبني في فصل الشتاء . فاخذ الباقي وكان دون الستة اذرع . وسال البايع هل يوجد عنده غيرها اجابه ولا في دمشق يوجد منها . فعملها كسوة فوقانية للشتاء. فالقطعتان من الجوخ اللتان وجدتا مع العظام هما من نفس الجوخ المذكور الذي لا يوجد منه بدمشق غير عندي وعند البادري توما . ثم انه بعد اتمام الفحص وكتابته وامضاوه من الفاحصين تسلم ليد قنصل فرانسا . والذي ترجح عندي من كيفية هذه الواقعة ان البادري توما اغتاله خادم الحراري والحلاق فقط طمعاً بما معه من الدراهم . فكلفاه لزيارة مريض وفتكا به . وعندما الخادم

الذي عند البادري وجد معلمه تعوق بالحضور عن ميعاده فتوجه للسوال عنه بحارة اليهود . فاخذوه القاتلون ليدلوه عليه وفتكوا به ليقطعوا الخبر . لان مطابقة تقريرهم تؤكد عليهم الدعوى . ولكن كثرة محاماة كبراء اليهود عن ذنوب جهلايهم تجلب عليهم ما يكدرهم . فهم يقصدون اثبات برارة جميع ابناء ملتهم والحال انهم كباقي الامم يوجد بينهم الجيد والردي.

وفي هذه السنة اي سنة ١٢٥٥ انفصلت حكومة حلب عن شريف باشا ووضع فيها حكمداراً اسمعيل بك امير اللواء من رجال العسكرية . وفيها ارسل السلطان محمود عسكراً كثيراً لاخراج المصريين من سوريا . فابراهيم باشا حرر للامير بشير ان يرسل عسكراً من طرفه لمحافظة دمشق احتساباً من حدوث هياج فيها لان العساكر المصرية اكثرها اجتمع لعند ابراهيم باشا . فارسل الامير بشير ولده الامير خليل مصحوباً بالف وخمساية من رجال الجبل ونزل فيهم بالمرجة خارج دمشق . اما ابراهيم باشا فتوجه الى حلب وجمع عساكر كفايته ودخل فيهم بر الترك قاصداً مقابلة العساكر الاتية لاستخلاص سوريا من يده بأمر السلطنة. فقابلهم بارض نزّب وحصل بينها حرب شديدة وكاد عسكر السلطنة يفوز على المصريين . ولكن شجاعة ابراهيم باشا وكثرة ممارسته على الحروب وتدبيرها اسعفاه على الفوز بالانتصار التام على عساكر السلطنة حيث السرعسكر اضطر للفرار بنفسه تاركاً جميع مهماته غنيمة للمصريين حتى اوراقه الخصوصية لم يقدر على الوصول اليها ووقعت بيد ابراهيم (١٣٠) باشا . ومما وجد بينها فرماناً بتولية علي اغا خزينة كاتبي المتقدم ذكره على ولاية الشام وخطاب للسرعسكر من الدولة تامره انه غب وصوله لحلب يرسل فرمان ولاية الشام لعلي آغا خزينة كاتبي كونه تقرر لديها صداقته من امين الصرة سابق خليل كامل افندي (الذي بعده حضر والياً على الشام وكنت طبيب عيلته وفهمت من ولده علي بك ان خزينه كاتبي المذكور لم يكن عنده علماً بتوجيه ولاية الشام عليه وان والده سعى له بهذا المنصب كونه احبه عندما حضر للشام واجتمع عليه) فابراهيم باشا ارسل اسمعيل بك حكمدار حلب لعند شريف باشا حكمدار الشام . وصار توقيف علي آغا بمحل في دار الحكومة . وكان شريف باشا متالماً من وجاهة علي آغا عند ابراهيم باشا فعمل مجلساً لاثبات تهمات قدمها عليه وصار لذلك عدة جلسات وعلي آغا يبرهن على برارته منها كما هو بالحق ولم يذكروا له دعوى فرمان الولاية . وعندما بقي عليه جواباً واحداً ليكتبه ويقدمه في الجلسة الاخيرة والناس تؤمل انه يخرج ثاني يوم مبرراً كما كنت اقف على كلما يحصل في الجلسات من الامير محمود حفيد الامير

بشير اذ كان بدمشق وكان يحضر هذه المحاكمة بامر شريف باشا فثاني يوم لم يتركوه لتقديم الجواب بل عند الصباح قطعوا راسه امام باب سراية الحكومة وتركوه مطروحاً لآخر النهار ليراه الناس وعمره حينئذ اثنان وسبعون سنة ولكنه كابن خمسين سنة بصحة جسمه . وكان يوماً شديد الكدر عند اهالي دمشق من اسلام ونصارى ويهود نظراً لحسن سلوكه مع الجميع . وما كان احد يظن ان هذه النهاية الشنيعة من يد المصريين لانه كان شديد المحبة لابراهيم باشا الذي كان شديد الميل لنحوه وعندما يحضر لدمشق يجعل نزوله مع خواصه في بيت علي اغا وهو بصحبته ليلا ونهاراً يلتذ بمسامرته وحكايا نوادره حتى كان يصحبه في بعض خطراته . وقد حضر معه حرب نابلس الذي تضايق به ابراهيم باشا وظهرت الفروسية من علي اغا واتباعه الذين قتل بعضهم وبعض خيوله في ساحة القتال . وعندما (حضر) محمد علي باشا ليافا توجه مع ابراهيم باشا لمواجهته . وجميع خدماته كانت مجانية ولم يقبل لنفسه وظيفة ينتفع منها وقد اعرض عليه ابراهيم باشا وظايف لايقة به مراراً فلم يقبلها . ومما وقع له مع ابراهيم باشا اذ كان بمجلس شراب في يافا مع بعض اصحاب المراتب في حالة الشرب قال ابراهيم باشا لعلي اغا الى متى اعرض عليك وظيفة بخدمتي وتأبى قبولها اجابه انا خادمك بكلما تريد خلا الوظايف المرتبة فلا اقبلها . وكان حاضراً حسن بك الكحاله متسلم القدس الدمشقي فقال له اما خدمت متسلماً في اللاذقية وبعده متسلماً في حماه . حينئذ ابراهيم باشا تحرك من (١٣١) فعل الخمرة وقال لعلي اغا هل ان الوزراء الذين خدمتهم هم اعظم مني اجابه كلا ولكنهم ما كانوا يسألون عن تصرفاتي. ولكن دولة مصر تعاقب خادمها اذا تناول هدية ولو ديكاً فتحبسه ويحضر القبطي يكتب جرنال الدعوى باعين مزورة ويلحظني شذراً كاني قاتل ابيه ويقول قرر فلان وقرر فلان وتكون الدعوى على ديك او جزرة فجل فلا أجعل حالي لاجلها اسيراً لقرر فلان وفلان فالاوفق لي وجودي حراً اقبل هدية الثور والجمل ولا احد يسالني. فقال له ابراهيم باشا فاني ارتب لك زيادة ترضيك باضعاف ما تؤمله من الهدايا فلا يبقى لك عذر . اجابه ان الباري تعالى عندما شاء خلق السماوات والارض خلق الاسماك في البحار والحيوانات في البر والطيور في الجو وجعل جنة فيها من الاشجار انواع شتى من كلما تشتهيه الانفس . ثم استحسن ان يخلق حضرة ابينا آدم فخلقه على صورته بغاية الكمال وافاض عليه روح النبوة وجعله حاكماً على جميع مخلوقاته من البهايم والاسماك والطيور والاشجار والاعشاب ولا يزاحمه فيها انسان ثاني فقط اختص لذاته تعالى شجرة واحدة ونهى

آدم عنها فعصاه واكل منها حال كونه نبياً . فمها اعطيتني لا تقدر ان تعطي ما اعطاه الله لآدم ومع ذلك مد يده لما نهاه الله عنه . وانا ابنه فلا بد ان يكون طبعي كطبعه ولا اقف عند نهيك فتعاقبني. فخير لي ان ابقى خارجاً عن الوظايف . فاقتنع ابراهيم باشا بجوابه.

ان امراء بيت الحرفوش بسبب اخذ بلاد بعلبك العايشين في خيراتها من ايديهم بعد ان كانوا حكامها اجيالا كثيرة لم يفتروا عن الحركات لان الذي رتبته الحكومة معاشاً لهم فهو قليل بالنسبة لما كانوا ينتفعون به من بلادهم واستولت الحكومة عليه. فكان الامير جواد من كبرايهم مظهراً العصاوة ولا يستقر بمكان والحكم لم يظفر به الى ان الامير جواد المذكور سئمت نفسه من الفرار والتفتيش عليه من الحكومة فتوجه لعند الامير بشير بثلاثة من خاص رجاله وطرح نفسه في سجن المجرمين. فالامير اخرجه من السجن ووعده بالسعي عند الحكومة بالعفو عنه . فابراهيم باشا كان غايباً في حلب اقتضى ان الامير كتب بذلك الى الحكمدار شريف باشا فتوجه له الجواب بان يرسل الامير جواد والذين معه الى دمشق سريعاً . ثم قال للامير محمود وكان لم يزل بدمشق انني اريد اقتل الامير جواد حين وصوله لهنا فهل جدك الامير يغتاظ لذلك اجابه لا اعلم ولازم اسأله عن ذلك . وبالحال ارسل الخبر لجده (١٣٢) بكل سرعة فرجع الجواب قبل وصول الامير جواد لدمشق وعن طيه تحرير لبحري بك مفاده اذا لم يمكن العفو عنه فاؤمل ان يبدل قصاصه بنوع غير القتل لكونه حضر بنفسه طايعاً . فعمل جهده بترجيع شريف باشا عن عزمه وان يصبر لحضور امر ابراهيم باشا . فجاوبه انني حررت له عن مرغوبي بالقتل وهو نفسه في عكا قتل الذين التجوا للامير من مشايخ نابلس وكانت غايته تحقير الامير. فعند وصول الامير جواد احضره لديوانه واجلسه وتكلم معه طويلا وصرفه . ثم الحق فيه المأمورين بقتله مع قتل اتباعه . فقطعوا رؤوسهم امام باب السرايا . فهذه التصرفات قد اوجعت الامير كثيراً واضعفت امنيته بالمصريين وصار يترقب منهم زوال نعمته كما ازالوا نعمة غيره ومن المعلوم ان محبة الذات الغريزية في مطلق الحيوان تتفاضل فيه بحسب رتبته . فالانسان اعلاها وهي تجعله يجتهد بازالة كلما يصده عن نوال مرغوباته . فذوي السلطان الاعلى يجتهدون باهلاك من هو دونهم بالسلطة لتقوية نفوذهم . فترى السلطان يجتهد ان يضعف قوة الوزراء وهم يجتهدون بتضعيف قوة الامراء الذين يجتهدون بتضعيف قوة المشايخ وبالتسلسل تضعف قوة الرعية عن دفع القوة المحدثة عليها المطامع في سلب محاصيل اتعابها . فكان

المصريون يجتهدون على الدوام بنزع الاسلحة من ايدي الاهالي حتى يضعفونهم عن مقاومة من يظلمهم وتضعف رؤساء العشاير بضعف رجالها فيقدرون على اهلاكهم ومن ثم يحكمون بالرعية كمشيئتهم بدون معارض .

وبهذه السنة اي سنة ١٢٥٥ توفي السلطان محمود وتولى السلطنة ابنه السلطان عبد المجيد الذي شرع بوضع التنظيمات لسلوك الدولة بطريق القوانين العادلة . فابراهيم باشا ما ارتاح من المتاعب لقيام المحركات ضده في جهات سوريا بسبب احداثاته على الرعايا التي لم يعتادوا عليها فيما سبق . لذلك كان قبلما ينهي الحركة في جهة يثور حركة اخرى في جهة ثانية . وبالجملة ان مدة اقامة المصريين في سوريا تقضت بالحروب مع الدولة والرعايا ولم تحصل على راحة . ولكن كانت كلية العدالة في احكامها بين الرعايا والتسوية بين الملل المختلفة وتحصل الحقوق لاربابها ولا تكلفهم لدفع شيء عن التحصيل . ومجالسها تقضي الدعاوي مجاناً واعضاؤها لها معاشاً كافياً من طرف الحكومة . والذنوب لا تباع بما يسمونه جزاء نقدياً . ولا مجلس بلدية تصرف حاصلاته في خصوصيات خدام الحكومة نظير عمل مفروشات لمحلات الوالي والدفتردار . ومجالس الدعاوي والادارة وغيرها ومحلات دواوين القلم البالغة نحو خمسين محلا وثمن زيوت للاضاءة بمحلات الحكومة في شهر رمضان واكلاف وليمة يعملها الوالي لزاير اجنبي واصلاح تعميرات للحكومة وما شاكل ذلك مما لا تنتفع البلد منه بشيء . ولنذكر قضية من اعمال ابراهيم باشا تليق بهذا الموضوع . ان فوايض المياه القذرة من بعض اقسام مدينة دمشق كانت تجتمع في خندق خلف السور لجهة باب شرقي ويفوح منها روايح كريهة على بيوت المحلات القريبة اليه التي اغلب سكانها نصارى والبقية من المسلمين . فتبقى هذه الاقذار مستبحرة هناك لاواخر الصيف فتنشف وياخذها اصحاب البساتين ويتجدد غيرها حيث لا مصرف لها وممكن صرفها الى نهر عقربا الذي لا يشرب منه غير الاراضي لانه يحمل اقذار كثيرة من دمشق ولكن يحتاج الامر من (١٣٣) الحكم لمرورها في ارض وقف المجذمين من الاسلام . فاهل المحلة التمسوا من ابراهيم باشا الاذن بتصريف هذه الفوايض على مصروفهم والرخصة بمرورها في ارض المجذمين وهي تنفعها . فحرر لشريف باشا بان يحقق بمعرفة الاطباء عن دعوى الضرر . فاذا تحقق وقوعه يصير الفحص بمعرفة المهندسين . فان وجد التصريف في ارض الوقف فيعملوا مقايسة المصاريف اللازمة للعمل وتتقدم له الافادة . فشريف باشا تمم الامر فتحقق ان ذلك مضر على عموم السكان وممكن تصريفه . فعمل مقايسة المصاريف وارسل التقارير

لابراهيم باشا فصدر امره بعمل اللازم على مصروف الحكم لانه يلتزم بدفع الضرر عن الرعية ولا يلزمها بان تتكلف لشيء من ذلك فتمموا العمل حسب امره .

ومنها انه بوقت ما رفع اللحامون سعر اللحم رفعاً فاحشاً فصدر امر الحكومة بتعديل السعر . فتعين لذلك بعض اعضاء مجلس الشورى . فاشتروا غنماً وذبحوه واعتبروا اكلافه واوزانه واضافوا على الثمن الربح المناسب الى اللحام . وتنبه على السعر وان لا يزاد عليه الا بمعرفة المجلس عند زيادة اثمان الغنم . وبعد مدة بلغ الحكم ان اللحامين لم يسلكوا حسب قرار المجلس مع ان اثمان الغنم لم تزد وبقيوا يبيعون بالزيادة كعادتهم . فصدر امر ابراهيم باشا بتحصيل الفرق منهم وان لا يدخل الخزينة بل يصرف في خصوصيات عموم الرعايا وهكذا صار .

فدخلت سنة ١٢٥٦ وكان قبلا حضر لكسروان السنيور ريجارد وود احد تراجمين سفارة الانكليز بالاستانة (الذي هو الان قنصل جنرال الانكليز في تونس ونايب جلالة الملكة) وكان الظاهر ان حضوره هو لتعلم اللغة العربية التي اتخذ له معلماً بها ارسانيوس الفاخوري الماروني . واما عمله الباطني كان عمل الوسايط لزعزعة حكومة المصريين في سوريا . وكانت اقامته في جبل كسروان . ثم شاع اتفاق الانكليز والنمسا مع الدولة العثمانية ضد المصريين. وحضرت مراكبهم لبحر بيروت مع مراكب عثمانية . كذلك حضر مراكب فرنساوية وهي غير متحدة مع المذكورين . وكان الظاهر لدولة مصر ان فرانسا تدافع معها ولذلك توقف المصريون عن القبول فيما اعرض عليها قبوله بان بلاد مصر تكون لذرية محمد علي باشا بالتوارث للارشد منها مع الاستقلال بسياستها الداخلية ويدفع عنها للدولة ستون الف كيس سنوياً وتكون عساكره ومراكبه الحربية عدداً معيناً لا تزيد عنه وان بر الشام يبقى بيده مدة حياته فقط . وما خلاهما مما بيده يتركه للدولة كالحجاز وكريت . وانه ان لم يرتضي بذلك لمضي عشرة ايام توخذ من يده بر الشام ويبقوا له بلاد مصر . ثم يمهل عشرة ايام أخرى فاذا لم يرتضي فتوخذ منه بلاد مصر . فمحمد علي باشا لثقته بمواعيد فرانسا بمساعدته تمنع عن قبول ما تقدم .

واما ابراهيم باشا عندما تحقق عنده عصاوة جبل كسروان بتدبير السنيور وود وانه استحضر لمعونتهم الامير خنجر الحرفوش المأخوذة من عيلته بلاد بعلبك وكان من الفرسان الشهيرين بالشجاعة والبطش وقيل انه كان معهم مدبرون للمحاربة من رجال الانكليز . فابراهيم باشا توجه اليهم باثني عشر الف عسكري

نظامي مشاة وابقى شريف باشا حاكماً بدمشق وان يحجز قناصل الانكليز والنمسا في بيوتهم اذا وقع حرب من دولهم ضد المصريين ولا يمكنهم من مواجهة احد . وارسل يوحنا بك البحري يقيم عند الامير بشير في سرايته (١٣٤) وان الامير يرسل حفيده الامير مجيد الشجاع لمرافقته . فبوصول ابراهيم باشا للجبل صحبة العساكر قابلته الرجال ووقع الحرب. فانكسرت عساكر مصر مراراً في جملة ايام ولم تظفر بواحدة . فقنصل الانكليز بالشام مستر وود ارسل روفائيل مشاقه سراً لعند الامير يخبره عن قرار الدول المتحدة وان الاوفق له تقديم الاطاعة للدولة . فتوجه روفائيل المذكور وقرر رسالته . كذلك حضر للامير طلباً سرياً ان يرسل من قبله معتمداً لمواجهة الكومودور نبير في ميناء بيروت . فارسل اليه ابراهيم مشاقه سراً عن طريق صيدا ومنها توجه بحراً لعند الكومودور نبير . وبعد المكالمة اللازمة رجع لعند الامير عن طريق صيدا وذلك خفية عن بحري بك المقيم في بتدين لمراقبة اعمال الامير الذي تقرر لديه ما فهمه المعتمد من الكومودور الذي من جملة كلامه يا ابراهيم اخبر اميركم ان سوريا هي الان تحت رحمة جناح قبعي هذا فلا يغرر بنفسه والمصريون لا بد من اخراجهم منها حتماً .

فعندما محمد علي باشا رفض قبول العهد المتقدمة له صدر الامر باخراج المصريين من سوريا بقوة السلاح. وقبل ضرب بيروت رجع بحري بك لدمشق وكان الحكم يقتل كل من قالوا عنه انه تكلم شيئاً بخصوص امور الحرب الواقعة . وفي احدى الليالي حضر لعندي ليسهر السنيور مرلاتو قنصل النمسا وجر الكلام الى حضور المراكب على بيروت. فقلت له انها عملت الاوفق لها فتوضع يدها اولا على المحلات الضعيفة ثم اخيراً تحاصر عكه فيكون عندها زمان لفتحها . فقال اتظن هكذا اجبته ليس وحدي بل الجميع يظنون ذلك . قال ان حضورها اولا لكثرة تجارة الاجانب فيها لربما يقع عليها حادث يضرها . وماذا تظن احتمال عكه حرب الانكليز . اجبته ان ابراهيم باشا حاربها سبعة اشهر مع ان الذي كان داخلها ضعيفاً . فالان الذي داخلها قوياً . وزاد في تحصينها فنحسب زيادة قوة الانكليز عن قوة المصريين بمقابلة زيادة قوتها عما مضى . فضحك وقال مسكينة هي الدولة التي تقع تحت غضب دولة الانكليز . اجبته ان عكة حصينة جداً وابراهيم باشا زاد في تحصينها قال انا اعرفها جيداً من بعد تحصينها فصارت تحتمل حرب الانكليز ست ساعات لا غير . وكان عندي بالسهرة رجلاً من انسباء بحري بك وهو صديق لي قد سمع كلما حصل فاحتسبت من بلوغ الخبر للحكومة من غيري. فعند انفضاض السهرة طلبت من صديقي هذا

ان يتوجه حالاً لعند بحري بك ويخبره عن لساني بكلما جرى فتوجه . وعند الصباح حضر لعندي رسولاً يطلبني لمقابلة بحري بك فتوجهت فقال لي حضر فلان واخبرني عن لسانك عن كلام قنصل النمسا معك فاريد ان اتحققه منك ليلا يكون وقع زيادة او نقصان . فقصيت عليه الواقع قال اريد منك تستخبر منه هل ان الانكليز والنمسا يحاربون مع مراكب الدولة وتفيدني باسرع ما يمكنك . اجبته ان القنصل المذكور لا يسهر عندي دايماً واذا توجهت لعنده بهذا السوال فربما يفتكر افكاراً تمنعه عن الاخبار بالحقيقة فارجوك تمهلني حتى افتكر بالطريق الاوفق . ففي العشية حضر القنصل لعندي وكان حضوره في ليلتين متواليتين نادراً جداً . فعند الخطاب قلت له (١٣٥) انني لم ازل افتكر بقولك ان عكة توخذ بست ساعات فما ترى هل وجود المراكب هو لصيانة مال الاجانب في بيروت كما ذكرت حضرتك ليلة امس ويحفظون الحيادة ام يضربون مع المراكب العثمانية . قال ما حضر الانكليز والنمسا الا ليضربوا اما الفرنساوي فيحفظ الحيادة . وعند الصباح توجهت لعند بحري بك واخبرته بما حصل فظهر منه مزيد الكدر واستعاد كلامي فاعدته . فكان كلامه الله يجازي الفرنساوي اذا كان يحفظ الحيادة لانه بذلك يخرب بيت افندينا ولولا مواعيده بالمساعدة لما كان افندينا يخالف راي الانكليز ويجعله خصماً . اجبته ان بونابارته الذي ازعج ملوك الارض عجز عن عكة وكانت بسور واحد وداخلها جزار باشا بالكاد تكون مقدرته تساوي طابور واحد من العسكر المصري الذي عساكر السلطنة الكثيرة ما قدرت على الثبوت امام القليل منه . فالان عكه صارت ذات سورين وزاد تحصينها مراراً عن الاول والذي داخلها عسكر ابراهيم باشا وليس عسكر الجزار الضعيف قال ان بونابارته الذي اعجزه عن فتح عكه ليس هو حصانتها بل قوة الانكليز التي اتت ضده وزاد عليه انقلاب جمهورية فرانسه عليه وقطعت عنه الامداد وتعمدت اهلاكه بهذه البلاد فاضطر للقيام عن عكه والا فما هي عكة وما كان اعظم منها بالنسبة لاقتدار الملوك العظام . فلو كانت قوة الاتراك وحدها هي المتوجهة ضد افندينا فلا يبالي بها مهما كثرت عدداً وعُدداً وسمعت منه مراراً انه نظر شجاعة نساء المورة في حروبه اكثر من شجاعة الاتراك وانت شاهدت بعينك حربه بحمص كيف كان الجمهور الكثير منهم يهرب من وجه القليل من العسكر المصري. ولكن ما كفانا الاهتمام بمدافعة العدو القادم علينا من خارج حتى اننا صرنا مضطرين لمقاومة موارنة شمالي لبنان الجاحدين لمعروف الدولة المصرية مع النصارى . حينئذ قلت له اتسمح لي ان اتكلم بالحرية بدون

خشية او ابقى صامتاً . اجابني بل ارغب ان تتكلم بكل حرية عن كلما يلوح بفكرك وبالاخص عن احوال جبل لبنان وماذا يصلح فسادها لانه اذا كان لبنان معنا فهو الحصن لنا باكثر من عكة وبما انك تعرفه جيداً لا بد تعرف ما يفسده وما يصلحه . اجبته انه من القواعد المقررة بالتجربة ان المغتصب لبلاد اذا لم يحسن سياستها واحدث عليها غير المألوف عندهم فلا بد ان تصير ليد غيره كما صارت ليده .

اولاً ان لبنان كان يدفع لخزينة الولاية في كل سنة الف وثلاثماية كيس فوضعتم عليه زيادة بكل سنة اربعة آلاف كيس ودايماً تطلبون منه رجالاً لمعونتكم وقت الحروب بدون اجرة يتعطلون فيها عن اشغالهم لمعيشة عيالهم ويقتل منهم كثيرين فتترمل نساءهم ويتيتم اطفالهم ويخسرون واسطة معيشتهم ولا يعتاضوا عن ذلك بشيء غير الجوع والعرى والنوح والبكا . هذا وانهم بحالة فقر شديد وليس افقر منهم بجميع بلاد سوريا . نعم ان لبنان يخرج منه حرير من الالف الى الالف وخمساية قنطار ولكن هذه اكثرها من املاك الامراء والمشايخ والرهبنات واهالي المدن كبيروت وطرابلس . فالاهالي (١٣٦) يبقى لهم القليل من حاصلات الجبل وهم نحو ثلثماية الف نسمة وليس عندهم اراضي لزرع الحبوب لاجل ماكولاتهم فيضطرون لمشتراها من الخارج وحاصلاتهم من الحرير وغيره يذهب ثمنها بثمن الحبوب لان جميع صافي اراضيهم اذا طرحت منها الصخور لا يبقى منها ارضاً صالحة تساوي اراضي قرية واحدة من بلاد الشام او حمص وحماه . ولذلك ترى جانباً منهم يعيشون من الخدمة عند الامراء ومن الدخول في الرهبنات او في زمرة الخوارنة ليعيشوا من خدمة الرعية بالروحانيات وقسم اخر يتغرب عن بلاده ليخدم عند سكان المدن وقسم كبير من رجال عواجز مع نساء واولاد يجولون على بيوت المدن يتسولون ولو كسرة خبز لسدد جوعهم . فلا ترى مدينة الا مزدحمة بهولاء اللبنانيين من حدود حلب الى مصر .

ثانياً اي صاحب عشيرة ابقيتموه مرتاحاً على عادته ولم تهينوه وتنزعوا بلاده من يده . واخذتم لجانب خزينتكم الذي كان يفيض له منها ويصرفه على اهاليها . نعم ان الامير بشير فقط بقي على لبنان كعادته بامر خصوصي من محمد علي باشا ولكن بعد ان رتبتم على فقراء بلاده اربعة آلاف كيس سنوياً زيادة عن المرتب قبلاً حتى بلغ المطلوب نحو ثلاثة مرات عن عادته . وما كفى هذا حتى تماديتم عليه باعمال تهين شرف اسمه المعتبر عند جميع سكان سوريا بطلبكم منه تسليم الملتجين اليه لكي يتوسط عندكم الرافة عليهم . فلما ارسلهم اليكم بدلاً عن قبول

رجاه قطعتم رؤوسهم .

ثالثاً ان سوريا لم تعتاد على العبودية كاهالي مصر المعتادين عليها من زمن الفراعنة بل قد نشأوا على الحرية وايتلفوا على العوايد العشايرية فلا يرضخوا للعبودية بزمن قصير . فقد اسرعتم الى استعبادهم باخذ اولادهم للعسكرية وبدون عمل مدة لنهاية خدمتهم . فالماخوذ ابنه يعرف انه لا يرجع اليه الا اذا صار لا ينفع للعمل من تعطيل جسمه بالحروب هذا اذا نجا من القتل بسبب دوامها . وخلا هذا فانهم ياخذون الوحيد لاهله ولا يراعون عجز والديه ولا صغر اطفاله وشدة احتياجهم له . فهذه القضايا التي ذكرتها كفاية لنفور القلوب. فقط الذين لا تمسهم الاضرار منها كالتجار الذين ليس لهم اولاد يليقون للعسكرية وما شاكلهم يرغبون دوام الحكومة المصرية لضبط احكامها وتحصيل الحقوق وايجاد الامنية داخلا وخارجاً .

فاما جبل لبنان الشمالي هذا من قبل استيلاء المصريين على سوريا دايماً يميل لمقاومة الامير بشير وفي سنة ١٢٣٦ الموافقة سنة ١٨٢١ قاموا ضده بفتنة جسيمة وكان الاكليروس يعضدهم والبطريرك يصمت عنهم خصوصاً بمدة البطريرك يوسف حبيش . فقال بحري بك ومن اين تعلم ان البطرك لا يميل للامير حال كونه من طايفته . اجبته هذا اعرفه من قبل دخوله بالزمرة الكنايسية وكان اسمه الشيخ يعقوب من بيت حبيش احد البيوت المعتبرة في كسروان . ولعلمه الكنايسي ترقى لما صار(١٣٧)اليه . ففي سنة١٨١١ او بقربها كنت اتعلم صناعة عند اولاد فرنسيس باز الذي قتل الامير عميهم جرجس وعبدالاحد . فكان الشيخ يعقوب يقيم في دير القمر مدداً طويلة للمرافعة بالشريعة عند الشيخ شرف الدين القاضي مع خصم له اسمه الشيخ شمسين اظنه من بيت الخازن حزب الشيخ بشير جنبلاط . وكان الشيخ يعقوب اكثر اوقاته يمضيها عند اولاد باز المذكورين يتذاكر مع احدهم بعلوم اللغة . فكان ينسب عدم نجاح دعواه لرغبة الامير في اذيته بكلام يفصح عن عظم كراهيته للامير وعن حقده عليه . وهذا كان بمسمعي من فمه . وكونه اشقر حد الطباع فلا اظن ان للملابس الكنايسية خواصاً في تغييرها غاية ما يقال في خواصها الميل لحب الرياسة . فكان صاحب درجة روحية يقابل مماثلتها من الدرجات الزمنية . فالضرورة ان بطريركية لبنان تقابل امريته . فالامير بشير لم يكن من الذين يطلقون العنان للروساء الروحيين ان يتخطوا دايرة حدودهم الروحية ويتداخلوا في حدود الاحكام الزمنية . فكان ذلك موجباً لعدم رضاهم منه .

واما جنوبي لبنان اذا لم يتدارك امره فتمتد اليه العدوى من شماليه لان الموارنة فيه نحو نصف اهاليه وهم اشد رجال موارنة الجبل والمشايخ التي تربطهم مع الدروز حتى يكونوا يد واحدة هم جنبلاط وعماد ونكد المنفيون لمصر. فاذا تطيبت خواطرهم وارجعوا لمحلاتهم مسرورين فبواسطتهم يثبت الجنوب ويخشاهم الشمال . فهذا الذي اظنه وربما يكون غلطاً . اجابني وانا ايضاً اظن هذا بان الاوفق هو احضار المشايخ .

ثم ان المراكب ضربت بيروت واستولت عليها فورد امر ابراهيم باشا لشريف باشا بان يحجز على قنصلي الانكليز والنمسا في بيوتهما ويضع خفراء من العسكر على ابوابهما . وبعد ايام ورد تحرير لشريف باشا من ابراهيم باشا يقول له ان بيت قنصل الانكليز له باب ثاني فما المنفعة من الخفر على الواحد منهما . وكان ذلك صحيحاً . وكانت المكالمات مع دروز حوران تتم بواسطة الترجمان عندي. وهكذا ما يلزم لقونسلاتو الانكليز من المكالمات وتوزيع الاعلانات اتمم كلما يلزم سراً ليس بكراهة للمصريين ولا رغبة بالاتراك بل للسلوك بحسب سلوك مأمور الدولة المنتمي انا اليها . فعندما كانت تساعد المصريين كنت اسلك كمرغوبها . وعندما ساعدت الاتراك مشيت في طريقها . وفي كلتا الطريقين ابتعد جهدي عن الوقوع في وهدة الاضرار الشخصية لا بل اجتهد بمساعدة المصاب ما امكنني .

ثم حق الفشل على العساكر المصرية حيث تساعدت رجال كسروان برجال ومهمات حربيـــة والعسكر المصري اعتراه الملل وصغر النفس من مواصلة الحروب وهلاك الرجال وصار كارهاً لدولته . فعندما نظر ابراهيم باشا تاخير عسكره في جميع المواقع خرج فيه لزحله غربي البقاع وبقي منتظراً ان يطمع خصمه فيه فيلحقه وهناك ارضاً سهلة تلايم الحركات العسكرية فيفتك بالخصم . ولكن اهالي الجبل لا يقابلون عسكراً في ارض سهلة ويكتفون بما حصلوا عليه بخروج العسكر من ارضهم . (١٣٨)

وفي مدة محاربته في الجبل استولت الدولة على مدينة صيدا وتوجه الامر منها للامير بشير بالامان بان ينزل لصيدا في يوم عينوه له لكي يفوضوا له احكام الجبل . فحالاً ارسل لحفيده الامير مجيد ان يتخلص من معسكر ابراهيم باشا وياتي اليه بكل سرعة . وافهم اندراوس مشاقه ان يضبط له كمية النقدية الموجودة عنده في دار الحريم . فوجدت ثمانية آلاف وثلاثماية وسبعون كيساً التي تساوي بوقتها نحو اربعة وستين الف ليرة فرنساوية . فامره ان الثمانية آلاف كيس يضعها

في اكياس مع كتابة بعلم كمياتها ويضعها في صندوق وياتيه بمفتاحه . فعمل كامره وقال له فماذا تفعل بباقي الدراهم . قال تبقى خارجاً لترسلها الى البطرك . اجاب ان سيدنا البطرك ليس هو الان محتاج وهي تلزمك اكثر . فتنهد الامير وقال الارسال للبطرك الان يلزمني اكثر من جميع معارفي (هذا يوضح عدم اركانه فيه) . اما الامير مجيد حالما بلغه امر جده احتال بالتخلص من معسكر المصريين ولم يقدر على الوصول لعند جده الا باليوم الذي يلزم الامير ان يكون وصوله فيه لصيدا . ولا يمكنه النزول قبل تملص حفيده ليلا ابراهيم باشا يغتاظ فيقتله . فثاني يوم نزل الامير الى صيدا بجميع اولاده واحفاده . وخرج خالد باشا بالعساكر للقايه واجرى له مزيد الاعتبار وحرر لبيروت عن وصول الامير لصيدا . فاجابوا بطلبه لعندهم . فتوجه كطلبهم . ولدى المواجهة لاموه على يوم عاقته ولم يقبلوا عذره وخيروه بالاقامة في اي محل اراده عدا سوريا وفرانسا. فاختار الانكليز في مالطه واعطوه فسحة لترتيب اموره . فرتبها والبطرك ارسل اليه الخوري نقولا مراد يكون برفقته لاجل الخدمة الروحية (وبالاحرى ليكون جاسوساً على اعمال الامير ويخبره عنها) . فتوجه الامير بكامل عيلته وخدامه اللازمين وابينا الخوري نقولا الى مالطه واقاموا بها .

واما لبنان فولوا عليه الامير بشير القاسم المذكور قبلا. وهو ضعيف التدبير بادارة الاحكام وهكذا مرغوب فيه من امراء البلاد ومشايخها ومن البطاركة والمطارين حتى من الولاة لانه لا يقدر على معارضتهم في انفاذ مرغوباتهم ولا يهمهم صالح العموم لان ضعفه يقوي سلطانهم ويضعف الرعية عن مقاومة مطامعهم التي كان لا يمكنهم منها الامير بشير السابق المنعوت بالكبير. وقد شوهد للعيان ما صارت اليه اعيان لبنان واهاليه من بعده فوصفوه قبلا بانه اضعف كبرايهم وسفك كثيراً من دمايهم ودماء الرعية ولكنهم لم يبرهنوا على معاملة شخص واحد من هولاء بغير واجبات الاحكام وهل ان حالة كبراء البلاد عموماً هي الان افضل مما كانت قبلا وهل ان الذين قتلوا بمدة حكمه باكثر من نصف جيل فحال كونه قتلهم عدلاً فهل يبلغون عدد ما كان يقتل ظلماً بيوم واحد وبلدة واحدة من بعد مفارقته لبنان . فالمنصف يعمل هذه المقايسة .

ان ابراهيم باشا بقي في زحلة بالعساكر كما تقدم الكلام . ففي يوم شاع في دمشق ان فردوس بك حضر لعند اخوته بدمشق . فالمذكور هو ابن علي اغا مملوك ناصيف باشا العظم الذي كان مع الصدر الاعظم بمحاربة الفرنساوية بمصر سنة ١٨٠١ . وتزوج علي اغا بابنته وله منها بنين وبنات قد تزوج شريف باشا

بواحدة منهن . وفردوس (١٣٩) بك كان مع عساكر السلطان . ففي يوم طلبني بحري بك وسألني هل علمت بقدوم فردوس بك لدمشق وسلمت عليه . اجبت سمعت بقدومه وصادفت في احد البيوت اخاه عاكف بك وسالته عنه اخبرني انه حضر لبيروت وليس للشام . قال ان القول هو حضوره لدمشق وانه مختف في بيتهم . واريد الوقوف على الحقيقة . فكونهم اصحابك وانت طبيب فتدخل جميع البيوت ارغب منك تحقيق الشايع . فانا كنت متحقق حضور المذكور عن طريق حاصبيا لعند الامير سعد الدين وطلب منه اناس توصله لدمشق بالامنية . فالبسوه ملابس الجبل وارسل معه اخيه الامير خليل اوصله لابواب دمشق ورجع . ولكن كيف ارتضي ان اجعل نفسي وسيطاً للقبض على انسان غالباً يقتلونه . فجاوبته ان البكاوات المذكورين هم اصدقاي واتردد عليهم ولكن لا ادخل لدار الحريم لاني لست طبيبهم حتى الطبيب لا يدخل دار الحريم الا اذا طلبوه. قال ومن هو طبيبهم اجبته روقان صيدح الذي تريد ان تزوج ابن اخيك بابنته. فاقتنع مني بذلك .

ثم كان لدمشق حاكماً خصوصياً يدعى متسلماً وهو حافظ بك ابن عبد الله باشا العظم الذي عزل عن ولاية الشام بوقت استيلاء الوهابي على الحجاز وانقطاع طريق الحج . فالبك المرقوم كان من الصادقين بخدمة الحكم المصري. وهو من اقرباء فردوس بك . فحقق لبحري بك ان فردوس بك حضر لدمشق الشام واجتمع في بيته سراً مع شريف باشا ورجع لبيروت. فيلزم اعراضك بذلك لافندينا ابراهيم باشا . اجابه اذ ذلك مناسب ولكن يلزمني الوقوف على برهان لكي تدافع به عند الانكار. قال مناسب. هلم نتغدى سوية في بيتي وهناك ترى حقيقة الواقعة . فتوجه معه وبعد الطعام ادخل بحري بك لمخدع ضمن حجرته مسدول ستاراً على بابه . واستحضر ولداً لاخي فردوس بك وسأله عمك فردوس في اي وقت يخرج من الحريم حتى اتوجه لعنده . اجابه عمي سافر منذ ثلاثة ايام ما تعوق عندنا غير يومين. قال له اذا ما صبر لمواجهة صهركم شريف باشا قال الباشا حضر لعنده ثاني ليلة وسهروا وحدهم في القصر وبالليلة القادمة عمي سافر . وبعد هذا الكلام اصرفه وقال لبحري بك هل بقي عندك شك اجابه كلا ولكن هذه القضية اجعل بان ما عندك خبرها حتى تقف على خاطر ابراهيم باشا وتسلك حسب ارادته . فبحري بك لا يمكنه كتمان ذلك عن ابراهيم باشا رعاية لصدق الخدمة وجوباً ثم لحماية نفسه من الخطر عندما يبلغ الخبر لابراهيم باشا من حافظ بك ان بحري بك تحقق القضية ولم يعرضها له . ولكنه يخشى منه

ان يبطش بشريف باشا الذي هو خاص صديق له لانه تهذب بالمصالح عند عبود البحري بمعية بحري بك سوية . فالذي حصلته من معرفة التدبير الذي حصل بهذه القضية للتخلص من بطش ابراهيم باشا ان بحري بك اجتمع بشريف باشا وقص عليه الواقعة وقال له صارت حياتك تحت الخطر فان هربت ربما لا تنفد وتفقد جميع اموالك واملاكك . واذا انا كتمت الخبر عن ابراهيم باشا فلا يكتمه عنه الذي اباحه لي وحينئذ يحسبني خاينا ويهلكني معك . فاتفقا على العمل الآتي بيانه. ان بحري بك حرر لابراهيم باشا سراً بان يطلبه لعنده بتحرير منه لشريف باشا . فورد التعريف لشريف باشا انه مقتضي المذاكرة معكم بقضية مهمة الحال الحاضرة لا تسمح بخروجكم من دمشق فلذلك ترسلوا الينا بحري بك للمذاكرة معه . فشريف باشا اطلع بحري بك على الامر فتوجه سريعاً وقرر لابراهيم باشا ما وقف عليه من اعمال شريف (١٤٠) باشا . فاشتاط غيظاً وقال يلزمه القتل . اجابه نعم ولكن يلزمنا ان ننظر الى العواقب قبل الشروع بالاعمال فان ارخصت لي التكلم فاتكلم . فارخص له فشرع بحري بك قايلا ان شريف باشا لم يكن غريباً عنكم بل هو من انسبايكم وقد ربيتموه واحسنتم عليه ورفعتم قدره ومعاشه السنوي على طرف الخزينة ثلاثة آلاف كيس حال كون السلطنة لا تعطي لمن كان برتبته غير خمسة آلاف غرش شهرياً وصار له ملكاً من العقارات بالاقليم المصري والشامي ما لا يعد . وزاد على هذا جعلتموه حكمداراً على اقليم سوريا الوظيفة التي لا يوجد اعظم منها . فهذا الشخص اذا لم يحفظ الامانة نحوكم فهل يرجى حفظها من الباشاوات وما دونهم الذين بخدمتكم حال كونهم ليس لهم معكم قرابة ولا هم حاصلون على شيء بالنسبة لما حاصل عليه شريف باشا . واذا كانت اخصامكم احتالت وافسدت عليكم اعقل من تركنون لصداقته من انسبايكم المغمور باحسانكم وليس عنده قوة عسكرية يرجونها او يتقونها فهل نومن بانهم لم يحتالوا على افساد روساء عساكرنا الذين يرجونهم ويتقونهم . فالان اذا قتلت شريف باشا نخشى ان يكون له امثال في روساء العساكر فينفروا وتقوم الفتنة في عسكرنا ويتقوى الخصم علينا . فالان الاوفق نزولك الى دمشق بالعساكر وهناك تعمل ما تراه موافقاً . فابراهيم باشا اعجبه راي بحري بك ونزل لدمشق وابتدت عساكره تجتمع اليها من جميع الجهات.

ان قنصل الانكليز وقنصل النمسا صار اخراجها من دمشق وايصالها بالامنية لايالة صيدا . ثم ان مراكب الانكليز والنمسا والعثمانية اتوا على عكه

وحاربوها وتيسر لهم امتلاكها بالقوة الجبرية بمدة ثلاثة ساعات وثلث. وقد ساعد على سرعة افتتاحها صناديق كثيرة من البارود وردت من مصر فلم يسارعوا لتخزينها بل بقيت تحت الجو بين السورين فوقع عليها وقت الحرب كرة قنبرة فاشعلتها وكان لذلك فعلاً مدهشاً اوجب هروبة العسكر الذي داخل عكة ولم يبق لها محام فحصل الاستيلاء عليها . وعندما خلت السواحل من العسكر المصري استولت الدولة على البرور المحيطة بالساحل بغير محاربة . كذلك استولت على البقاع وبعلبك عندما ابراهيم باشا قام بعساكره من زحلة لدمشق . ثم الامير سعد الدين الشهابي توجه لعند خالد باشا في صيدا واحضر سلاحاً لرجال حاصبيا كون المصريين اخذوا سلاحهم .

ان احمد اغا اليوسف الكردي المتقدم ذكره فوضوا اليه حكومة دمشق واصحبوه بعساكر لكي يطرد ابراهيم باشا منها ويستولي عليها . فحضر لقرية سعسع غربي دمشق بعيد عنها نحو عشرين ميلا. فبلغ خبره لابراهيم باشا ليلا وكان ظلام وامطار غزيرة فنهض اليه حالا واصحب معه بعض عساكر ومدفعين حتى قابله ووقع القتال. وكانت النصرة لابراهيم باشا واوليك تشتتوا منهزمين. فرجع ابراهيم باشا عنه بعساكره لدمشق . ثم حضر احمد اغا اليوسف برجاله اقام في قرية البطرونه خاصة نواحي الزبداني بعيد عن دمشق نحو خمسة وعشرين ميلا منتظراً قيام ابراهيم باشا منها فيدخلها . (١٤١) ثم ابراهيم باشا عقد مجلساً من باشاوات وامراء عساكره وشريف باشا وبحري بك الذي صارت عليه الدعوى اولا من ابراهيم باشا بكونه خاينا بانه وردت الافادة من بيروت عن مكاتبته للاعداء . فبحري بك انكر ذلك فطلب المجلس برهاناً على صدق الدعوى اما كتابة بامضاء بحري بك اما دليلا كافياً لاثبات الدعوى. فابراهيم باشا اجاب ان الكتابة تحت امضايه لا يمكن الاعداء ان يسلموها لنا واما الدليل الكافي هو ان بحري بك استاجر بيتاً لعياله في محلة النصارى لسكناهم . فلولا أيمانه جانب الاعدا لم يفعل ذلك. فطلب الجواب عن ذلك من بحري بك فقرر بما انه الان الفصل بارد جداً وعندي اطفال وحريم ناقل بالشهر الثامن وكون اهلهم بدمشق فالتمست من افندينا اذا كان يسمح بابقايهم عند اهلهم فسمح وابرز من يده مرسوم الاذن من ابراهيم باشا وقال انني مع ذلك اذا شاء افندينا الرجوع بالاذن فاحمل عيالي معي ولو هلكوا بالطريق . فلو كان لي اتصال مع الاعدا فما كنت اقدم غلالي للعسكر واستحول بثمنها على خزينة مصر وابرز من يده ورقة الحوالة . حينئذ حكم المجلس ببراءته. وغالباً كانت الدعوى عن تواطء بينهما لغاية ما . ثم قدم ابراهيم

باشا الدعوى على شريف باشا بالخيانة . فتكلم بحري بك بالمحاماة عنه فزجره ابراهيم باشا بقوله ان هذا لايخصك وحضورك هو للمحاكمة لا للمحاماه فصمت. فشريف باشا انكر الدعوى . فقال ابراهيم باشا اني امرتك بوضع الخفر على قنصل الانكليز والمنع عن اجتماعه بالناس فتركت له باباً يدخل منه من يريده. فاذا كان بلغني خبر ذلك الى جبل لبنان وانت مقيم بدمشق افلا تبلغك اخبارها. فهذا لا يمكن خلا ذلك حضور فردوس بك اخو زمجتك من طرف الاعداء واجتماعك عليه في بيته . افما كان يلزم ان تقبض عليه . اجاب شريف باشا ان فردوس بك لم يحضر وذهابي لبيتهم ليلاً كان لزيارة اهل زوجتي كعادة الناس في ليالي رمضان . اجابه ابراهيم باشا هل شاع بدمشق حضور فردوس بك اليها ام لم يشع. جاوب شريف باشا نعم قد شاع. اجاب ابراهيم باشا ان عدم فحصك عنه وعدم اخبارك لي عما شاع خبره مما يثبت معرفتك بحضوره وتعمدك كتمان ذلك لغاية تقصدها . فالمجلس صادق على ذلك . ثم قال ابراهيم باشا ان الذي يبرهن اتفاقك مع الاعداء هو قصد ابقاء جميع نسايك بدمشق وارخصت لك بان تبقي زوجتك الدمشقية عند اهلها واما البقية كونهم من حرم والدي فتاخذهم معك فما ارتضيت الا بابقاء الجميع الذين ليس لهم علاقة بهذه البلاد . كذلك بسبب اجتماع عساكرنا بدمشق حصلنا على احتياج الحبوب لماكولات العسكر وعلف الخيل والبغال والجمال فجميع الذين عندهم غلال من تبعتنا قدموها لنا واخذوا باثمانها تحاويل على خزينة مصر وصدرت (١٤٢) الاوامر تحت ختمك لجميع قرايا الشام ان يقدموا الغلال بالثمن وان الذي يخزنها قصاصه القتل . وقد توجهت بنفسي للقرايا ووجدت في بعضها مخازن غلة فشنقت اثنان من اصحابها وانت عندك مبالغ كذا من الغلال مخزونة في المحل الفلاني والفلاني لم تقدمها فهل تريد ان تبقيها غنيمة لاعدائنا ام بالحري لايتمانك منهم . فشريف باشا لم يكن عنده براهين كافية لدفع الدعوى. فصدر امر ابراهيم باشا باخذ سيفه وان يحتفظ عليه في قشلة العسكر عند احد اركان الحرب مصطفى باشا ويمنع جميع الناس عن مقابلته عدا عن بحري بك . فوضع ذلك بالعمل .

فابراهيم باشا تكررت عليه الاوامر من والده ان يسرع بالرجوع الى مصر. فعندما كمل اجتماع عساكره بدمشق مما كان بحلب وبر الترك وناف عددها عن السبعين الف صمم على القيام من دمشق . وبوقتها استدعاني بحري بك وقال لي ان اخي جرمانوس هو متقدم بالسن ولا يقدر على مشقة السفر لمصر براً بهذه الايام الشديدة البرد الكثيرة الامطار فيلزم تخفيه عندك مع ولده الصغير لحينما

تروق احوال البلد التي ربما يحصل بها اختباط غب خروجنا منها . والذي قادم حاكماً على البلد احمد آغا اليوسف هو من خاص اصدقايك فتعمل بواسطته راحة اخي وعيلته التي انت طبيبها . فليلة سادس ذي القعدة سنة ١٢٥٦ الذي يخرجون فيه المصريون من دمشق ففي الظلام استحضرت لعندي الخواجه جرمانوس وولده باسيلا واخفيتها عن الاعين مع شاب درزي من ابناء بلدي كان جاويشاً بالعسكر المصري. وعند الصباح ابتدا العسكر المصري بالخروج في طريق حوران الى قرب الغروب حتى لم يبق منه ومن عياله احد . فوقف ابراهيم باشا في باب السرايا وكان حوله اعيان دمشق يودعونه فالتفت اليهم قايلا احترسوا على المحافظة من امر يكدر راحة البلد لبينما يحضر لها حاكم فان حصل ادنى امر مغاير فارجع بنفسي واقتص منكم . فتعهدوا له بالمحافظة . فركب وتوجه بساقة عساكره .

فثاني يوم بقيت في بيتي حتى اتحقق حالة البلد لانها اصبحت بلا حاكم . فعند الظهر بلغني قتل شاباً نصراني وهو ابن الصيدناوي (خليل) . فالنصارى اوقعوا السبب في قتله على اليهود لان الذي قتله لم يكن بينهما معرفة سابقة وهو من جهلة اسلام الميدان . وسبب الظن باليهود لان المقتول كان يوذيهم في حادثة البادري توما فاقتصوا منه بتدبير مسلم يقتله .

ثم في اليوم الثالث دخل احمد اغا اليوسف لدمشق بجملة عساكر وتسلم الاحكام ونادى بالامنية وقتل اثنين من اشقياء الاكراد وكان يدور البلدة بنفسه حتى انه نظر بعض النصارى من الذين كانوا بمدة حكومة المصريين يلبسون العمايم البيضاء قد تعمموا بالسوداء خشية من (١٤٣) اهانة تصيبهم من جهلة المسلمين فنبه عليهم جهاراً ان يلبسوا كعادتهم وانه ينتقم ممن يعارضهم . فثاني يوم وصوله توجهت لعنده للسلام عليه والتبريك له بالوظيفة ثم اخبرته عن وجود الخواجه جرمانوس وابنه عندي وطلبت لهما الامنية فقال ان معروف بيت البحري معي ومع الجميع لا ينسى عند احد فلهم اسوة بنفسي وحالا سلمني ورقة امان سلطانية مطبوعة لتكون سنداً بيدهم من طرف السلطنة ذاتها . واسترخصت باحضارهم لعنده بالسهرة ورجعت بالورقة ودفعتها للخواجه جرمانوس وقررت له ما كان . فاطمأن ولكن اختشى من تعرض احد الاوباش له بالطريق . فالشيخ حمود نكد كان قبلا حضر لدمشق واقام مدة عندي اسعى امامه في مصالحه ثم اخذ لنفسه بيتاً واقام بدمشق . فاستحضرت اربعة من رجاله الاشدا متسلحين كل منهم يقاتل جمهوراً . وعندما فات الغروب توجهنا صحبة الخواجه جرمانوس ووجدنا احمد اغا ينتظرنا في دار الحريم . وقد احسن ملاقاة الخواجه المذكور

وقدم له الشربات والقهوة والدخان واجرى معه غاية الملاطفة وانه مستعد للقيام بكلما يكلفه اليه . فخرج من عنده شاكراً لمكارم اخلاقه .

ثم حضر لدمشق علو باشا الذي فرّ من وجه المصريين كون الولاية باقية عليه لان الدولة لا تعرف رسمياً ولاية المصريين على الشام . وبعد ايام ارسل بوظيفة لبلاد الحجاز وحضر للشام والياً نجيب باشا والد محمود نديم باشا الصدر الاسبق . فهذا كان بالاستانة قبوكتخدا محمد علي باشا ولذلك احضر الخواجه جرمانوس لمواجهته وقابله بمزيد الاعتبار .

فالسنيور وود كان مفوضاً من السلطنة بتدبير كلما يقتضي في البلاد الشامية والولاة ماموررن بالعمل حسب ارشاده بكل شيء . وكان في كتاباته الرسميه يضع امضائه ريجارد وود وكيل الدولة العلية . وبعده توجهت عليه قنصلية الانكليز بالشام وبقي مناظراً على اعمال الولاة بامر الدولة . وكلامه بحقهم ذماً او مدحاً مؤثراً عندها . وقد نبه على اثنين منهم بالعزل فعزلتهم الدولة حسب انهايه بحقهم . والبلاد الشامية من جميع الملل والمذاهب امراء ومشايخ وعلماء ورؤساء الاديان وعشاير العربان والرعايا قد احبته كثيراً لحسن تصرفاته مع الجميع . وقد اتخذني عنده بوظيفة ترجمان.

ولنرجع لذكر الامير بشير الكبير . فبعد اقامته في مالطه مع اولاده واحفاده والخوري نقولا مراد وبقية الاتباع توجه المعلم بطرس كرامه للاستانه ليسعى بمصلحة الامير لدى الباب العالي . وبعد مدة طلب لعنده الامير امين اصغر اولاد الامير واعقلهم . فتوجه لعنده وبعد مدة اوعدوه بارجاعهم لبلادهم اذا حضر والده من مالطه لعندهم . فحرر لوالده بذلك فحضر حالاً بمن معه وصار بانتظار مرحمة الدولة . وكان خليل باشا صهر السلطان حضر لبيروت لاجل ترتيب لبنان على الوجه الذي تريده الدولة فما تيسر له المرغوب فرجع للاستانة . ولم ينسب ذلك لقصور تدبيره او لعدم رضوخ اهالي لبنان لتغيير مألوفهم بل نسب لوجود الامير بالاستانه وبدون تحقيق صار نفيه معمن معه بغتة الى زعفران بول . وانزلوهم في البحر في يوم شديد الانواء فكاد البحر يبتلعهم ولكنهم وصلوا الى المنفى بالسلامة . ثم تبعهم الى غربتهم الشيخ حمود ابي نكد وبقي معهم لم يفارقهم لوفاته بالغربة عن اهله . وهناك توفي الامير قاسم اكبر اولاد الامير . وبعد مدة لم يظهر لنفيهم تاثيراً في احوال لبنان فصار ارجاعهم للاستانه (١٤٤) . ثم صارت الواسطة بان الدولة تعطي حكومة الجبل للامير امين وان الامير الكبير يبقى بالاستانه لبعد حضور ولده الى لبنان وتنظر استقامة اعماله فتاذن برجوع والده الى وطنه .

فالذي فهم ان الخوري نقولا مراد حالما اشعر بهذا التدبير حرر بذلك لمعلمه . وبالحال تحرر عرضحالاً للباب العالي مضمونه ما بلغهم من اعتماد الدولة بارسال الامير امين وانه اظلم من ابيه . وهو الذي كانت اعمال حكومة الجبل بيده واذا حضر فالبلاد تخرب . واكثروا الشكوى من الامير امين ومن ابيه وامضوا هذه الكتابة من جميع امراء ومشايخ واساقفة الطائفة المارونية وتقدم للدولة . اما في الاستانه كان انتهى الامر بارسال الامير امين وتوجه لعند وزير الصدارة رشيد باشا يستلم الاوامر بحكومته على لبنان فناوله الوزير العرض المتقدم ذكره ضده قايلاً له نحن رضيناك فماذا نعمل اذا كانوا اساقفتك وكبراء ملتك لا يريدوك . فخرج من عنده مأيوساً ثم بعد ايام تمسك بدين الاسلام قايلا انه من الغلط اتباع دين هذه حالة روسائه . وتبعه الامير مجيد والامير مسعود ابناء اخيه الامير قاسم واخيه الامير خليل الذي توفي بعد مدة حزيناً . وبعده باربعة اشهر توفي الامير امين مسلماً . وهكذا والدهم من شدة حزنه على اولاده وحالة عجزه توفي بدون مرض وعمره اربعة وثمانون سنة . والدولة احتفلت بجنازته ودفن بكنيسة الارمن الكاثوليك. وبعد ذلك رجعت عايلته لسوريا . والامير مجيد توفي مارونياً واما الامير مسعود فتوفي مسلماً . وسراية بيت الدين باعتها ارملة الامير للدولة بثمن بخس وصارت مركز متصرفية لبنان وانتهت حكومة الشهابيين . فسبحان الدايم الباقي .

واما الشيخ نعمان جنبلاط والشيخ خطار عماد والشيخ ناصيف نكد الذين كانوا بمصر ممنوعون عن الرجوع قد انعم عليهم محمد علي باشا برتبة ميرالاي واطلق عليهم لقب بك (حتى جميع مشايخ الجبل انتحلوا لانفسهم هذا اللقب الذي لا يتعدى لغير الملقب به الا في سلالة الوزراء) . ثم امرهم ان يرجعوا بمن صحبتهم لاوطانهم وربما كان ذلك لطلب من ابراهيم باشا ولكنهم لم يصلوا اليه الا بعد قيامه من سوريا ووصوله لمدينة غزة ووصول زكريا باشا بالعساكر السلطانية لمدينة يافا وحينئذ لم تبق لابراهيم باشا حاجة فيهم فحضروا ليافا ثم الى الجبل وكل منهم فرح رجاله بقدومه . فناصيف بك لاقوه وجوه دير القمر لخارج مدينة صيدا وحضروا به بالفرح والاغاني واطلاق البارود . وحيث بيوت المشايخ كانت مهدومة فبيت مشاقه كلفوه بان يكون ضيفاً عندهم لحينما يرتب اموره . فقبل التماسهم لانهم من اخص اصدقايه .

واما الشيخ سعيد جنبلاط الذي كان ضابطاً في عسكر المصريين النظامي فقبل خروج ابراهيم باشا من دمشق قد تملص خفية وتوجه الى بيته ووضع يده على جميع املاكهم المضبوطة لجانب الخزينة بمدة ولاية عبد الله باشا منذ سنة عشر

سنة . وحيث ان المال المربوط بدل حاصلاتها كان مضمون مع مال ميري لبنان فبقيت الخزينة تاخذ كلما لها من اموال لبنان ولم يضيع عليها شيئاً (١٤٤) .

وعندما ارادت الدولة ترتيب الاموال الاميرية على الجبل مثلما كانت اهاليه تدفعها للامير بشير الكبير فالدروز لم يعارضوا بذلك . واما نصارى كسروان ومن جاورهم او جاراهم وروسايهم قد عارضوا بهذه وادعوا متظلمين مما كان يوخذ منهم قبلاً وعملوا جمعيات متعددة يحضرها الوجوه ومطارنة من الطايفة المارونية للمكالمة بهذه القضية ولم يمكن الرضوخ لمرغوب الدولة واكثروا التشكي حتى عملوا للوزير والي الايالة مقايسة ايرادهم بانه يصفي لهم من ثمن اقة الحرير اثني عشر غرشاً لا غير مع انه لو جعلوهماية وعشرون غرشاً فلا يقبل قولهم حيث اقة الحرير كانت تباع باكثر من ذلك وكان الاوفق ان يعملوا المقايسة الصحيحة ويوضحوا عدد نفوس سكان الجبل انهم ثلثماية الف نسمة ليس لها سوى ثلث املاكه والثلثين هما في تملك الامراء والمشايخ واوقاف الرهبنات والبطاركة والمطارنة والكنايس ومعابد الدروز واكثرها معافاً من دفع الاموال الميرية والفقراء يتحملون اثقالها فلايبقى لهم من الايراد ما يكفي لمعاشهم الضروري. ولذلك يوجد الوف من اهالي الجبل يتسولون في المدن من شيوخ وعواجز ونساء واطفال والوف يشتغلون بالاجرة في حمل الاحجار والاتربة والاطيان في العماير والوف خادمون في بيوت وحوانيت اهالي المدن في سوريا وبلاد مصر وهذا جميعه لسبب عدم امكانهم تحصيل المعاش في اوطانهم لان ارض لبنان غير ممكن ان تكفي لمعيشة اهاليه ولو مهما اجتهدوا في اتقانها لان لبنان من حدود صيدا لقرب طرابلس طولا لا يزيد عن عشرين فرسخ فرنساوي وعرضاً من الدامور لراس الجبل الذي يفصله عن ارض البقاع نحو ثمانية فراسخ . فتكون مساحته تقريباً ماية وستون فرسخاً منها جرود كثيرة لا تعيش فيها الزروع عدا عن الصخور والاراضي المحجرة الغير قابلة لزرع شيء . وبالاجمال ان نصف لبنان لا يصلح لزرع شيء . فالنصف الباقي هو ثمانون فرسخاً فيخص الفرسخ ثلاثة الاف وسبعماية وخمسين نفساً من الاهالي . مع ان اراضي اوروبا المزدحمة بكثرة الاهالي لا يخص فرسخها منهم ربع الذي يخص ارض لبنان من اهاليه الذين هم ثلثماية الف نسمة . ومن المعلوم ان الفرسخ من الارض فمها اتقنت زراعته فلا يخرج منها ما يكفي لمعيشة الف نفس . فلهذا كان العموم من اهالي لبنان بالكاد يحصلون على اضيق عيشة فقرية . واما الخواص فمع اتساع املاكهم فلا تزيد ايراداتهم عن مصارفهم لا بل اكثرهم غارقون في بحر الديون التي يذهب نصف ايرادهم بدفع مرابحتها لتجار

المدن خارج لبنان . فكان خير للاهالي ان يبرهنوا للدولة حالة فقرهم وهي بلا شك كانت ترحمهم وتعمل وجهاً لراحتهم واصلاح احوالهم . ولكن سياسة كبرايهم لا تسمح الا باظهار القوة امام الدولة لتخشى بطشهم . وبهذه السياسة التي لا توافق عصرنا جعلوا الدولة تكره اهالي لبنان واجلبوا على اهاليه الفقرا المصايب المترادفة لا بل على انفسهم ايضاً . فكانوا مستقلون باحكام بلادهم فصاروا (١٤٦) ينزلون عن مراتبهم تدريجاً الى ان هبطوا لدرجة الرعايا. نعم انه لم يزل منهم اشخاص يتولجون بالوظايف كقيمقام ومدير ولكن هذه الوظايف لم تبق تعطيهم امتيازاً عن الرعايا كالسابق حيث انها تعطي ايضاً لمن يستحقها من الرعايا فصار الامير والشيخ والاصناف بمنزلة واحدة بالنصب والعزل . وهكذا المعاملة بكلما كان فيه الامتياز لكبراء لبنان فقد ألغي . ثم لم يكتفوا ارباب تلك الجمعية بالتشكي والمقايسة الفاسدة التي عملوها حتى حرروا اعراضاً للدولة في تشكياتهم . ومن جملة ما حرروه ان مال الجزية يتوجب دفعه على من يحتاج لحماية الدولة واما هم لا يحتاجون اليها لا بل انهم يحمون جوارهم وقدموه الى الوالي لكي يقدمه للدولة. اما هو فقد نصحهم ان يسترجعوه وراجعهم بذلك مراراً فما زادهم الا غروراً واستكباراً فالتزم الوالي لتقديمه . فعندما اطلعني بعضهم على مضمون المعروض تكدرت جداً . فسألني عن سبب كدري اجبته ليس ذلك من الشكوى بعدم المقدرة على دفع الاموال الاميرية المطلوبة عن الاراضي لان الرعايا يحق لها ان تشكي لولي امرها من ثقلها وهو ملتزم ذمة ان يعاملها حسب درجة احتمالها . ولكن قضية الجزية لا يسوغ التوقف عن دفعها اولا لوجوب دفعها ديانة لان السيد المسيح قد آمر بدفعها واعطاها عن نفسه لقيصر ثانياً اذ الاسلام عندما استولوا على سوريا عاهدوا النصارى على دفع الجزية فاذا امتنعوا من دفعها تنقض ذمتهم ويجب على ذمة السلطان محاربتهم شرعاً . فامتناع اللبنانيين عن دفع الجزية لا بد ان يجلب عليهم اعظم المصايب .

فسوء تصرف النصارى وعدم ملاحظتهم العواقب بان مقدرتهم التي يتوهمون وجودها فما هي بالنسبة لقوة الدولة الا كنسبة العصفور للباشق. هذا وان المظاهرة بشدة العزم جعل الدولة لا تأمن جانبهم خصوصاً لمجاهرتهم بالانتما لدولة اجنبية مع انها غريبة عنهم ووافق هذا عدم لياقة الامير بشير قاسم لتعاطي احكام لبنان لكثرة هزله وفحش كلامه مع كبراء الدروز حال كون طباعهم تأبى ذلك سيما وانهم قد نشأوا بمدة الامير بشير الكبير الذي لم يعهدوا منه هزلاً ولا كلمة غير لايقة ولا بحق اعدايه . فالدروز اغتنموا فرصة تغيير باطن الدولة نحو نصارى

لبنان خصوصاً عندما وقعت حادثة بين اهالي دير القمر واهالي بعقلين وهي بان نصرانياً من دير القمر كان يصيد بباروده حجلا في اراضي بعقلين فدرزياً منها عارضه بذلك فعظم الشر بينهما وحضر مساعدون لكليهما واتصل الحال لضرب السلاح فانطرح الصوت على دير القمر ان اهالي بعقلين قتلوا رجالكم فركبوا المشايخ النكدية وتوجهوا لمحل الواقعة لاجلما يسكنوا الفتنة وهكذا رجال دير القمر تراكضوا متسلحين. وبوصولهم شاهدوا اجتماع رجال بعقلين والقتلاء فاطلقوا البارود على بعضهم واشتد القتال حتى تقهقروا اهالي بعقلين معمن اجتمع لمساعدتهم ولم يرجعوا عنهم رجال دير القمر حتى حصروهم في (١٤٧) قريتهم. فبعد كل هذا حتى امكن المشايخ ان يفصلوا بين الفريقين. فكان المقتول من نصارى دير القمر اربع رجال ومن دروز بعقلين اثنين وثلاثين. فدروز بعقلين كانوا خاص الاصدقاء لنصارى دير القمر ولكن هذه الواقعة غيرت احوالهم وحركت جميع الدروز لاخذ الثار من دير القمر خصوصاً لكون جنبلاط وعماد يرغبون ضعف النكدية الكاينة قوتهم بواسطة رجالها حيث لا يوجد عندهما بلدة تضاهيها والنكدية لم ينتبهوا لذلك. وكان هذا سنة ١٨٤١.

فبعد بلوغ الخبر لدمشق كنت اتردد لعند سليمان افندي امين كلار الحج بشغل يخص الامراء. فسألني عما اعلمه من حادثة بعقلين الشايعة. فاخبرته عما بلغني ببساطة ولم يلوح بفكري ان ولاة الشام لهم تعلق باعمال ايالة صيدا. وكان بوقتها والياً على الشام نجيب باشا من خواص رجال الدولة وعقلايهم. فسليمان افندي كان خاص معتمديه في اعماله لانه من الرجال المعدودة بالحذاقة والتدبير. واصله اسرائيلي انحاز مع ابيه لدين الاسلام في بلاد يافا. وبعد ذلك كنت ارى كثيرين من عمدة دروز لبنان يجولون في دمشق حتى صادفت بعضهم عند سليمان افندي. وبوقتها اشتبهت بوقوع تدابير سرية من الحكومة ضد نصارى لبنان. ثم تحقق لي ان الشيخ قاسم القاضي من دير القمر حضر لدمشق ثم رجع الى الجبل واخذ صحبته احمال من الرصاص والبارود. وكنت شاهدت المذكور عند سليمان افندي. حينئذ ترجح عندي انه حصل الاعتماد على مهاجمة دير القمر وكنت اتردد بفكري ان المشايخ النكدية لا يسمحوا في بلدتهم المحتوية على احسن رجالهم ثم افتكر ان الشيخ قاسم القاضي هو من اخص اقاربهم ولا يعمل شيئاً يخالف رضاهم. وكان بدمشق كثيرين من اهالي دير القمر تجار وصنايعية. فاجتمعت على عقلايهم وتذاكرنا بما هو متوقع وما يمكن وصول الحال اليه وجميعه تسبب من صيد حجلة وان الاوفق لصالح البلد والبلاد عمل وسايط المصالحة

بالوجه الذي يمكنهم وقايةً من وقوع الاضرار. وتفارقنا على ان يحرروا بذلك لوجوه دير القمر فلم يحصل نتيجة .

وفيما كان اهالي دير القمر بذات يوم في اشغالهم ثار عليهم دروز المناصف اذ كانوا دخلوا البلد ليلاً وكمنوا في بيوت دروزها . والنصارى لم يشعروا بهم . وهكذا بالوقت ذاته حضر الشيخ خطار العماد برجاله من اعلى البلد شمالاً وحضر الشيخ سعيد جنبلاط برجال الشوف من شرقيها لان اخيه نعمان بك رجع من نصف الطريق احتساباً من العواقب واهالي بعقلين حضروا من اسفل البلد جنوبيها وامتدوا الى غربيها . وكان برفقة الدروز كثير من رجال النصارى . فاشتعلت نار الحرب بين الفريقين . . . .
. . . .
. . . .

وبعد مدة حضر من طرف الدولة حكمدار على لبنان الشجاع عمر باشا . وهو في الاصل نمساوي هرب من عسكرهم للبلاد العثمانية واسلم وخدم الدولة وتقدم بخدمتها . وبحضوره مهّد احوال الجبل ثم مسك وجوه مشايخ الدروز وارسلهم بالحفظ لعند الوالي في بيروت ليتحقق لدى الناس بان الذي عملوه لم يكن بارادة الحكومة بالوقت الذي لم يجر عليهم قصاصاً . ان بعد ذلك بمدة تجمهر الدروز على عمر باشا وقطعوا الماء عن سراية بتدين مركز اقامته . فخرج اليهم بنفسه وتهددهم فاطلقوا الماء . ثم لا زالوا يتجمعون في الشوف الحيطي وحضر لعندهم شبلي العريان بخيوله حال كونه مستخدم عند حكومة الشام . فعمر باشا استحضر من صيدا نحو مايتين عسكري ارناوط فضربهم الدروز عند نهر الحمام ولكنهم بددوا شمل ضاربيهم ووصلوا لعند عمر باشا. وعندما تقدم العريان بخيله وجمهور الدروز لقرية السمقانية ولم يبق مسافة نصف ساعة لوصولهم الى سراية بتدين حينئذ قابلهم عمر باشا بالعسكر فحاربوه . فأمر بضربهم فلم يثبتوا نصف ساعة حتى تشتتوا طالبين لانفسهم النجاة . وظهر ان هذه المحاربة لم تستحسنها الدولة حيث بعد مدة وجيزة صدر الامر بعزل عمر باشا . ثم حصل الترتيب بقسمة الجبل الى قسمين يفصلها الطريق بين دمشق وبيروت . الشماليه يحكمه امير نصراني . فهذا لا يوجد فيه الف درزي. وجنوبيه يحكمه امير درزي ولكن النصارى في هذا القسم ثلاثة امثال الدروز (١٥١) . وهم الذين تحملوا المصايب دون الشماليين. واما دير القمر فبقيت خارج القسمة حسب استدعاء اهاليها بان يحكمها مأمور خصوصي من طرف والي الايالة .

فهارس الكتاب

ت

خ

د

ذ

ر

ز

س

ص

ض

ط

م

ن

هـ

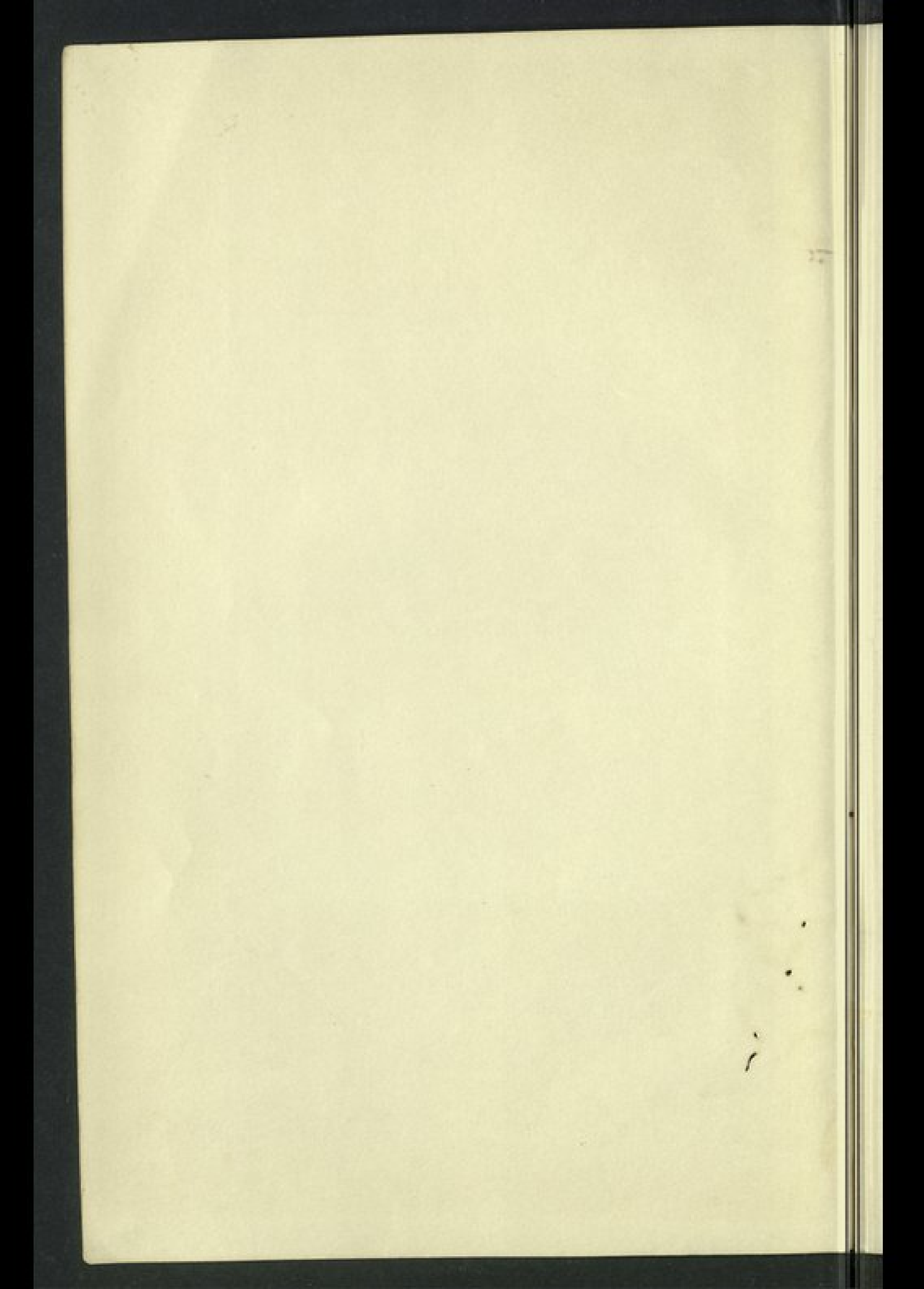
و

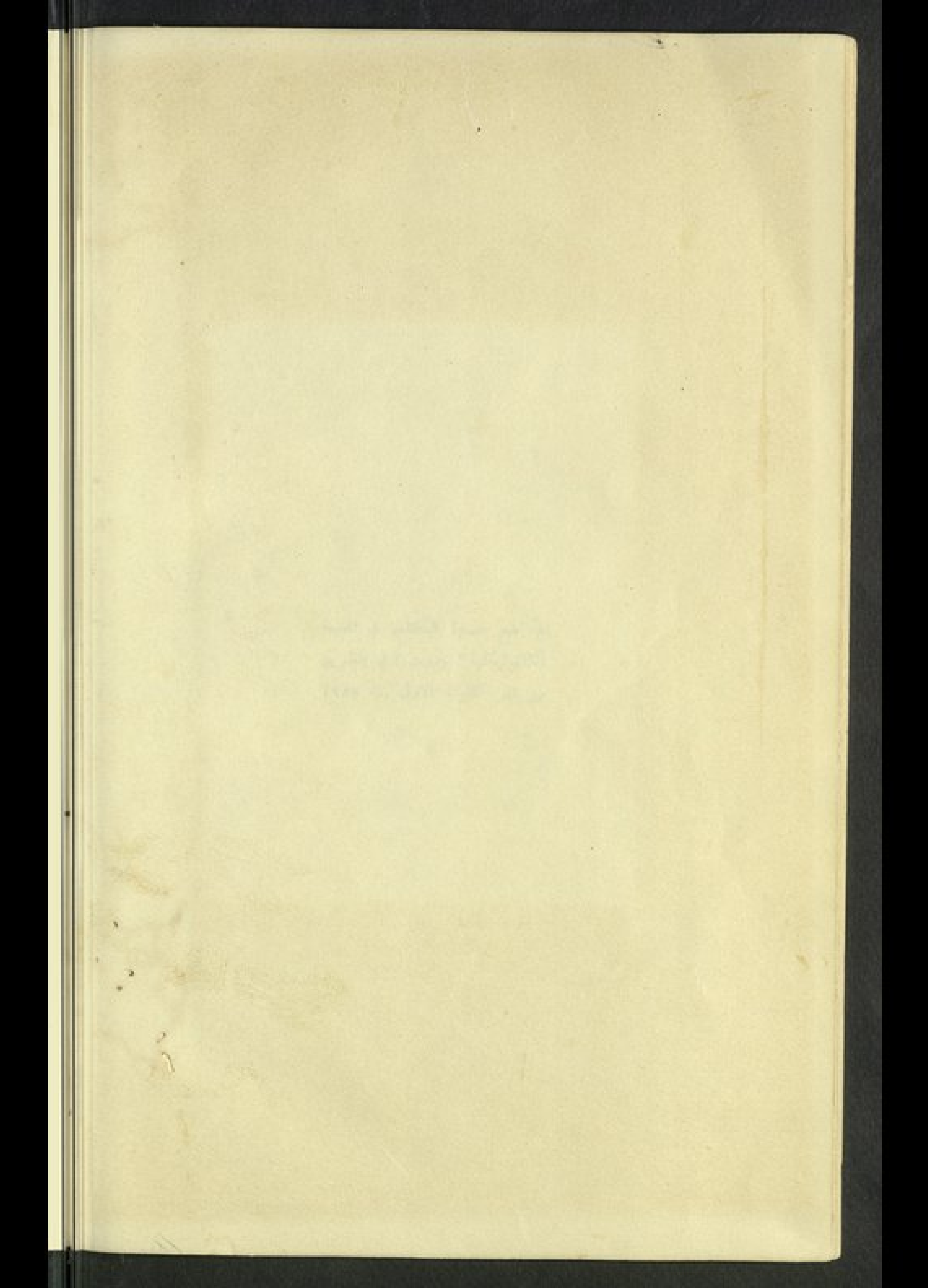
ي

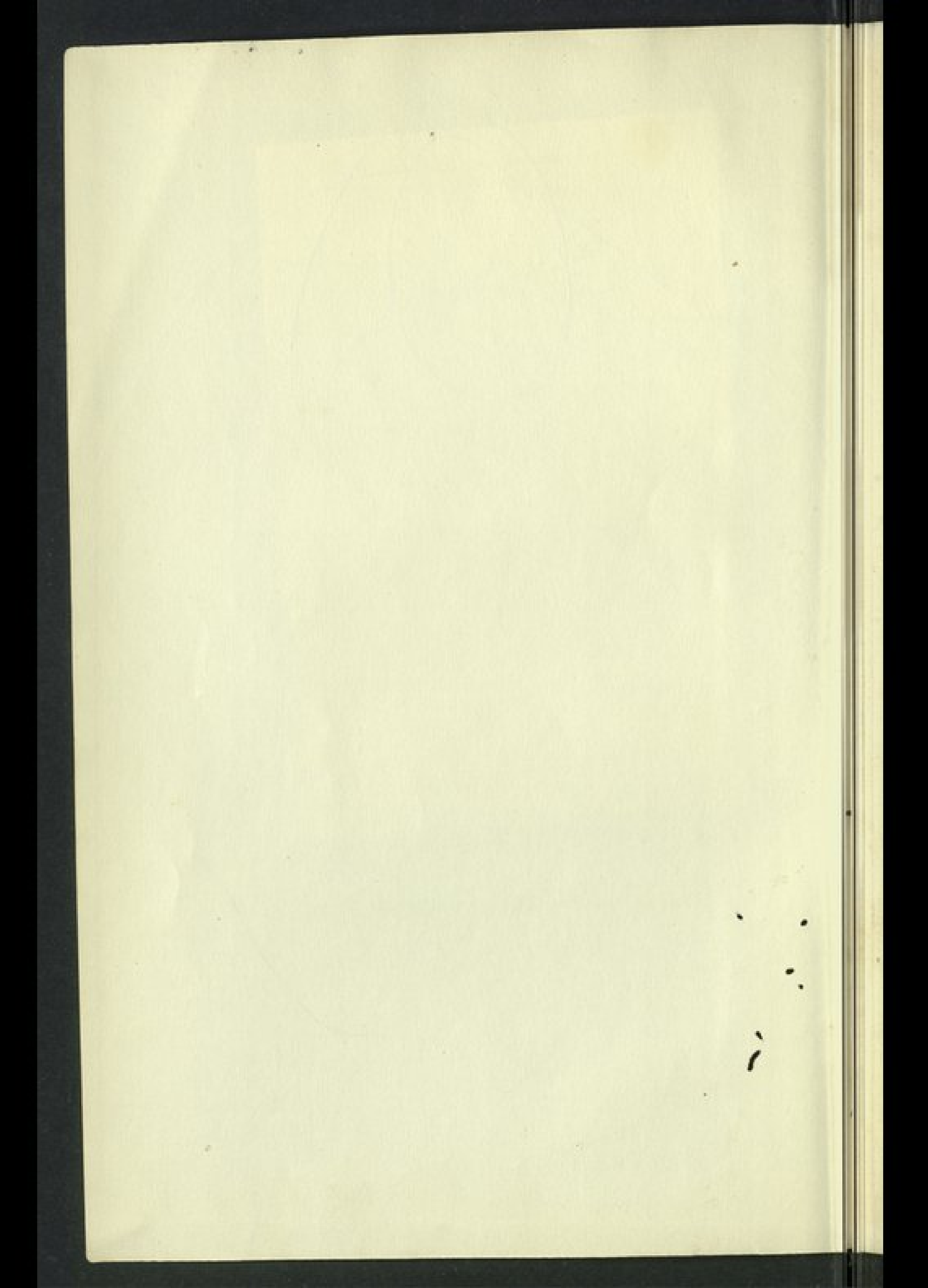
تصويب

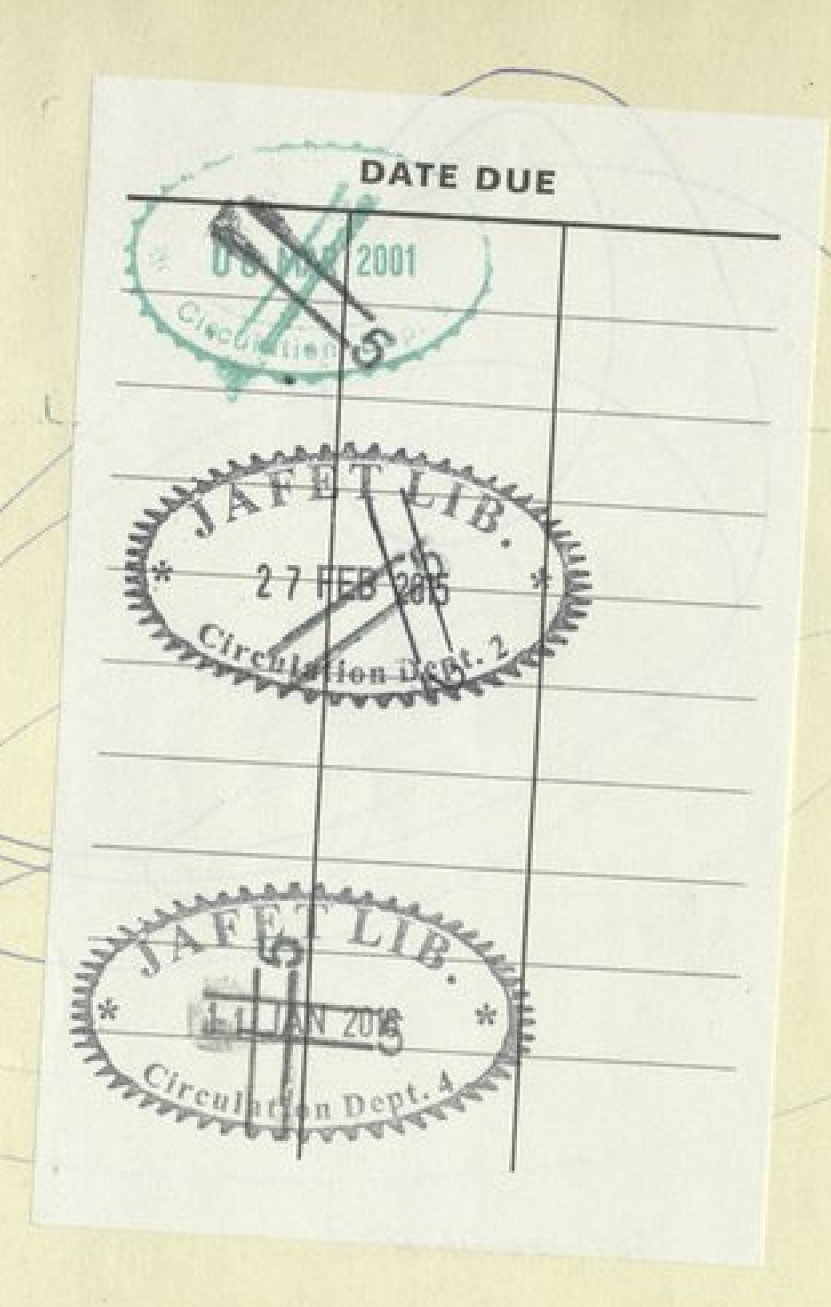
الصفحة	خطأ	صواب
٩	اليشطان	الشيطان
١٢	لاغراض	لاعراض
١٥	لوالدة	لوالده
٤٧	استقص	استقصى
٦٣	يت	بيت
٦٣	كتب	اكتب
٩٣	يضنع	يضع
٩٥	—	يستعطف
١٠٠	فلاوا	فلأوا
١٠٤	وقق	وقف

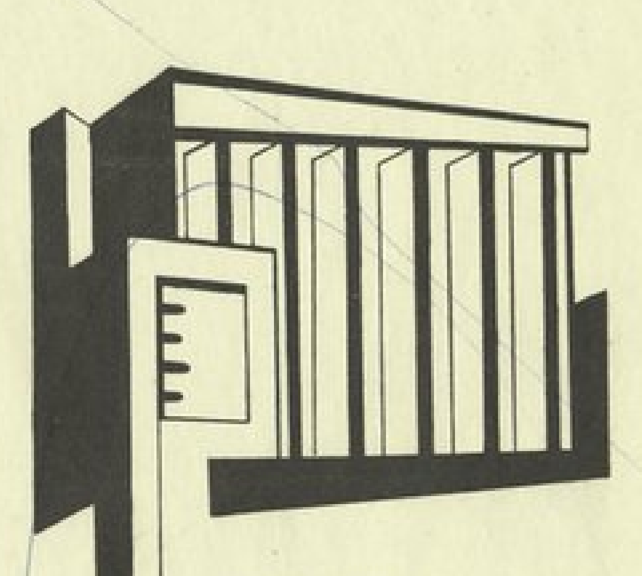
تمّ طبع هـذا الكتاب في المطبعة
الكاثوليكية ، بيروت ، في العشرين
من شهر كانون الاول سنة ١٩٥٥








DATE DUE
JAFET LIB.
27 FEB 2015
Circulation Dept. 2
JAFET LIB.
11 JAN 2016
Circulation Dept. 4


AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

